عدد ممتاز

اقرأ

د. شريف حتاتة

رحلة إلى آسيا

تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا

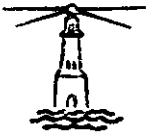

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

د. شريف حتاتة

رحلة إلى آسيا

اقرأ ٣٨١

دار المعارف بمصر

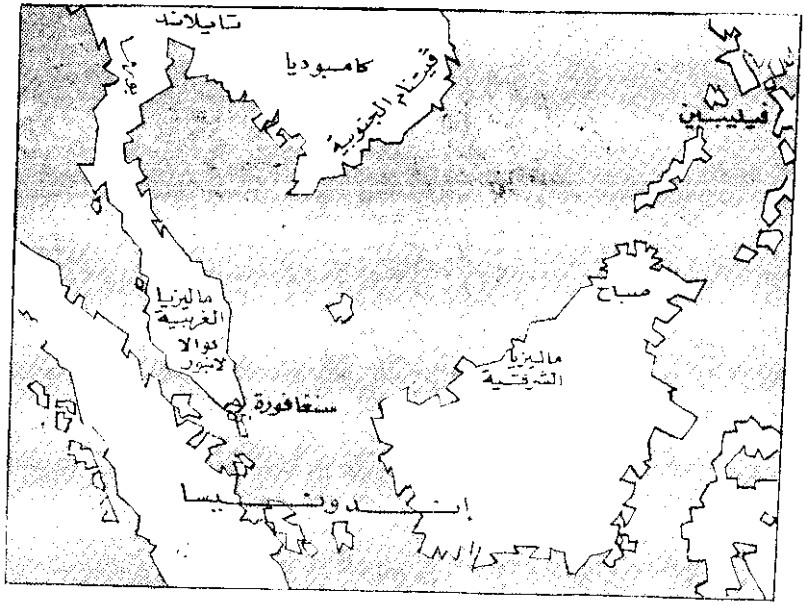

خريطة للدول الآسيوية التي يتناولها الكتاب

رحلة إلى الشرق

تسللت إلى مكتبي لأعد الأوراق التي سأحملها معي للمؤتمر ولأدفن التقارير والكتب في الأدراج كمن يتخلص من عبء ثقيل . لم تكن لي رغبة في التحدث مع أحد . ولا لسماع كلمات الوداع . فوجئت بباب الحجرة يفتح وبالموظف الكبير يطل منه بوجه يشبه وجه القط الرومي المبتسم .

« صباح الخير . أتيت لأسلم عليك »

« أهلا وسهلا . تفضل »

دخل وجلس . تنهدت مستسلماً وضغطت على الجرس .

« فنجان قهوة ؟ »

« لا مانع »

جاءت القهوة . وانغمس الرجل في المقعد كمن يستعد لحديث طويل . راقبت حركاته بعين قلقة ، وهو يشعل سيجارته الطويلة ، ويمد ذراعه ليكشف عن أزرار قميصه الذهبية ، ابتسم في نعومة وقال :

« أردت أن أودعك قبل أن تسافر . أرجو لك رحلة موفقة » .

« أشكرك على هذه اللفتة . أنت دائماً سباق » .

صمت لحظة ثم استطرد :

« ولكن هناك شيئاً لا أفهمه . ما الذي جعلك تختار السفر إلى آسيا لقد كنت أنا هناك منذ عدة سنوات ضمن وفد سافر مع أحد الوزراء . الجو هناك لا يطاق . . . حرارة عالية ، ورطوبة لم أشهد مثلها لا من قبل ولا من بعد . ثم هذه البلاد . . . الشقاء ، والبؤس الذي يقابلك في كل مكان . ستكون رحلة شاقة » .

نطق الكلمات كمن يشفق على حالى إشفاقاً شديداً ، وحملق فى وجهى بعينين فاترتين فيهما طيبة. آثرت الصمت فأسقط رماد سيجارته فى المنفضة وأكمل كلامه .

« أما أوربا فهناك الراحة الحقيقية . الرقى ، والنظافة ، والمدن الحديثة ووسائل التسلية التى لا تنتهى ، السفر بالنسبة إلى أوربا ، أو أمريكا . وما عدا هذا فلا يستحق العناء » .

أثارتنى كلماته فقررت أن أخرج من الصمت .

« أنا لا أبحث عن الراحة » .

تطلع إلى مرة أخرى كمن يواجه شخصاً فقد اتزانه العقلى .

« عم تبحث إذن ؟ » .

« أبحث عن الفهم » .

« وما الذى ستفهمه فى بلاد آسيا » .

« لا أعرف . لذلك قررت أن أذهب » .

.....

الطائرة الضخمة رابضة على الأرض ، بطنها منتفخ كالحشرة الحبلى ، والعلامات الحمراء تلمع عند ذيلها الطويل بأضواء تنذر بالخطر . شىء ما فى وقفتها يذكرنا بالطير الجارح يستعد للانقضاض . وصوت نسائى كسول يتكلف نطق الكلمات بوضوح فتضيع فى مكان ما عند فتحات الأنف الداخلية يقول : « الطائرة جال ٥٤٠ ستقلع بعد نصف ساعة » ، ثم تختصر الجملة فى سلسلة من الكلمات غير المفهومة.

تبادلنا القبلات الخاطفة ، الوجه الأسمر تحت هالة الشعر الأبيض ، والعينان اللامعتان فى صفاء حاد لا يلين ، وعينا الطفل المرفوعتان إلى فى تساؤل بريء وهو يقف منتصب القامة يسند رأسه إلى ردفها الأيسر ، تحتوى وجهه من الجانب الآخر يدها الحانية بأصابعها الطويلة كأنها تريد أن تحميه . والفتاة الطويلة ترمقنى بنظرة فيها جد من خلف النظارة

البيضاوية . . . . نوع من الانفصال المتأمل للمشاهد الذى ينتظر فى هدوء نهاية أحداث تجرى أمامه .

كان ينبغى أن أشعر بالحزن ، أو بشىء ما يشبه الضيق ، أو بغصة فى الحلق ، ولكننى لم أشعر بكل هذا . كنت أنا أيضاً كالمتفرج ، المتأمل ، أنتظر ميعاد السفر مثلما ينتظر السجين فتح باب الزنزانة صباح يوم الإفراج . ليست اللهفة الحارقة القلقة ، التى لا تكاد تحتمل لحظات الانتظار ، وإنما تطلع هادئ إلى أشياء ستحدث ، إلى تغيير فى الحياة ، إلى مبارحة الناس والأشياء التى أصبحت جزءاً ثابتاً متكرراً من حياة تتكرر على المنوال نفسه .

عقلى يقول لى إننى سأفقدهم ، ويسجل هذا الفقدان الوشيك بهدوء لا يهتز ، وذراعى — كالجناحين — تستعدان للطيران فى الفضاء الواسع . مررت من الباب الحديدى الصغير وانهمكت فى إجراءات السفر . . بشىء من الارتباك الداخلى الخفيف الذى ينتابنى كلما واجهت تجربة جديدة فى الحياة . . .

جلست فى صالة الترانزيت أنتظر فى قلق إشارة الرحيل . على «البار» جلس اثنان ، رجل وامرأة ، يدخنان فى هدوء ، تبدو عليهما علامات التعود على التنقل بين مطارات العالم : الملابس الجلدية الأنيقة تلف الجسدين الفارعين ، والشنط المربعة الصغيرة التى توضع فيها الأدوات الضرورية ، والحركات القليلة المدروسة من اليدين والرأس ، والحديث الهامس المطمئن للمسافر الذى يعرف متى ينبغى له أن يستعد للرحيل .

أخرجت كتاباً لأقتل الوقت ولكن ذهنى أخذ يهرب من بين السطور ، ووجدت نفسى أحملق فى رجل مربع الجسم أخذ يروح ويجىء بين المقاعد الجلدية الحمراء فى عصبية ، ويدور بعينيه على الناس كأنه يبحث بينهم عن أحد . فجأة اتجه نحو شاب يرتدى ملابس المضيف الزرقاء كان قد دخل إلى التوّ من أحد الأبواب . انهمكا فى حديث

طويل أمام صوان العطور ، ثم انضمت إليهما مضيفة شقراء تبادلت معهما بضع كلمات ، ثم سارت نحو الباب المفضى إلى المطار ، هى تتمايل فوق كعبى حذائها العاليين الرقيقين .

سرح ذهنى وأخذ يسبح فى قصة تهريب خيالية ، شىء ما فى تصرفات الثلاثة كان غريباً . انتزعت من تأملاتى على صوت نسائى نفاذ يقول : « نرجو من المسافرين على الطائرة جال ٥٤٠ أن يستعدوا لركوب طائرتهم » .

حملت حقيبتى نحو الباب . الزمن يمر سريعاً الآن ، فالحركة تختصر الوقت . التفتيش ، ثم الأتوبيس . رأيت مبنى المطار يبتعد والناس ينكمشون إلى نقاط ملونة صغيرة تلوح من بعيد . صعدت إلى الطائرة وأخذت مكانى بجوار النافذة . ابتعد السلم المتنقل عن باب الطائرة .

زحفت الطائرة ببطء فوق الممر ثم دارت حول نفسها لتقف عند أول مجرى الصعود . علا صوت المحركات كالرعد ، وقفز الهيكل الفضى فى سباقه الجنونى فوق الأرض . أحسست بالطنين فى أذنى ، وبدقات القلب تسرع قليلا . رأيت الجناح الضخم يلمع فى ضوء الشمس ، وارتفعت الطائرة فجأة كأنها تتخلص من جاذبية الأرض بجهد عنيف . نظرت إلى أسفل . القاهرة الآن تبدو كالخريطة الخضراء . أسندت رأسى إلى ظهر المقعد وتركت نفسى تصعد مع الطائرة فوق موجة عارمة من السعادة .

هكذا بدأت الرحلة .

ترانزيت

الطائرة اليابانية تسبح فوق السحب بهدوء محمولة على أجنحة حادة تشق المساحات الزرقاء فى إصرار . هنا فى هذا العالم الصغير كل شىء مدروس بدقة ، الابتسامة التى تهتز فوق شفتى المضيفة وهى تنحنى لتعرب

لك قدحاً من القهوة ، والطلاء الأبيض كسن الفيل يريح العينين ، وزجاجة الكولونيا الخضراء فوق الحوض المعدنى . ومسند الرأس يدعوك للنوم أو السرحان ، والنبض المنتظم يسرى فى الجسد الطويل . غريبة هذه الحياة . تنقلك فى لحظة من قاع الدنيا إلى قمتها . قبل أن أسافر بيوم واحد كنت متجهاً من مركز « بسيون » إلى قريتنا فى سيارة عتيقة تئن تحت وطأة الأجسام المحشورة فى جوفها . . . عذاب لم تفلح الأحاديث الضاحكة فى التخفيف من وطأته .

انتزعنى صوت المضيفة تذيع بلكنة يابانية مثيرة للتوتر : «بعد عشرين دقيقة سننزل فى مطار طهران » .

صالة الترانزيت تحلق فوقها كآبة غريبة ، تلك التى تجدها فى كل صالات الترانزيت عندما يزحف عليها الليل ، وساعات الانتظار الطويلة . فى دورة المياه وقف خمسة من الرجال بأثوابهم البيضاء التى تشبه لباس العرب . وتقاطيعهم الحادة تنتهى عند لحى طويلة مدببة وخطها الشيب ، يتوضأون عند حنفيات المياه . ويتبادلون الحديث فى كلمات صوتها أجش . خرجت وجلست على مقعد عند نهاية الصالة الفسيحة . كانت مكتظة بعشرات المسافرين . . . وجوه يابانية متشابهة . صامتة . تجلس فى سكون بدون حركة . أو تغلق عيونها فى نوم عميق .

بين وقت وآخر كنت أفاجأ برجل أو امرأة تنتفض واقفة لتقوم ببعض الحركات الرياضية مثل دمية ميكانيكية . ثم تجلس من جديد . شىء فيهم . لا أدرى ماذا ، ربما نظرة العيون الصغيرة أو الصمت . أو الحركات المنظمة ، تثير القلق . إلى جوارى سمعت صوتاً أمريكياً عالياً ومزعجاً يمط الكلمات ، فالتفت ناحيته لأجد عملاقاً أحمر الوجه ، عريض المنكبين ، يتحدث إلى شاب طويل بالغ النحافة تنطق قسماته بأصله الفارسى ترك شعر رأسه ينسدل على ظهره ، وقد ارتدى سترة طويلة تضيق عند الكتفين العاليتين . كان يتطلع إلى الرجل الأمريكى فى

شيء قريب من الإعجاب ، كأنه يستمع إلى الحكم الغالية . تذكرت للحظة منظراً طالما شاهدته فى القاهرة . ذلك الجمع الصغير من الأساتذة المصريين الذين يتجمعون فى الحفلات والمؤتمرات حول كل « خبير » من الغرب يستمعون إليه كأنه يقول ما لم يقله أحد من قبل .

انغمست مرة أخرى فى مقعد الطائرة المريح . صالات الترانزيت هكذا دائماً تثير فيك التساؤلات ؛ ورغبة فى أن تخترق الستار .

كانت المحطة الثانية نيودلهى . لم تكن فترة الانتظار فيها طويلة . فجلسنا فى الطائرة ننتظر . الحرارة اللافحة تهب علينا ، والعرق يسيل من فرط الرطوبة . على أرض المطار تتحرك الأجساد السمراء ، وضابط فى لباسه الأبيض يتناقش فى عصبية ، وأياد تلوح فى غضب وفى السماء تحوم الحدأ فى مجموعات لا نهاية لها ، باحثة عن شيء تنقض عليه . لمحت من النافذة الصغيرة الحقول المنبسطة ، والجاموس الأسود يغوص بأقدامه وسط النبات الأخضر . . أشياء تذكرنى بمصر .

لن تبقى الهند كتاباً مغلقاً . سأفتح الكتاب فى رحلة العودة .

أيام فى (تايلاند)

وصلت إلى « بانجكوك» عاصمة تايلاند فى الساعة الثانية بعد الظهر. وجدت سائق سيارة الفندق ينتظرنى . إنه شاب نحيف ، شعره الأملس الأسود يسقط فوق جبهته فيزيحه عنها بحركة سريعة من الرأس . قاد السيارة الفولكس بسرعة جنونية طوال الخمسين دقيقة من الضاحية التى يوجد فيها المطار إلى فندق فيكتورى (النصر) فى شارع سيلوم . الشارع عريض ناعم كالحرير يندفع فوقه سيل لا ينقطع من السيارات تكاد مقدمة كل سيارة تصطدم بمؤخرة الأخرى . والجميع يسيرون بالسرعة الجنونية نفسها كأنهم حلقات سلسلة واحدة ، مترابطة ، تتحرك فى وقت واحد ، وتقف فى وقت واحد ، أو كعربات يجرها قطار .

أول الأمر شعرت بالجزع ، ولكن بعد قليل تركت نفسى بين يدى السائق وقد أحسست بالاطمئنان إزاء مهارته الواضحة . وطوال الأسبوع الذى أقمته فى « بانجكوك » كنت أتعجب من دقة المرور وسرعته . الجميع يحترمون القواعد . الأولوية تعطى دائماً للذى يأتى من اليمين ، ولا أحد يخرق هذه الأولوية . وآلة التنبيه لا تستعمل أبداً . والمشاة هم سادة الطريق . فسائق السيارة يقف فى هدوء لينتظرهم حتى يجتازوا الشارع أيًّا كانت النقطة التى يجتازونه منها . ولا أحد يتشاجر أو يلوح فى عصبية ، أو يبدو عليه الضيق . وكل هذا فى سرعة ونظام يبدو كالحلم الميكانيكى المنساب . تذكرت المرور فى شوارع أمريكا ولكننى أحسست هنا بأن الدقة تفوق دقتهم .

لقد لفت نظرى من أول لحظة ظاهرتان : أثر الغرب ، وأمريكا بالذات ، فى هذه المنطقة من العالم ، والقدرة الآسيوية على المحاكاة ، والتقليد ، وعلى تقبل كل نظام دقيق ، مهما كان صارماً فى دقته .

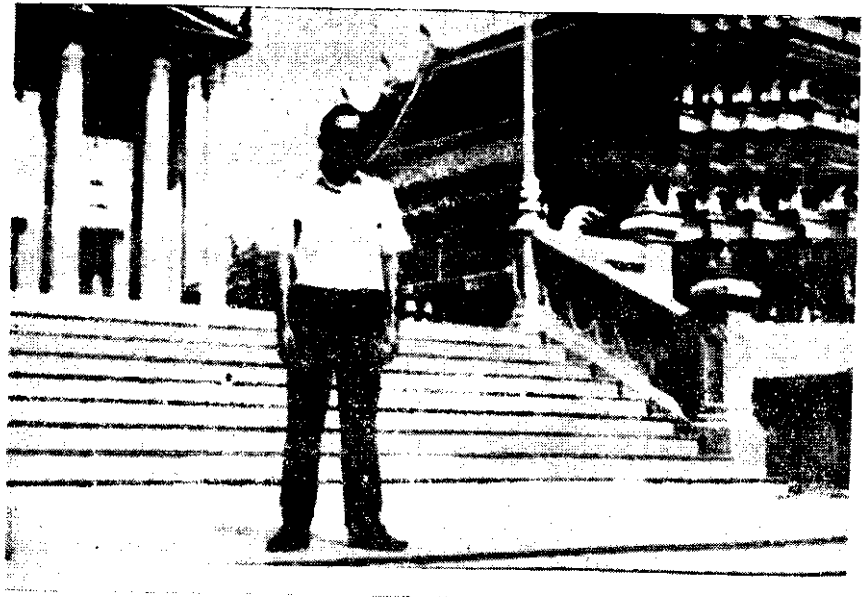

تايلاند : (بانجكوك) ، « أحمد أمينو الدين » سائق السيارة

وهاتان الظاهرتان كان مقدراً أن أراهما فى عديد من نواحى الحياة التى شاهدتها فيما بعد .

الشارع الطويل العريض يخترق الحقول الخضراء التى تمتد إلى الأفق على الجانبين . ولكن على حافة الطريق ارتفعت خطوط متصلة من المبانى الحديثة يغلب فى تصميمها الحديد الأسود والزجاج ، وأعمدة المسلح . العمارة أمريكية والمبانى شركات أمريكية ، أو فروع لهذه الشركات أضيفت إليها أسماء تايلاندية . كلها بنوك أو شركات تأمين أو شركات تجارية أو مخازن . لم أر طوال المسافة التى استغرقت ساعة تقريباً إلا مصنعاً واحداً صغيراً للخشب .

توقفت السيارة أمام الفندق . فى لمح البصر وجدت نفسى فى الحجرة الصغيرة الأنيقة أستمتع بتيار الهواء البارد المنبعث من جهاز التكييف ، وقد أدركت لأول مرة كيف أن هذه الأجهزة يمكن أن تحول المبانى والحجرات إلى جنة صغيرة يأوى إليها الناس هرباً من القيظ العنيف ، والرطوبة الخانقة التى تميز هذه المنطقة من العالم .

أفرغت حقائبى فى الدواليب والأدراج . وبعد حمام ساخن ارتديت ملابس نظيفة ، وتأهبت للنزول . كان أمامى يوم ونصف إجازة أزور فيها المدينة قبل أن أبدأ المهمة التى جئت من أجلها . ففى تايلاند ، وعلى الأخص فى العاصمة « بانجكوك » ، الإجازة نصف يوم السبت ويوم الأحد بأكمله .

نزلت إلى الشارع بشعور المقدم على مغامرة مثيرة لأجد نفسى فى قلب « بانجكوك » : مدينة عصرية يسكنها خمسة ملايين نسمة وتتسع بسرعة جنونية . فالمهاجرون إليها من الريف الذين يضافون إلى العدد الضخم من المواليد الجدد كل سنة يجعلون معدل النمو الطبيعى فى عدد سكانها يصل إلى ٦ ٪ . المدينة مبنية على مساحات شاسعة ، وفى كل

مكان ترتفع مظاهر العمران السريعة فى شكل مبان حديثة على الطراز الأمريكى ، تقيمها فى أغلب الأحيان شركات عقارية أمريكية .

و « بانجكوك » فريدة فى أنها المدينة الوحيدة الكبيرة فى تايلاند ، حيث إن المدينة الثانية بعدها والتى تبعد عنها بمسافة لا تزيد على ١٥٠ كيلو متراً ، لا يسكنها سوى ١٠٠,٠٠٠ نسمة .

نساء المدينة !

سرت فى الشارع متمهلا أعانى من لفحات الحر الحارقة . ولولا الوجوه السمراء ، والعيون المسحوبة الآسيوية ، والأجساد القصيرة النحيفة لاعتقدت أننى فى مدينة أمريكية : البيوت ، والشوارع والشرطة بخوذاتهم المتميزة ومسدساتهم . وعصيهم القصيرة من المطاط والتى تتدلى من الحزام ، ومتوسيكلاتهم الحمراء الضخمة التى تنطلق بصوت كالرعد ، أو سياراتهم الفارهة تزحف عبر الشوارع ، ككلاب الصيد تبحث عن رائحة الضحية ، ومحلات « السوبر ماركت » الكبيرة تستمتع فيها بنعمة التكييف ، وتتجول عبر ردهاتها الطويلة بين الأقسام والأدوار المختلفة لترى كميات وأنواعاً لا تنتهى من البضائع المستوردة . حتى المأكولات هى بالضبط تلك التى كنت أبتاعها فى شيكاغو أو واشنجتون ، أو نيويورك .

« المينيجيب » القصير للغاية يرتديه جميع النساء فى المدينة ما عدا كبار السن أو ساكنات الأحياء الفقيرة . وأنت لا تستطيع أن تحدد سن المرأة التايلاندية أو الرجل التايلاندى فجميعهم يبدون كالشباب . والتغيير يحدث عندهم ربما فى وقت ما بعد الخمسين ، لتجد نفسك فجأة أمام امرأة عجوز ، وكأن ثقل السنين ينقض عليها دفعة واحدة ، أو كأن الشيخوخة مرض مفاجئ يصيب الإنسان بدون مقدمات . وبقدر ما كنت أحس بسحر هذا الشباب الدائم ، كنت أقشعر أمام هذا العجز الذى يوحى بالموت بالقدر نفسه .

والنساء فى بانجكوك جميلات للغاية. فهنا البشرة البيضاء ، والشعر الأسود المنسدل مثل الحرير ، والأجساد النحيفة الرشيقة فى الثوب القصير تسير فى ليونة وخفة وسرعة عبر شوارع المدينة . وهن يرتدين الأحذية المسطحة الخالية من الكعوب .. فالجمال هنا يقترن بالبساطة وبالأشياء العملية . إنك لا تجدهن يتسكعن فى الطرقات ، بخطوات متهالكة متعثرة فوق الكعوب العالية ، مثل أسراب البط المرهقة . بل الخطوات سريعة تحس أنها تقود إلى هدف محدد ، والوجوه والعيون متجهة إلى الأمام ، لا تنظر هنا أو هناك ، ولا تجد تجمعات من النساء يبحلقن فى « الفترينا » ويتنقلن من محل إلى محل فى غزوة شرائية تستمر عدة ساعات .

هذا السلوك العملى لاحظته فى الرجال أيضاً . ولكنه لفت نظرى فى النساء بشكل خاص . فعندما ذهبت إلى تايلاند كنت أظن أننى سأجد كثيراً من المظاهر التى تشترك فيها البلاد النامية ، ومنها ظاهرة التعطل والبطالة بين النساء . كنت أظن أن النساء فى المدينة شأنهن شأن نساء القاهرة مثلا ، أغلبهن من ربات البيوت .

ولكن منذ أول يوم لاحظت ظاهرة لفتت نظرى وأنا أسير عبر شوارع المدينة الكبيرة . فى كل عمل يقوم به الرجال تجد إلى جوارهم النساء . لا تجدهن فقط فى المكاتب ، والمحلات التجارية ، والمهن ، ولكنهن أيضاً فى جميع الأعمال مهما كانت شاقة . إنهن يقدن « التاكسيات » والمتوسيكلات ، ويقفن مناديات عند أماكن الوقوف المحددة للسيارات وقد حملن بين أيديهن دفاتر « الوصولات » التى تعطى لصاحب السيارة عند دفعه المبلغ المقرر لوقوف السيارة .

وهذا هو ما رأيته أيضاً فى « سنغافورة » وفى « كوالالامبور » عاصمة ماليزيا . إنهن يشاركن الرجل فى العمل عندما يفتح مطعماً أو محلا تجاريًّا . فتجد الزوجة والأخوات والبنات جميعهن يساهمن فى أعمال الإدارة ، وفى خدمة الزبائن ، بل فى كثير من الأحيان يقمن وحدهن

بجميع هذه الأعمال لا فرق بينهن وبين الرجال . وفى المواقع العديدة التى تنشأ فيها العمارات ، والمبانى الجديدة يمكنك أن تشهدهن وهن يصعدن السقالات العالية حاملات « قصاع » الأسمنت وأحمال الطوب ، أو يقمن بخلط الأسمنت ، أو يشاركن فى عملية البناء نفسه . فكما يوجد أسطوات من الرجال يوجد أيضاً « أسطوات » من النساء . ينتمين إلى مهنة « البنائين » .

وهذه الظاهرة غير المتوقعة تعطيك إحساساً بالرقى والتقدم ، فهى ظاهرة تنعكس على عديد من نواحى الحياة الأخرى . فالعلاقات بين الجنسين ، بين الرجل والمرأة ، بين الشبان والشابات لا يشوبها كثير من الأعراض المرضية التى تجدها حيث تبقى المرأة أو الفتاة سجينة بين جدران البيت . فلم أر طوال الأسبوع الذى أقمته فى « بانجكوك » تجمعات من الشباب على نواصى الشوارع ينشغلون بتلك المعاكسات السخيفة التى أصبحت جزءاً من حياتنا اليومية ، ولم ألمح تلك النظرات العطشى على وجوه الشبان والشابات ، والرجال والنساء ، التى نراها وهى تتبادل بطريقة صريحة أو خفية فى الطرقات ، وعلى الأرصفة ، ومن نوافذ البيوت .

وعندما انتقلت فيما بعد إلى خارج « بانجكوك » إلى المناطق الريفية المجاورة التى تبعد ما يقرب من ٦٠ كيلو متراً عن العاصمة ، وجدت صوراً أخرى من الظاهرة نفسها فهذه المنطقة تتخصص فى زراعة الفواكه ، والخضراوات ، لتموين المدينة . والناس يعتمدون فى تنقلاتهم على مجارى المياه ، على القنوات والأنهار ، التى تشق الساحات الواسعة بشبكة مترامية من المسالك المائية ، والتى يعبرونها فى القوارب الرفيعة يدفعونها عبر المسافات الطويلة إما بالاعتماد على المجاذيف أو على المحركات الصغيرة التى يثبتونها فى مؤخرة القارب ، وتندفع هذه القوارب بسرعة كبيرة فوق المياه الحمراء للنهر تشبه فى لونها مياه النيل فى مواسم الفيضان قبل بناء

السد العالى . وترتفع المقدمة المدببة للقارب فى الهواء ويشق قاعها الحاد كالسكين مياه النهر محدثاً أمواجاً عالية ، وسحباً من الرذاذ المنعش . وهذه القوارب تستخدم أيضاً « كأتوبيسات نهرية » يملكها الأفراد ، ويكسبون من ورائها عيشهم عن طريق نقل الناس وبعض البضائع الخفيفة .

وقد رأيت عشرات ، بل مئات من النساء يقدن هذه القوارب المسرعة أو يدفعنها « بالمقاذيف » عبر القنوات الضيقة ، أو فوق الأنهر العريضة المندفعة ، وقد وضعن فى القوارب أكواماً من الفواكه ، والخضراوات ، يحملنها إلى « الأسواق العائمة » فى أطراف مدينة « بانجكوك » ، أو بعض الحاجيات التى ابتعنها ليعدن بها إلى بيوتهن .

وهكذا نرى أن المرأة الريفية ، شأنها شأن المرأة فى المدينة تتحمل عبئاً مثل الرجل وتتمتع بقدر كبير من الاستقلال فى العمل .

ولكننى شاهدت مظاهر أخرى لحياة المرأة تبين أن أدران الماضى ما زالت تثقل كاهلها فى كثير من نواحى الحياة . فى الليلة نفسها خرجت إلى الشارع بحثاً عن بعض نسمات منعشة بعد حرارة اليوم المرهقة . لم أكن قد أدركت بعد أن لا فرق هنالك بين النهار والليل ، وأن ليالى الصيف فى القاهرة نعمة لا تجدها فى هذه المنطقة من العالم . فالجو هناك ثابت . لا يتغير تقريباً بين المواسم ، ولا يختلف بين ساعات النهار والليل . وقفت أمام أحد المحال أتطلع إلى جهاز صغير للتسجيل يصلح لأعمال المكتب . أحسست بشخص يقف إلى جوارى ، فالتفت ناحيته لأجد شاباً وسيماً ، جسده الممشوق يبدو قوياً تحت القميص الأبيض ، والسروال الضيق الذى يلتصق بعضلات فخذية ويظهرها . ابتسم إلى فى ود ثم نطق بلغة إنجليزية ركيكة تشوبها تلك اللكنة الآسيوية الحادة المميزة :

« أتريد أن تشترى هذا الجهاز ؟ »

قلت : « ربما » .
ظننته بائعاً فى المحل . تصادف وجوده فى هذا المكان فسألته :
« أتعرف ثمنه ؟ » .
قال :
« أعتقد أنه يساوى ثمانين دولاراً أمريكيًّا . »
« حسناً . سأعود غداً لأستكشف مزاياه »
وهممت بالانصراف .
قال :
« أين أنت ذاهب ؟ »
« سأعود إلى الفندق » .
« هل لديك مانع من أن أصاحبك جزءاً من الطريق » ؟
« تفضل » .
سرنا جنباً إلى جنب بخطى بطيئة على الرصيف .
سأل :
« من أى بلد أنت ؟ »
« من مصر » .
« أمعك أسرتك ؟ »
« لا ، وحدى »
سكت برهة ثم قال :
« ألا تريد أن تقضى ليلة ممتعة ؟ »
استيقظت طبيعتى الحذرة فتوقفت وحملقت فى عينيه الهادئتين لحظة وقلت :

« ماذا تقصد ؟ »

« توجد أفلام حية ممتعة يمكنك أن تراها »

« رأيتها من قبل ، ولم أجد فيها شيئاً يجذبنى » .

« حسناً ، وليكن . ألا تريد بنتاً جميلة تقضى معها الليلة ؟ »

« لا أشعر بحاجة إلى ذلك » .

صمت كأنه يفكر فيما يمكن أن يقترحه بعد ذلك . قررت أن أستفيد من هذا اللقاء لأعرف بعض الأشياء . فمثل هؤلاء الرجال يعرفون الكثير . قلت :

« ما الذى دفعك إلى هذا العمل ؟ أنت شاب تبدو عليك الوسامة ، والذكاء . ألا تستطيع أن تختار عملا آخر ؟ »

اختفت ابتسامته وبدت عليه مسحة من الكآبة .

« ربما . فرص العمل ليست كثيرة » .

« لماذا » ؟

« لم أستكمل الدراسة وفرص العمل هنا محدودة . التجارة فى الحرير ، والجواهر ، هى نشاط بانجكوك الأساسى » .

« والمصانع ؟ »

« لا توجد مصانع ؟ »

« والدعارة » ؟

« تجارة رابحة هى والمخدرات »

« وهل تجارتكم هذه منتشرة ؟ »

« جداً »

« ولكن لاحظت أن النساء يعملن عندكم فى كل أنواع النشاط . فهن لسن فى حاجة إلى مثل هذا العمل .

« نحن نجلبهن من المناطق الريفية الفقيرة . البعيدة عن « بانجكوك » ، حيث تضيق سبل العيش إلى حد الجوع » .

« وكيف تجلبونهن » .

« نشتريهن من الأسرة . من الآباء مقابل عقود عمل وهمية فى المدينة . وندفع مبلغاً مقدماً يغريهم على الموافقة ، ثم بعد ذلك لا شىء » .

« أتعرف كم عددهن فى بانجكوك ؟ »

« لا أعرف بالضبط ولكن أعتقد أنه يقرب من ستة آلاف » .

كنا قد أصبحنا أمام الفندق . فدعوته إلى الدخول ولكنه أبى . ابتسم ناحيتى مرة أخرى وقال :

« ألا تريد أن تغير رأيك ؟ »

قلت : « أشكرك » .

مد إلى يده وضغط على يدى بسرعة ثم انصرف . رأيت جسمه اللدن القوى يختفى فى الظلام .

وربما كان هذا هو أكثر الجوانب قتامة فى حياة بعض النساء فى بانجكوك . ولكننى أحسست بأشياء أخرى ، وإن كان هذا الإحساس لا يستند إلى أكثر من مجرد الانطباع السريع ، وخبرة الحياة المترسبة فى الأعماق .

النساء هنا جميلات ورشيقات للغاية . ولكنه جمال من نوع غريب ، لا حرارة فيه ولا شخصية كأنهن دمى مستسلمة وديعة يتبعن الرجال ، ويأتمرن بأمرهم بدون مناقشة . ومظاهر التحرر تحس أن فيها شيئاً غير سوى ، كأنه تحرر فى المظهر ، فى الجسد ، وربما تحرر من الخلق ، ولكنه ليس تحرراً فى الفكر ، وفى العواطف . لقد فوجئت بعدد كبير من النساء يدخن فى أثناء السير فى الشوارع . ولا أعتبر نفسى من المتزمتين

ولكن هناك شيئاً ما فى هذا المنظر أشعرنى بوجود نوع من التحلل ربما زحف إلى المدينة ، إلى بانجكوك بالذات .

على كل حال لم أستطع أن أرى شيئاً كثيراً فى هذا اليوم الأول . ربما كنت أوفر حظًا فى غد فأمامى يوم بأكمله أستطيع أن أتجول فيه عبر المدينة . وألتقط الأشياء وأسجلها . فقدرة الإنسان على الملاحظة تتضاعف فى أثناء السفر وكأن جميع مسام الجسم وحواسه مفتوحة لتستنشق مما حولها ، كالإسفنج يمتص حتى التشبع .

صديقى السائق

فى صباح اليوم التالى كنت أسير فى شارع سيلوم أمام فندق « كاثاى باسفيك » حينما استوقفنى رجل طويل القامة بشرته سمراء . لولا وجناته العالية . البارزة قليلا . واستطالة عينيه الصغيرتين لكان من الممكن أن يكون من أهل أسوان . قال لى بالإنجليزية :

« صباح الخير ياسيدى . هل أستطيع أن أؤدى لك خدمة ؟ »

توقفت عن السير وابتسمت قائلا :

«أية خدمة تلك التى تقترح أن تقدمها لى ؟ »

« لدى سيارة أجرة . ويمكننا أن نتجول فيها . وأن ترى مدينة بانجكوك » .

ترددت لحظات قبل أن أجيب . شىء فى هذه المدينة ينذر بالمخاطر المستترة كنت قد تعودت عندما أنزل إلى مدينة غريبة أن أتجول فيها سيراً على الأقدام ، أو أن أركب المواصلات العادية . وربما تكون هذه الوسيلة مرهقة إلى حد كبير . ولكنها أفضل طريقة للتعرف على الأماكن الجديدة . ودراسة معالمها وشوارعها ، وحياة الناس فيها . فضلا عن أن هذه الطريقة تجعلك تختلط بالناس ، وترى كيف يعملون ويعيشون تتبادل معهم الأحاديث فى شتى المسائل .

ولكن هذه المرة ليس أمامى سوى يوم واحد . وبعد ذلك سأكون مشغولا بالاطلاع على برنامج تنظم الأسرة فى « تايلاند » الذى اجتزت من أجله مسافة خمسة آلاف كيلومتر من القاهرة إلى « بانجكوك » . المعرفة لا تأتى إلا بشىء من المخاطرة . بألا تبقى منغلقاً . منعزلا فى قوقعتك ماذا يمكن أن يحدث ؟ إنه سائق سيارة مرخص يقف أمام باب أحد الفنادق الكبيرة . الاحتمال الوحيد هو أن أسرق وما دمت لا أحمل معى سوى مبلغ محدود من المال فإن الموضوع لا يستحق كل هذا الحذر .

قلت :

« كم تكلفنى هذه الرحلة » ؟

فكر قليلا كأنه يحسب . ثم أجاب :

« ثلثمائة وخمسون باطاً[1] . وسأبقى معك حتى منتصف الليل » .

نظر فى ساعة يده واستطرد :

« الساعة الآن العاشرة صباحاً . . إذن ستتجول لمدة أربع عشرة ساعة » .

فكرت سريعاً . كنت قد اطلعت على نشرات الشركات السياحية فى الفندق ، وعرفت أن جولة لمدة يوم عن طريق الأتوبيسات تتكلف اثنى عشر دولاراً . قلت :

« أنا على استعداد لأن أدفع مائتين وخمسين باطاً[2] » .

حملق فى وجهى ثم ابتسم :

« من أى بلد أنت ؟ »

« من مصر » .

« من مصر ؟ من بلد ناصر ؟ »

« نعم » .

« أنت مسلم إذن » .

---

(١) ما يقرب من ١٥ دولاراً . (٢) عشرة دولارات تقريبا .

« نعم مسلم » .

اتسعت الابتسامة على وجهه وزحفت لأول مرة إلى عينيه ، فأضاءتهما ببريق قوى قضت على نظرة الكآبة التى كانت تطل منها منذ لحظات . نظرة شخص يزاول عملية تكررت آلاف المرات حتى فقد حماسه لها .

« وأنا مسلم أيضاً . اسمى أحمد الحاج أمينو الدين » .

أخرج من جيبه ورقة صغيرة بيضاء متسخة ، ومزقة من كثرة ما طويت . مد يده بها إلىّ . أخذتها وفتحتها بحرص شديد حتى لا تتمزق تماماً ، لأجد بضع كلمات مخطوطة بقلم من الرصاص . . خليطاً من الحروف الكوفية ، والنسخ ، والرقعة تعلو وتهبط على السطح المصفر فى سطور متعرجة كلمات تدرك أن الذى كتبها لا يعرف إلا أقل القليل عن اللغة العربية .

« أحمد الحاج أمينو الدين » .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين » .

هززت رأسى . طويت الورقة وأعدتها إليه . أخرج محفظته ووضعها بعناية داخلها . ثم أعاد المحفظة إلى جيب سرواله الخلفى .

قال :

« نحن إخوة . هيا بنا . سيارتى هناك » . أشار إلى سيارة « ستيوديبيكر » تقف بجوار الرصيف عند المدخل الرئيسى للفندق ، فتبعته . فتح لى الباب الخلفى فأشرت إلى المقعد الأمامى . ضحك مسروراً . فتحت الباب وجلست إلى جواره . أدار « الكونتكت » وضغط البنزين بقوة كأنه يشعر بسعادة عند سماع صوت المحرك . تحركت السيارة فى انسياب وانضمت إلى التيار المتدفق عبر الشارع العريض .

سألنى :

« أين تريد أن تذهب ؟ »

قلت :

« ماذا تقترح ؟ نزور أولا بعض المعابد البوذية » .

« حسناً وبعد ذلك يمكننا أن نتجول فى " سوق الأحد " . ثم نذهب إلى مدينة " تيملاند " فى ضواحى "بانجكوك " » .

« ما هو سوق الأحد هذا . أليس سوقاً مثل كل الأسواق ؟ »

« نظر إلىّ كأنه يرثى لحالى ثم ابتسم ابتسامة غامضة كمن يحتفظ بمفاجأة سارة . وقال :

« سترى بنفسك » .

« لم تحدثنى عن مدينة تيملاند » .

« إنها مدينة سياحية » .

« أنا لا أحب المدن السياحية » .

« ولكن كل من يحضر إلى بانجكوك يذهب لزيارتها » .

« أنت منظم الجولة وسأتركها لك . ولكننى سمعت عن سوق اسمه " السوق العائمة " . لماذا لا نذهب إليه ؟ »

« لك حق . إنه يستحق الرؤية . ولكنه يبدأ فى الصباح الباكر وينتهى الساعة الحادية عشرة . ولم يعد أمامنا متسع من الوقت فالساعة الآن العاشرة والنصف » .

« ولكنى أريد أن أذهب إلى النهر هناك » .

« وهو كذلك . هذا ممكن » .

« ولى طلب آخر . أريد أن أذهب إلى الريف . وأن أزور أسرة ريفية . سأقضى الأسبوع كله فى بانجكوك . وربما تكون هذه فرصتى الوحيدة لرؤية الحياة خارج العاصمة » .

« وهذا ممكن أيضاً » .

تايلاند : السوق العائمة

الركشا والإنسان !

تطلعت إلى الشارع المزدحم . كنا نمر عبر الحى الصينى . حركة لا تنتهى من الناس ، والسيارات . والمتوسيكلات . هنا وهناك ترى « الركشا » عربة صغيرة يركب فيها اثنان ويجرها رجل ، ترى عروقه النافرة فى العنق ، والأنفاس اللاهثة ، والعرق المنهمر على وجهه . وجسمه ، يجعل من القميص الذى يرتديه خرقة مبللة بصدره ، وبطنه وظهره . منظر غريب يشعرك إلى أية درجة يمكن أن يصل إليه امتهان الإنسان لأخيه الإنسان ، للإنسان الفقير الذى يبحث عن لقمة العيش يسكت بها بعض آلام الجوع . طوال المدة التى قضيتها فى المدن الآسيوية المختلفة كنت أرى هذا المنظر المثير للشفقة والغضب فى آن واحد . منظراً كان يملأ قلبى حزناً ثقيلا . ويفسد علىّ متعة البحث عن الجديد. عرض علىّ أن أركب « الركشا » . كنت أرفض بإصرار . لم أكن أتصور نفسى جالساً فى المقعد والرجل المرهق يجرنى وكأنه دابة . وأمام إصرارى هذا كان أصدقائى ينظرون إلىّ فى دهشة . إن « الركشا » شىء عادى فى حياتهم ، شأنه شأن عديد من مظاهر البؤس التى تمر أمام عينى فى شوارع القاهرة . فلا تثير انفعالا خاصاً إلا بين الحين والحين . التعود . . عدو خطر فى حياة الإنسان .

ولكن « الركشا » العادية تنقرض فى شوارع بانجكوك ، على الأقل ، مثلما انقرضت العربة الحنطور فى القاهرة . تذكرت ليلة أن ركبنا عربة حنطور فى الإسكندرية من محطة الرمل حتى محطة بولكلى ، أنا وزوجتى والفتاة الفارعة ذات العينين الجادتين التى تركتها وسافرت ، والصبى الصغير ذو النظرة العميقة المتأملة فى المقلتين السوداويين . كان الهواء رقيقاً ، يعبث بالوجوه ، والأعناق بأصابعه الهادئة المريحة ، والقمر

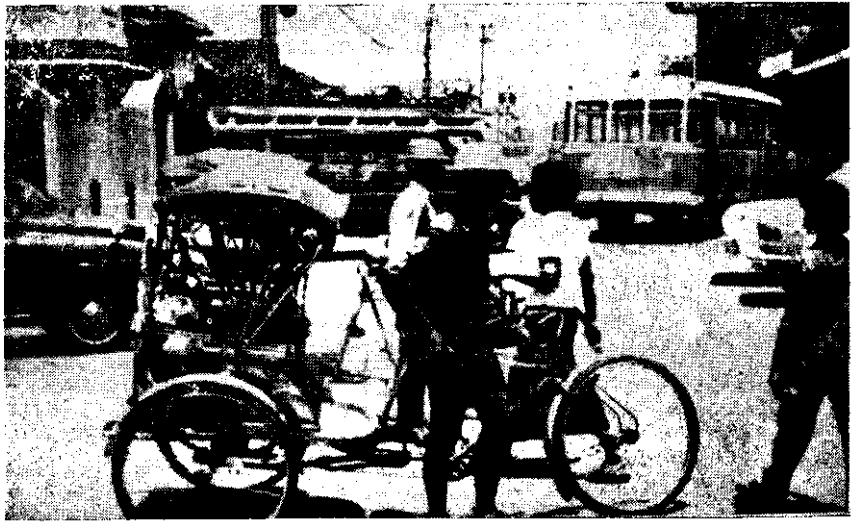

تايلاند : (بانجكوك) ، الركشا والإنسان الذى يجرها

المستدير معلق فى السماء . يسبح كالكرة الفضية . والصبى الصغير يجلس فى المقعد العالى بجوار السائق يسأل عن الحصان : كيف يأكل ؟ وكيف ينام ؟ كيف يستطيع أن يجرى هكذا بدون أن يتعب ؟ والرجل العجوز يرد عليه بلغة الساحل المميزة . تحمل فى طياتها عبء السنين الطويلة . والرضى . وتتخلل صوته نبرات من السعادة إزاء هذا الرزق غير المتوقع . وصهيل الحصان يرتفع فى الليل الصامت . وصوت الحوافر المنتظم على الأسفلت . والرجل يقول : « شوف بيصهل إزاى . . فرحان بالقمر بيستغرب » .

الإنسان « والركشا » والحياة تزحف لتطوى كثيراً من الأشياء . الآن تحولت إلى دراجة يركبها الرجل وتجر وراءها عربة صغيرة يجلس فيها اثنان أو ثلاثة من الركاب . وعضلات الفخذ والساق تبرز من فرط المجهود . تبدو وكأنها ستنفجر . والوجه شاحب من قلة الغذاء فتندهش كيف يستطيع الجسم النحيل أن يجر كل هذا الحمل الثقيل . الإنسان الذى يتحول إلى حيوان . . الإنسان الذى يظل تحت مستوى الحيوان .

ولكن الحياة تزحف . وتتقدم . أحياناً . . ولكنها تتقدم . ومكان الدراجة التى أصبحت نادرة هى أيضاً تجد الموتوسيكل مزوداً بعربة صغيرة تسع ثلاثة أشخاص . وهذه العربة الصغيرة تمرق عبر شوارع بانجكوك بالمئات . . صغيرة ، وعملية . وسريعة . وقادرة على أن تشق طريقها وسط الزحام . مظهر آخر من مظاهر الروح العملية التى يتميز بها هؤلاء القوم . ليسوا مثلنا . . فهم لا يهتمون بالمظاهر كما نهتم نحن . ولذلك تجد الشوارع مكتظة بمئات من الدراجات البخارية . يذهبون عليها إلى العمل . أو يركبونها للتنزه . وعلى المقعد الخلفى تجلس الحبيبة أو الزوجة وأحياناً الطفل أيضاً أو تنطلق مسرعة فى سباق مثير . يقودها الشبان وقد ارتدوا القبعات المعدنية الملونة يحمون بها رءوسهم فى الحوادث .

القبعات الملونة . والقمصان الملونة . والأثواب الملونة . حتى

العربات الصغيرة المثبتة فى المتوسيكلات والتى تقوم مقام التاكسيات تجدها مزركشة بتلك الرسوم البوذية المميزية . ومزدانة بمساحات من الألوان التى تخطف العين وتولد إحساساً بالفرح . فالناس هنا يحبون الألوان . والألوان تبث الحياة والغبطة فى الأشياء .

الطبيعة عرفت دائماً بالألوان : ألوان الأشجار والزهور والسماء والشلالات . وغروب الشمس فى الأفق .

اللون الرمادى عنوان الكآبة . واللون الأسود رمز الحزن والموت . فلماذا نتعلّق بهما ؟ هكذا يقولون .

معبد « وات فو »

دخلنا من الباب الرئيسى فقال صديقى أحمد الحاج :

« هذا معبد " وات فو " البوذى » .

لست من هواة العمارة . ولا أفهم عنها الكثير . ولكننى لم أفقد بعد القدرة على الاندهاش أمام كل شىء جديد . هذه الأبنية الملونة بقبابها المستديرة المذهبة . والألوان الغنية التى تتنوع وتتشابك فوق مساحات الجدران . وكتل الحجر المذببة الرفيعة التى ترتفع فى رقة متناهية كأنها تريد أن تنفذ إلى أسرار السماء . سعى الإنسان إلى أعلى يبحث عن أسرار الكون . والأشجار الخضراء ترتعش فى هدوء داخل الأفنية الواسعة . والحمام يطير ويحط فى اطمئنان تحت أقدام الوافدين من كل أرجاء البلاد ، من كل أرجاء العالم . وقطع الحديد المذهبة تعبث بها الرياح الخفيفة فتصدر رنيناً موسيقيًّا منصلا . تبحث عنه طويلا قبل أن تدرك مصدره . وخرير المياه فى النافورة يتناثر رذاذاً ملوناً فى ضوء الشمس خفيفاً على وجهك وعلى يدك . ليزيل عنها آثار الحرارة والإرهاق . . وهذا السلام . السلام العميق الذى يستولى على فؤادك وعلى قلبك فتحيا فى الزمن الطويل . . الطويل ، وفى الإحساس

تايلاند : (بانجكوك) ، تماثيل أسطورية فى معبد « وات فو »

بعراقة الإنسان والإنسانية .

الأرصفة الواسعة خارج المعبد مزدحمة بمئات الناس يخطون فى هدوء فوق مربعات الحجر الأبيض . والأسرة تدخل بأكملها : الزوج وكبار السن . والأطفال . فزيارة المعبد مهمة اجتماعية بل متعة اجتماعية ينبغى أن يشارك فيها الجميع . وطقوس ينبغى أن يمتثل لها الجميع . إنهم يدخلونه وكأنهم يدخلون مكاناً ألفوه وأنسوا به منذ زمن بعيد ، كأنهم يدخلون بيتهم يتصرفون ببساطة وبلا تكلف يحملون بين أيديهم الزهور . وفروع النبات الأخضر ، وأعواد اللوتس الأبيض المنغلق على نفسه . والشموع والبيض . وبعض الهدايا البسيطة . الأطفال يمرحون . ولكنك تحس أن خطواتهم أبطأ . وحركاتهم أهدأ كأنهم يدركون هيبة المكان ويعملون له حساباً . والناس يسيرون أفواجاً بدون ضجيج . أو أصوات عالية . يتحدثون فى همس بدون أن يبدو عليهم أنهم يهمسون . وكأن الصوت الخفيض شىء معتاد . ويصعدون الدرجات أمام تماثيل البوذا تجلس بأجسامها المكتنزة فى صفوف مستقرة . ويركعون لحظات طويلة . ورءوسهم محنية . كأنهم يشعرون بالراحة إلى جوار الآلهة . ثم يشعلون الشموع الرفيعة . ويضعون الزهور . والنباتات . والبيض . والهدايا فى أكوام منسقة عند أقدام التماثيل . والأطفال يفعلون ما يفعله الكبار . ثم ينصرفون مجموعات صغيرة ، بعضهم إلى داخل المعبد حيث يجلسون دوائر صغيرة فوق البساط المفروش على الأرض . وكأنهم فى إحدى الحدائق ، والبعض الآخر إلى الفناء الخارجى . يتنزهون تحت السماء المفتوحة . وبين الحين والآخر تسمع صوت الأجراس الصغيرة تهتز فى الريح . أو غناء عصفور يذكرك بالبلبل .

لم تتح لى الفرصة لأعرف الكثير عن ديانتهم . ولكننى أحسست أنهم يتعاملون مع آلهتهم وكأنهم جزء من الحياة العادية ، فلا توجد فواصل بينهم وبين الناس . وفيما بعد عندما سألت أحد أصدقائى عن

رأيه فى أبرز سمات الديانة البوذية قال :

« إنه دين حياة . يطلب من الإنسان أن يقيم جنته . أن يقيم سعادته على الأرض وأن تكون روحه صافية . لأن ضميره صاف » .

ولكننى رأيت شيئاً آخر . كنت سأراه كثيراً فيما بعد . هو ذلك القرب من الطبيعة وحب العميق لها . فهم يأتون إلى معابدهم حاملين الزهور ، وأعواد النبات الأخضر . واللوتس . والبيض الملون . وعندما تخترق الشوارع تجد فى كل البيوت أصص الورد . والشجيرات الخضراء . فى الشرفات . والنوافذ . وتلمح إلى جوارها أقفاصاً مزركشة صبت أسلاكها فى رسومات بديعة تقفز وراءها أو تطل منها . أجسام العصافير من مختلف الأنواع والألوان . وأحواض الزجاج تسبح فيها الأسماك الذهبية وعندما يذهبون إلى السوق يبتاعون الفواكه والمأكولات . لا بد أن تجد معهم فى الوقت نفسه سمكة من الأزهار . أو كيساً من النايلون مملوءاً بالمياه تحملق من داخلها عيون الأسماك بتلك النظرة الثابتة الغبية التى لا تتغير أبداً . أو قفصاً صغيراً يقفز فى داخله عصفور أو اثنان . هكذا هم . لا ينفصلون عن حياة النبات أو الحيوان . عن الطبيعة . حتى فى قلب المدينة . حيث تحتل الأحجار مكان الأشجار .

سوق الأحد

ونحن فى طريقنا إلى خارج المعبد كدنا نصطدم بثلاثة أفراد يرتدون ملابس رمادية طويلة . شىء ما فى وجوههم ذكرنى بالأغوات الذين كانوا يتولون حراسة الحريم . فى قصور الملوك والسلاطين . فتحسس أنهم فى منتصف الطريق بين الأنثى والرجل . رءوسهم حليقة تماماً أزيل منها كل أثر للشعر بالموسى . التفت إلى مرافقى وسألته « من هؤلاء » ؟ قال « راهبات بوذيات » انتابتنى قشعريرة خفيفة . لا أدرى لماذا شعرت إزاءهن بنوع من النفور وكأننى أمام إنسان سحقت فيه إنسانيته .

(٣)

تايلاند : نموذج من الرهبنة البوذية

فأصبح شيئاً آخر ، انتهت منه الروح . . مجرد جسد يتحرك .

خرجنا إلى الميدان الفسيح يسيل منا العرق الغزير من شدة الحرارة . أشار السائق إلى مساحة واسعة من الحشيش الأخضر تمتد عبر الميدان ، ولا تكاد ترى حدودها بالعين المجردة . شيء يشبه ملعب الكرة الضخم . فوقها نصبت أسقف صغيرة متعددة من القماش الخشن الملون أو من تيل القلوع . مثل صوان مقام بغير نظام ، وقد ثبتت هذه الخيام العارية الخالية من الجدران بأعمدة من الخشب ، ومئات الحبال ، وبين الخيام ممرات ضيقة تفسح الطريق لمرور طوابير لا تنقطع من الرجال والنساء والأطفال زحفوا فى أعداد تصل إلى عشرات الآلاف يسيرون فى هدوء ويتحدثون بهذا الهمس الغريب الذى لا تكاد تسمع كلماته ، فتتجمع أصوات هذا الهمس المنخفض فى طنين كطنين خلية النحل . والناس يتوقفون أمام كل خيمة ليتطلعوا إلى أكوام البضائع المرصوصة بعناية يشترون من الرجال والنساء والأطفال الجالسين على الأرض ، أو على مقاعد صغيرة ، السلعة التى يريدونها ، أو يكتفون بمشاهدتها ، ثم يواصلون سيرهم . وخلال هذه الجموع الزاحفة بدون توقف يمر الباعة الجائلون ، يدفعون أمامهم عربات صغيرة ، أو يحملون على أكتافهم الصوانى أو عصا طويلة تتدلى من جانبيها «الجرادل» المملوءة بأنواع مختلفة من الشراب الملون .

تسللنا بصعوبة بين الأجسام الملتصقة . تتحرك ، ثم تتوقف ، ثم تتحرك من جديد . لم أر مثل هذا الزحام فى حياتى من قبل ، زحام يفوق مباريات الكرة فى نادى الزمالك والأهلى أو المواكب الشعبية فى أيام الأعياد . نهر آدمى متماسك يتدفق بهدوء كمياه النيل . ولكن برغم الحرارة ، وبرغم الزحام وبرغم العرق المنهمر على الوجوه والأجسام ، لاتسمع صوتاً يرتفع بالصياح ، أو مناقشة حادة ، أو أناساً يتشاجرون ولا ترى أحداً يدفع الآخرين ليشق طريقاً عبر الأجسام المتماسكة

أو يستخدم مرفقيه ليفتح ثغرة بين السائرين ، أو يدوس على قدم من فرط الاستعجال . هذا الهدوء . وهذه الرقة فى معاملة الناس ، وهذا الحرص على عدم إزعاج الآخرين أو مضايقتهم ، شهدته طوال الأسبوع وأنا أتنقل بين أطراف المدينة الواسعة . فى أشد الشوارع والأماكن زحاماً لم أر طوال إقامتى هناك مشاجرة واحدة ، ولم أسمع أصواتاً ترتفع فى مناقشة حادة . أو حتى فى شىء من العصبية . ولم أحس أن أحداً يحتد على أحد . لم أهتد إلى أسباب هذه الظاهرة التى تثير التأمل وبخاصة إذا قارنتها بما يحدث فى بلادنا . هل هو طبع الشعب ؟ هل هى الحضارة ؟ أو ماذا ؟ أسئلة ليس لها جواب . فالحضارة المصرية أعرق وأكثر أصالة والشعب المصرى تعود الصبر والهدوء من آلاف السنين ومع ذلك تشعر أن الحياة فى القاهرة أصبحت كالسباق الذى لا تحكمه أية قواعد . فالأمهر هو الذى يركب الأتوبيس الأول حتى إذا داس على النساء والأطفال فى سبيل ذلك ، وهو الذى يقتحم الطريق بسيارته من اليمين أو اليسار أو حتى فوق الرصيف طالما أنه سيمر قبل غيره ، وهو الذى يستطيع أن يحطم نظام الطابور ويحصل على تذكرة سينما قبل غيره وهو الذى يعلو صوته فوق الآخرين ، ويستعد للشجار فى أية لحظة . ظواهر تنمو وتتفاقم كل يوم ، كالغابة يتسابق فيها الناس ، يحاول فيها كل منهم أن ينقض على حقوق الآخرين ، ويضطر فيها كل شخص أن يكون على حذر حتى يدافع عن حقه بالأظافر والأسنان .

هذا الشعور ما انتابنى قطّ هناك . قد يكون ذلك لأن الأجنبى لا يلاحظ أشياء كثيرة وبخاصة إذا كانت زيارته قصيرة . ولكن حياة الشارع ليست كحياة المكاتب والبيوت . كل شىء فيها يتم علناً لا تحجبه عن الرؤية أستار .

سرنا مع السائرين نشهد هذا المنظر الفريد من نوعه . كل شىء يمكن أن يتصوره الإنسان يباع هنا . مئات ومئات من مختلف أنواع

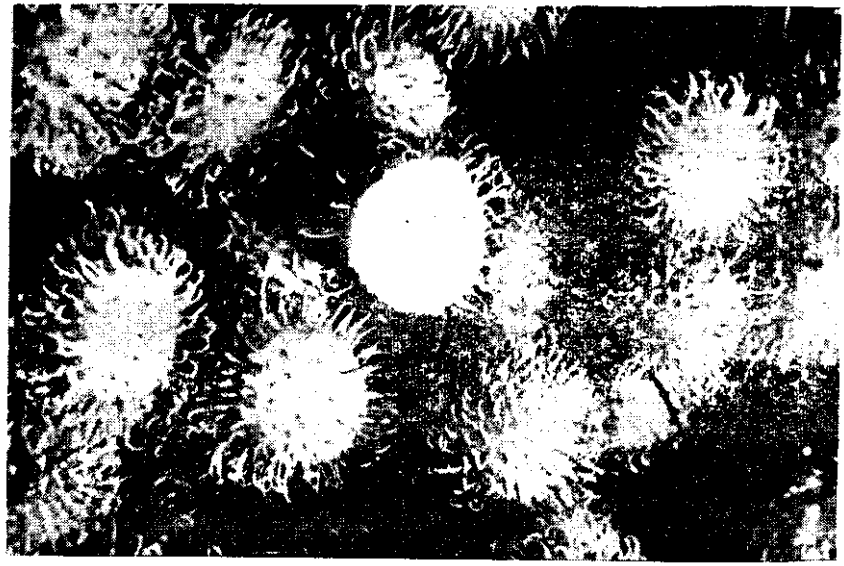

تريلاند : الراديولاريا . فاكهة دقيقة محاطة بغلاف من شعيرات حمراء

الأطعمة . كنت أحاول أن أعرف بعضها من صديقي السائق ، ولكن أغلبها ظل مجهولا بالنسبة لى . الموز الأصفر يصل حجمه إلى ثلاثة أضعاف الموز فى بلادنا تضع الأصبع الطرى الأبيض فى فمك فينساب الطعم الذيذ فوق لسانك ، وتستنشق رائحته المعطرة الخفيفة واللذاذة فى الوقت نفسه . و « البرامبوتان » بيضاوى الشكل . يحيط به غلاف خارجى . تختلط فيه درجات من الألوان الحمراء والخضراء . وتغطيه شعيرات كثيفة . فلا يخطر لك على بال بأن هذه الثمرة الغريبة يمكن أن تؤكل . ولكن إذا ما أزلت هذا الغلاف بقطع دائرى من السكين وجدت فى داخله نواة فى حجم بيض الدجاج . لونها أبيض شفاف ، ويسيل منها شراب بارد منعش عندما تقضم فيها بأسنانك . و « المانجوستين » قشرته الخارجية رقيقة جافة بنية اللون . والفاكهة طعمها مزيج من القشطة والمانجو . لونها أبيض ولكنها مقسمة إلى فصوص . واليوسفى جلده الخارجى رفيع مثل الورق . وفصوصه الداخلية لونها البرتقالى عميق . عندما تتكشف أمامك تبهرك . وتشعر أنك تريد أن تحتفظ بها وتتأملها طويلا قبل أن تضعها فى فمك . فإذا ما أكلتها تذوب وكأنها مجرد سائل متجمد ، خال من الألياف والأنسجة والبذور . والأناناس الضخم . كتلة من اللحم المتماسك تسيل منه كميات من الشراب . تختلط فيه الحلاوة بالمزازة التى لا تكاد تشعر بوجودها . يبيعون لك الثمرة بأكملها أو قطعاً يصنعون منها أشكالا هندسية مختلفة «والبابايا » تشبه الشمام . ولكنها مستطيلة . ذات حجم أصغر . ولونها من الداخل أحمر فاتح ، والبطيخ ، والبرتقال . و « الدوران » يقولون عنه إنه يحول الجسم إلى كتلة مشتعلة إذا تناولت معه مشروباً مسكراً . وعشرات من الفواكه الأخرى التى لم أعد أتذكر اسمها ولا تفاصيلها ، أكوام فوق أكوام ، فوق أكوام تتخلل المساحة الضخمة من أولها إلى آخرها ، وأنواع

تايلاند : فاكهة « البابايا » كالشمام ولكنها حمراء اللون
وتنمو فوق الشجر

الخضراوات التى يستحيل أن تحصر عددها أو ألوانها الزاهية . والأسماك الصغيرة ، والكبيرة . الرمادية ، والسوداء . والملونة ، النيئة والمملحة . والمشوية ، والمطبوخة فى الأوانى أو على البخار فى قطع كبيرة أو صغيرة . جافة أو غارقة فى البهارات والصلصة التى تحرق اللسان بمجرد اللمس ، وأنواع اللحم المذبوح ، والمقدد ، المعلقة فى السقف فى شرائح ضخمة ، أو المرصوصة على الصوانى فى قطع صغيرة ، أو فى أسياخ من الحديد والبوص المذبب فوق النار . أو فى شكل كرات مستديرة كالكفتة . والحلويات المسكرة ، وغير المسكرة ذات المائة لون والمائة طعم . والفواكه المملحة والمخللات .

ووسط كل هذا أقفاص من مختلف الأحجام . والأشكال ، وضعت فيها القطط . والكلاب . والأرانب ، والدجاج . والعصافير وأحواض من الزجاج تسبح داخلها أسماك الزينة الملونة .

قلت لصديقى السائق :

« كيف لا يتوه الناس بين كل هذه الأشياء ؟ »

لمعت أسنانه البيضاء فى الوجه الأسمر :

« لكل منطقة من البلاد طعامها . والناس يحضرون إلى سوق الأحد بسلعهم من كل المناطق . هيا نبتاع بعض الفواكه » .

ملأنا أكياساً من الورق بالموز والرامبوتان والمانجوستين والأناناس واليوسفى . هممت بدفع الحساب ولكنه خاطب الفتاة النحيلة الجالسة على الأرض فأبت بإصرار أن تأخذ منى شيئاً . مد يده إلى جيبه وأخرج منها ورقة من فئة الخمسين « باطاً » أعادت إليه الباقى ثم قال :

« إلى أين ؟ »

قلت :

« إلى النهر » .

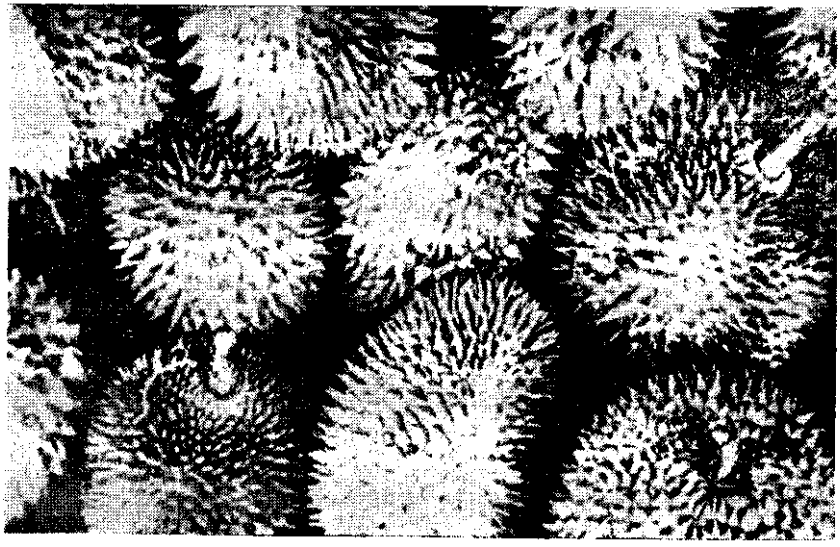

فاكهة الدوران : تجعل الجسم يشتعل إذا ما أكلتها وشربت معها شرابا كحوليا

سرنا بخطوات بطيئة عبر الميدان حيث تقف السيارة .

قال :

« أتريد أن تأكل بعض الفاكهة ؟ »

قلت :

« لا . ليس الآن » .

وضع الأكياس فى الحقيبة الخلفية ومعها آلة التصوير .

سألته :

« لماذا لا تترك الأشياء على المقعد الخلفى ؟ »

قال :

« الناس هنا فقراء وأبواب السيارة لا تغلق جيداً » .

دارت بنا السيارة حول الميدان . ألقيت نظرة أخيرة على الكتلة البشرية المتزاحمة . تبدو وكأنها لا تريد أن تتفرق « إنهم يأتون من كل المناطق » . الطبيعة هنا سخية . خصبة . تعطى الكثير . كم هو جميل ذلك التنوع فى الحياة . تذكرت « السوبر ماركت » فى شارع سيلوم . كل شىء نظيف صحى منظم . مغلف فى أكياس من النيلون . . . موحد . مسعر . أشياء مفيدة . . . فمن يستطيع أن يعترض عليها ؟ لا وقت للنقاش . أو الحديث . أو التسكع . أو الفرجة . العجلة ينبغى أن تدور . والأشياء ينبغى أن تتوحد . فالآلة لها قوانين والإنتاج الواسع يلغى التنوع . ويحدد المقاييس . والزمن . نمطان من الحياة ولكن أيهما أفضل ؟ سؤال يعترضنا فى كل خطوة . هل يمكن أن نلحق بغيرنا بدون أن نفقد مزايا التخلف ؟ هل يمكن أن يكسب الإنسان فى سباق التقدم بدون أن يفقد نفسه فى السباق ؟ هل يمكن أن ندرك قيمة الزمن بدون أن نفقد الاستمتاع به ؟ أسئلة تبحث عن إجابة لها . فأين الجواب ؟ . . فى الشرق أم فى الغرب ؟ أم فى الاثنين معاً ؟ !

الناس يدفعون الثمن !

سألت السائق :

« أمتزوج أنت ؟ »

قال : « نعم . وعندى أربعة من الأولاد »

« أين هم ؟ فى المدرسة ؟ »

« الكبير يعمل ميكانيكى سيارات . والثلاثة الآخرون . صبى وبنتان . فى المدرسة .

ابنى الكبير كان يريد أن يذهب إلى الجامعة ولكنه لم يستطع » .

« لماذا ؟ »

« الجامعة هنا لأولاد الأغنياء . فالمصاريف السنوية تصل إلى ٣٠,٠٠٠ باط (١٥٠٠ دولار) . منها ١٠,٠٠٠ باط (٥٠٠ دولار) تدفع مقدماً » .

« والمدارس ؟ »

« لأولاد الأغنياء أيضاً »

« ماذا تفعل إذن ؟ »

« أصرف عليهم نصف دخلى . عندما قامت حرب كوريا أعلنت الحكومة أن من يتطوع للحرب هناك ضد كوريا الشمالية ستتولى تعليم أولاده بالمجان ، فتطوعت . ولكن عندما عدت إلى الوطن توقفوا عن دفع هذه المعونة . لم يكن لدى سوى طفل واحد آنذاك . فاستطعت أن أتحمل مصاريفه . ولكن الحمل الآن أصبح ثقيلا » .

« كيف تتصرف إذن ؟ »

ابتسم ابتسامة غامضة وقال :

« مدينة بانجكوك مدينة كبيرة . أتعلم أن بها ٥,٠٠٠,٠٠٠ نسمة الآن ؟ مدينة يلهو فيها الأغنياء ، والأمريكان ، وسبل العيش كثيرة » .

نطق الكلمات الأخيرة بمرارة .

« ومن أين يأتى الأمريكان ؟ »

« من القواعد العسكرية . البلاد مغطاة بالقواعد العسكرية » .

« ممن تخافون ؟ »

« أتسألنى أنا؟ لاشيء . لاشيء يخيفنى . ولكن الجرائد تقول للناس إنه لا بد من أن نوقف الغزو الشيوعى فى فيتنام ، وإلا احتلنا الشيوعيون . ولذلك لا بد من القواعد . ولا بد من الطائرات ، والمدافع ، والجيوش ، ولا بد من الضرائب لدفع الثمن .

ألم تر بنفسك تكاليف الغذاء فى بانجكوك ؟ »

« ولكننى رأيت غنى فاحشاً أيضاً » .

« هذه بانجكوك . الفنادق . والمطاعم . والجواهر ، والحرائر ، وأماكن اللهو . وعلى الأطراف الجموع الزاحفة من الريف ، بالآلاف يسكنون مدن الصفيح » .

تلفت إلىّ كأنه يريد أن يرى أثر كلماته . هززت رأسى .

وساد الصمت لحظات كأن كلاً منا غارق فى التفكير . ثم سألنى :

« وأنتم ماذا تفعلون ؟ »

قلت :

« عندنا مشكلة إسرائيل . هل سمعت عنها ؟ »

« نعم . يقولون إن العرب يريدون افتراسها » .

« من يقول هذا ؟ »

« الصحف والإذاعات » .

« وما رأيك ؟ »

« لا أعرف . إننا لا نسمع وجهة نظركم » .

« إسرائيل هى التى اعتدت علينا فى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ وهى تحتل أراضينا الآن » .

« قالوا إنكم كنتم البادئين » .

« لم يحدث . إسرائيل عندنا مثل القواعد العسكرية عندكم . سهم مصوب إلينا . إلى شعوب المنطقة » .

قنوات الحياة :

توقفت السيارة فجأة . نظرت أمامى . النهر العريض يتدفق فى عنفوان متمرد ، تحس فيه أنه متوحش . طليق . لم تمتد إليه يد إنسان لتتحكم فى مساره بالأبواب . والسدود . والقنوات . مياهه الخمراء تتموج تحت لسعات الريح . وعلى الجانبين تلك الخضرة الداكنة العميقة التى تتميز بها هذه المناطق . وتلك الأشجار والأحراش الكثيفة . التى تغطى كل شبر من الأرض . وترتفع فى السماء حاملة ثمار جوز الهند . والموز . والأناناس . تتمايل مع الريح . وتصنع شريطين من الخضار ينحصر بينهما النهر الأحمر .

نزلت من السيارة . وأغلق السائق الباب وتقدم إلى جوارى . ملأت رئتى بأنفاس عميقة وقلت :

« النهر جميل » .

قال :

« هيا بنا » .

سرنا فوق الرصيف بجوار حاجز من الحديد أقيم على امتداد هذا الجزء من النهر . هنا الحركة أبطأ . والشوارع أقل زحاماً . وعربات الباعة الجائلين الملونة منتشرة فى كل مكان . تحس أنك فى مدينة صغيرة أو فى ضاحية . الناس يروحون ويجيئون وهم يحملون الأشياء التى ابتاعوها

من السوق أو من الحوانيت . توجهنا إلى مبنى خشبي عبارة عن سقف ، وعدد كبير من المقاعد . يجلس عليها الناس ينتظرون . البناء يقود إلى سلم متعرج ينحدر إلى أسفل . وفوق المياه المحيطة « بالمعدية » كانت تقف عشرات الزوارق الطويلة الرفيعة تتأرجح فوق أمواج النهر فى خفة مثل قطع من الفلين .

لوح السائق إلى أحد المراكبية . كان يقف منتصباً فى زورقه ، يتطلع إلى أعلى باحثاً عن الركاب . وجه أسمر مستدير لفحته الشمس ، وعينان تلمعان كقطع الفحم الأسود . وجسد قوى ممتلئ يحيط به سروال ضيق ، وقميص أبيض مطرز بألوان زاهية .

سمعت بضع كلمات كالطلقات المتبادلة . ومن بينها كلمة « باط » لمحت ابتسامة المراكبي البيضاء وذراعه القوية تدعوني إلى النزول.

قال السائق :

« سنذهب معه فى رحلة لمدة ساعتين . وسندفع له ٢٥ باطاً » .

أومأت برأسي موافقاً . الرصيف تحيط به حركة دائبة من الزوارق ، تنطلق مسرعة عبر النهر . وهي تحمل صفًّا طويلا من الناس ، يجلسون على المقاعد فى خط مستقيم حتى لا تنقلب ، أو أكواماً من الخضراوات والفواكه .

جلست مولياً وجهى إلى الأمام . أخذ السائق مكانه خلفي ، واستقر المراكبي الشاب عند مؤخرة الزورق . يسند نفسه على الدفة بجوار المحرك .

انطلق صوت الموتور كالرعد ، وانساب الزورق فوق المياه الحمراء . ثم انطلق بسرعة متزايدة ترتفع مقدمته المدببة فى الهواء . وعلى الجانبين جدار عال من الرذاذ الأبيض ، تسقط قطراته المنعشة على وجوهنا وأجسامنا. رأيت غابة الأشجار والأحراش الخضراء على الضفاف الأخرى تقترب منا بسرعة ، وبيوتاً من خشب « التيك » السميك البنى اللون مرفوعة

فوق الأعمدة العالية ، اكالسيقان العملاقة ، أقدامها غارقة فى المياه . أحسست بالزورق يبطئ ، ثم انحنى فجأة ليندفع عبر فجوة مفتوحة بين صفين من البيوت الخشبية . هدأ النبض المنتظم ، وانزلق هادئاً فوق مياه قناة ضيقة متعرجة ، تنفذ إلى أعماق الغابة .

البيوت الخشبية تمتد فى صفين متصلين على الجانبين . السلالم تنحدر من الباب الأمامى حتى المياه وحول كل بيت حديقة صغيرة تتدرج إلى حافة القناة ، ويتوسطها ممر ضيق من الطين يقود إلى فجوة طويلة يبيت فيها زورق فارع الطول ، كالسيارة فى جراج البيت . فالقنوات هنا هى الشوارع ، والزوارق هى وسيلة الانتقال الوحيدة لكل أسرة .

النساء يطللن من النوافذ ، أو تراهن داخل الحجر ، يعددن الطعام أو يمكنّ الملابس ، أو يستغرقن فى الحديث ، أو يغسلن القمصان الملونة بالصابون فى مياه القناة ، أو يغتسلن . والرجال القليلون تبدو أجسامهم قوية مفتولة العضلات ، يزرعون فى الحديقة ، أو يصلحون زوارقهم ، أو يستحمون تحت أعمدة البيوت ،وكلهم لا يرتدون إلا السروال القصير ، وبقية أجسامهم عارية . فالحرارة خانقة رطبة ، ويصعب تحملها ، برغم سقف الأشجار الكثيفة التى تحمى من الشمس وتخفى السماء بأوراقها وفروعها المتشابكة . والأطفال يمرحون بأقدامهم فى الطين ، ويجرون هنا وهناك ، تسمع أصوات ضحكاتهم ، وبكائهم ، وأجسامهم وهى ترتمى فى المياه . تحس وأنت تسير بالطبيعة ، وبالحرية ، وبأن الاختلاط جزء عادى من الحياة اليومية :

قلت للسائق :

« تبدو صحتهم جيدة ، وبيوتهم نظيفة » .

قال :

« نعم ، ظروفهم أحسن من غيرهم » .

« لماذا ؟ »

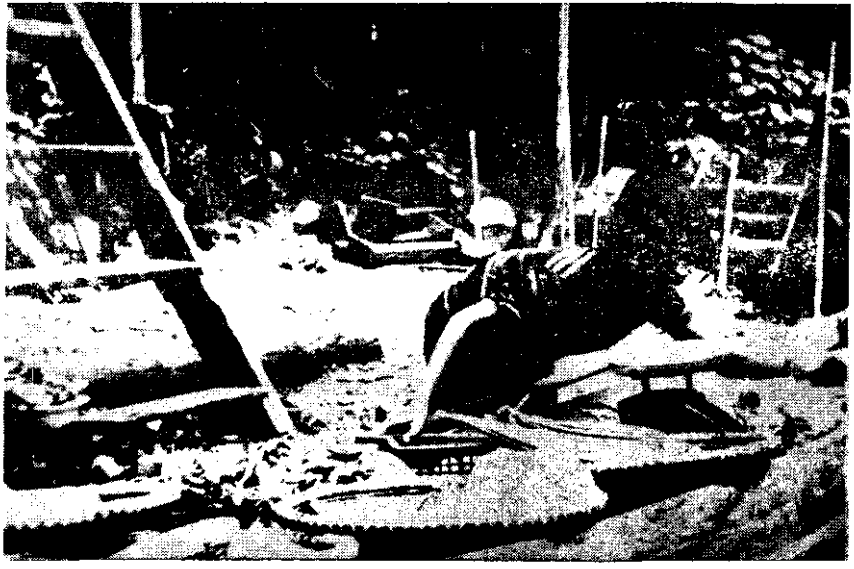

بانجكوك : بائع الخضراوات على الزورق

« هنا منطقة زراعة الفواكه والخضراوات . وهى قريبة من بانجكوك ، يحملون إليها منتجاتهم طوال الأسبوع وبالذات يوم الأحد . فتجد النهر وقد غطته مئات الزوارق . هذا هو السوق العائم » .

« ولكن هذه القنوات ، ألا تحمل الأمراض ؟ لم أر صنابير للمياه أو أسلاكاً للكهرباء » .

« لاتوجد مياه نقية ولا كهرباء. والبعوض منتشر يحمل معه الحمى » .

« الملاريا ؟ »

« نعم ، هى هذه ، تحصد بالمئات أحياناً » .

« والأطفال هل يعملون ؟ »

« أغلبهم يعملون ، وقلة تذهب إلى المدارس » .

« وهل ينجب الناس أطفالا كثيرين ؟ »

« نعم » .

« مثل أجدادهم ؟ »

هرش رأسه كأنه يفكر .

« لا . . . أقل » .

« لماذا ؟ »

« لا أعرف » .

كل شيء هنا يتم فوق سطح القناة . الحلاق يقود زورقه من بيت إلى بيت ، ومن زبون إلى زبون . وبائع الحساء يضع وعاء فوق موقد يعمل بالمازوت ويصب السائل الأصفر الساخن بمغرفة ضخمة فى الأطباق الممدودة عبر النوافذ ، أو عند أسفل السلم . والميكانيكى يتجول بزورقه عبر القناة يقف هنا أو هناك ليصلح محركاً أصابه عطب . والنساء يتزاورن . أو يذهبن إلى السوق ، يدفعن زوارقهن بالمقذاف أو الموتور . ويحركن الدفة فى حذق بالغ . حتى الأطفال يجيدون التنقل فى الزوارق الصغيرة الرشيقة .

قلت لصديقى السائق :

« والمناطق الفقيرة أين هى ؟ »

« فى الريف " الجوانى " حيث يزرعون الأرز » .

« وهل تعرفها ؟ »

« نعم » .

« كيف وأنت ابن المدينة ؟ »

« جئت أصلا من هناك . ولى أقارب ما زالوا يعيشون على زراعة الأرز » .

« هل يمكن أن نذهب إليهم ؟! »

« نعم » .

« متى ؟ »

« بعد الظهر » .

الأرز المرّ

سرنا على الطريق الضيق الترابى بين الحقول . والشمس تنحدر بالتدرج فى السماء . وعلى الطريق كانت تتحرك جماعات صغيرة متفرقة من الفلاحين . حركة بطيئة فيها إعياء . تشعر أنها بغير هدف ، كأنهم يقتلون الساعات الباقية من النهار . شىء ما فى الجو يشعرك بأن الحياة تتوقف . تتهى . ربما الصمت . أو الأجساد الشاحبة المتهالكة . أو البيوت الخشبية الخربة تغرس سيقاناً رفيعة فى المياه الآسنة . أو الناس يقفون على أطراف الحقول يحملقون فى الأفق بحثاً عن شىء مفقود ، أو الأذرع والأيدى التى لا تحرك ساكناً . وكأنها تعودت البطالة منذ زمن بعيد .

وقفت أتأمل المساحات الممتدة أمامى . مساحات الأعواد الجافة ، المستسلمة ، الساكنة . يتحول لونها بالتدرج من الأخضر الشاحب ،

تايلاند : زارعات الأرز ... المر

إلى الأصفر إلى لون يشبه حطب القطن. وكأن الحياة تذوى فيها بالتدريج. ومساحات أخرى عارية تكشف عن أرض حمراء اللون يغطيها شيء كالريم الأبيض.

« ما هـــذا يا أحمـــد ؟ »

« الأرز » .

« الأرز ؟ أين الأرز ؟ الأرز فى بلادنا كالبساط الأخضر » .

تلفت إليه . كان يقف كالتمثال ينظر إلى شيء .

« هذا هو الأرز عندما تنقطع الأمطار » .

« وما هو موسم الأمطار » ؟

« نحن فى موسم الأمطار الآن . هل رأيت مطراً ؟ »

« لا ، ولا قطرة » ،

« لم نر قطرة مطر طوال يوليو وأغسطس » .

« ألا يوجد نظام للرى سوى المطر ؟ »

« لا » .

« وعندما ينقطع المطر ماذا تفعلون ؟ »

« تجف الحقول ، ويجوع الناس . فالأرز هو المحصول الوحيد فى أغلب المناطق » .

« ولماذا لا تعمل مشاريع للرى ؟ هذا النهر العريض المتدفق الذى رأيته . مافائدته ؟ » صمت لحظة كأنه يبحث عن الإجابة .

« يقولون إنه لاتوجد أموال لذلك » .

فى السكون سمعت صوت طفل صغير ينادى . لمحت جسداً صغيراً على ساقين كعودين من الكبريت ، وأسناناً تبرز فى ابتسامة مفزعة والوجه عظام تحت الجلد .

لوحت الأم الشابة نحو الطفل وأطلت من عينيها نظرة هادئة تضيء الملامح الرقيقة . كانت تحمل فى يديها طبقاً من سائل أبيض اللون وملعقة

صغيرة . اقترب منها الطفل فأخذت تطعمه بالملعقة . ملقية ناحيتنا بنظرة متسائلة بين الحين والآخر .

قلـــت :

« ماالذى تعطيه الطفل ؟ »

« حساء الأرز — أرز مسلوق فى قليل من الماء » .

« فقـــط ؟ »

« فقـــط » .

أحسست برغبة شديدة فى أن أبتعد عن هذا المكان . أخذت أمشى بخطوات مسرعة ناحية الطريق العام حيث كانت تقف السيارة .

سمعته يلهث ورائى .

« لماذا تجرى هكذا ؟ »

« الوقت متأخر ، وأمامنا أشياء أخرى أريد أن أراها » .

« هل تزور أقاربى ؟ إنهم على بعد عشرة كيلومترات من هنا .

« لا » .

« لماذا ؟ سيرحبون بك » .

« أليســوا من زراع الأرز ؟ »

« نعـــم » .

« هيا بنا نذهب إلى مكان آخر » .

تيملاند

جلسنا على المقعد الخشبى وقد انتابنى إرهاق شديد . الجزء الأخير من جولتنا أدخل على شعوراً عميقاً بالملل . كنت أتوقع أن يحدث ما حدث . فقد أدركت منذ أول وهلة أن « تيملاند » هذه مصنوعة للسياح ، ولكن درجة الملل فاقت ما كنت أتوقعه . حديقة مترامية الأطراف لايميزها جمال الزهور . أو براعة التنسيق . أو أى شىء ، ومجموعة متنافرة من المشاهد والألعاب ، والرقصات يؤديها طلبة وطالبات المدرسة

المنشأة خصيصاً لهذا الغرض . أى للغرض السياحى الذى من أجله أنشئت حديقة « تيبلاند » .

مررنا بجمع صغير من الرجال بملابس الفلاحين . غطسوا بأقدامهم وسيقانهم فى بركة من المياه وهم يقلدون حركة شتل الأرز . ويدفعون زوجاً من الجاموس يسحب جلدهما الأسود فوق اللحم المكتنز . وهما تروحان وتجيئان فى حركة بطيئة متكررة لامعنى لها . ورأينا الفتيات يرقصن على أنغام الموسيقى البطيئة . وقد اختفت الملامح الدقيقة الجميلة خلف طبقات من الأصباغ حولت الوجوه إلى أقنعة . وتتبعنا ديكين متهافتين يتعاركان دون حماس . وكأنهما يدركان هما أيضاً أنها مجرد تمثيلية . ورأينا مباراة للكرة تستخدم فيها الأيدى والرءوس والأقدام لإدخال الكرة فى سلة رفعت عالية فوق رءوس اللاعبين . وشاهدنا مبارزات بالسيوف والرماح والعصى . شارك فيها الشبان والفتيات بعنف ومهارة . تخطف الأنفاس خوفاً من أن يصاب منهم أحد . ومع ذلك نحس أن كل حركة محسوبة . مدروسة بدقة . وتتبعنا مباراة فى الملاكمة يستخدم فيها الخصمان قبضات أيديهما وضربات أقدامهما فى أى موضع من الجسم مهما كان خطراً . وأخيراً عرضوا علينا فيلا ضخماً يحمل ألواحاً من الخشب « التيك » الثقيل ليلقى بها فى بركة من المياه تتحرك فيها ثعابين سوداء . يصل طولها إلى عدة أمتار .

برغم ضحالة العرض كانت الحديقة مزدحمة بأفواج من الزوار . أغلبهم سياح أمريكان أو إنجليز أو فرنسيون يتابعون كل ما يحدث باهتمام وحماس .

ترى لماذا لم أستمتع بهذه المناظر ؟ رفعت ثمرة جوز الهند إلى فمى وتركت السائل الشفاف المنعش يتدفق بغزارة إلى حلقى . الثمرة كبيرة بنية اللون ، تغطيها ألياف من الشعر الخشن من الخارج ، بيضاء كاللبن من الداخل . قال لى صديقى :

« ما رأيك ؟ »

قلـــت :

« ألعابكم عنيفة » .

« شعب " التاى " تكون من قبائل محاربة. وتاريخ بلادنا هو تاريخ الحروب بين الأمراء والسلاطين . والشاب عندنا يتدرب على المبارزة بالسيوف والرماح . وعلى استخدام العصى وعلى المصارعة والملاكمة منذ نعومة أظافره » .

« أجسادهم كالمطاط قوية ، وسريعة . ولكن هل تشارك الفتاة فى القرية أيضاً ؟ »

« إلى درجة أقل ، ولكنها تشارك فى الرقص وفى اللعب » .

عدنا إلى السيارة . أشعلت سيجارة وتركت نفسى تسبح فى حالة بين اليقظة والنوم . الأشياء تحلق بعيدة عند أطراف الوعى . مررنا أمام مبنى كبير منخفض لونه أحمر وتحيط به حديقة واسعة . رأيت أفواجاً من الناس يخرجون من الباب الرئيسى ، شباناً وشابات يحملون كتباً ومجلات . وأطفالا من المدارس ، وأسراً بأكملها أغلبها يبدو عليها رقة الحال .

سمعت صديقى يقول :

« هذا هو المتحف » .

« وكل هؤلاء الناس ؟ »

« زوار . كل يوم أحد يحضرون بالآلاف » .

مررنا بشارع طويل — على جانبيه صفوف من الحوانيت الصغيرة . تطلعت من النافذة إلى تجمعات من الناس تقف أمام آلاف السلع المتنوعة ، كميات لا نهاية لها من كل ما يمكن أن يخطر على بال .

قال مرافقى :

« سوق اللصوص » .

« سوق اللصوص ؟ »

« نعم اسمه هكذا . هنا تباع كل الأشياء والبضائع المسروقة » .
« والبوليس ؟ »
« ينظم العملية ، ولا يتدخل إلا لفض المشاكل » .
« بأى غرض ؟ »
« تجارة المسروقات لها شعب . ولكل شعبة رئيس من الأغنياء . والأغنياء هم نفوذ ، وهم أعوانهم . وهم يدفعون بسخاء . من عنده نقود يشترى كل شيء حتى الناس . أيدهشك هذا ؟

بداية المهمة

استيقظت فى الصباح الباكر . كانت عقارب الساعة تشير إلى السادسة . السفر يولد طاقة جديدة فى العقل والجسم . وقدرة على تحمل التنقل المستمر . والجهد المتواصل . لو كان أمام الإنسان وسيلة لتجديد الحياة ، وتغيير العمل قبل أن يصبح روتينيًّا عاديًّا لما نضبت ينابيع الطاقة .

جلست فى المطعم الصغير أشرب قدحاً من القهوة باللبن الصناعى . ففى بانجكوك يصعب الحصول على اللبن الطبيعى . الثروة الحيوانية ليست لها وجود تقريباً . ونادراً ما ترى أبقاراً وجاموساً فى الحقول . لم يكن فى المحل أحد سواى . تعودت أن أتناول وجباتى هنا . كل شيء يلمع ببريق النظافة . الموائد البيضاء . والمقاعد المعدنية . والجدران المغسولة والأطباق حتى وجوه الثلاث فتيات وعيونهن . والشاب . الذين يديرون شئون المطعم . ويروحون ويجيئون بأقدامهم العارية فوق البلاط .

خرجت إلى الشارع ، وسرت متمهلا ، فما زال أمامى ساعة من الزمن . أفواج من الناس يسرعون إلى العمل ، وعلى الأرصفة تجلس جماعات صغيرة من الشباب والشابات فى دوائر يتناولون طعام الإفطار ، ويتبادلون الأحاديث الضاحكة . شيء ما فى جلستهم على الأرض ، يشعرك بالانسياب الطبيعى للحياة بدون عقد . إلى جوار إحدى المجموعات جلست امرأة

تتبادل معهم الحديث . وتسقط قطعاً صغيرة من الموز فى إناء مسطح تغلى فيه طبقة رفيعة من الزيت . كانت تنتظر حتى تتحول شرائح الموز إلى اللون الذهبى . ثم تنقلها إلى مصفاة كبيرة ما تكاد تمتلئ حتى تفرغ من محتوياتها لتبتلعها أفواه الشباب على الأرض . والسائرون بسرعة فوق الأرصفة .

أقحمت نفسى بين الأجساد فى المصعد . وصعدنا إلى الدور الثامن . المبنى حديث تكثر فيه الأبواب الخشبية . والمعادن اللامعة . والزجاج . ومربعات القيشانى الملونة . والرخام . كانت الساعة تدق الثامنة والنصف عندما اجتزت الباب الخارجى . لمحت اللوحة النحاسية « المكتب الإقليمى لهيئة العمل الدولية » .

استقبلتنى سيدة تايلاندية صغيرة القوام . وبعد أن اطمأنت على ترتيبات الإقامة وعلى تفاصيل برنامج الرحلة فوجئت بها تقول :

« وصلتنا البرقية التى تحدد ميعاد وصولك متأخرة . ولذلك لم نتمكن من عمل الترتيبات اللازمة لزيارة برنامج تنظيم الأسرة هنا فى تايلاند . وفى سنغافورة . أما مؤتمر كوالا لامبور . وزيارة أفند وباكستان فإن أمامنا فرصة كافية لترتيب كل شىء » .

أحسست بالضيق يعلو فى صدرى . سكتت لحظة حتى أهدأ ثم سألتها :

« ياسيدتى . لماذا جئت كل هذه المسافة إذن ؟

هزت كتفيها وقالت :

« ماذا نفعل ؟ وصلتنا البرقية متأخرة واتصلت بالهيئات المسئولة عن تنظيم الأسرة هنا . وفى سنغافورة . فقالوا إن الوقت المتاح لايكفى لترتيب البرنامج المطلوب » .

فكرت قليلا . أمامى عشرة أيام ولم أكن مستعداً لتضيع هذه الفرصة .

« لى اقتراح . أرجو أن تتصلى بالمسئول عن تنظيم الأسرة هنا

وأن تبلغه أنني سأمر به في المكتب ، بعد ساعة مثلا . وأرجو أيضاً أن ترتب سيارة لتوصيلي إلى هناك . هل هذا ممكن ؟ »

« أعتقد أنه لا صعوبة في ذلك » .

« أشكرك . أستأذنك في أن أبقى هنا حتى تقومي بالاتصالات اللازمة » .

تفرست في وجهها . لم يبد عليها أي شيء ينم عن الرضى أو الضيق . لم أكن قد تعودت بعد هذه الوجوه التي يصعب معرفة ما يدور تحتها . ولكنني أدركت فيما بعد أن الناس في تايلاند لا يظهرون بسهولة ما يشعرون به . فالأعماق تبقى مدفونة بعيداً عن السطح . والتحفظ يقف كجدار من الجليد نادراً ما تنجح في إذابته .

قامت وخرجت من الحجرة . وعادت بعد قليل وقالت بالصوت الهادئ نفسه . بالنظرة المسحة الخالية من أي انفعال :

« مدير المشروع المستر " وينيت " ينتظرك الساعة العاشرة . وسائق السيارة سيحضر هنا بعد نصف ساعة ليصطحبك إلى مقر تنظيم الأسرة . المسافة من هنا إلى هناك تستغرق ثلاثة أرباع الساعة » .

« شكراً . هذه أول خطوة . والآن بالنسبة إلى زيارة سنغافورة . أقترح إرسال برقية أخرى إلى المسئولين بميعاد وصولي . وإعداد رسالة لهم أحملها معي حتى يطمئنوا إلى صفتي الرسمية . وسأقوم أنا بالاتفاق معهم على البرنامج بعد وصولي » .

« سأعرض فكرة الرسالة على المدير . أما البرقية . فليس لدينا مكتب هناك وبالتالي لا نستطيع أن نخاطبهم مباشرة . لا بد أن نرسل أولا إلى فرع صندوق تنمية المشروعات السكانية هيئة الأمم المتحدة في كوالا لامبور ليتولوا الاتصال بهم . وستكون أنت في سنغافورة قبل أن تنتهي هذه الإجراءات » .

« إذن لا داعي للبرقية . أرجو أن تعدوا الخطاب الذي سأحمله معي وسأمر باكراً لتسلمه . هل يمكنكم القيام بحجز مكان على الطائرة ، وحجرة

فى أحد الفنادق فى سنغافورة ؟ » .

« هذا ممكن . لدينا مكتب خاص بترتيبات السفر . سأتصل بالآنسة المسئولة ويمكنك أن تمر بها بعد أن تنتهى من هنا . هل أعددت ورقة بالبرنامج الكامل ومواعيد السفر ؟ »

« نعـــم ها هى ذى » . مددت يدى بالورقة .

« حسناً . سأعمل الترتيبات اللازمة مع مكتب السفر فيما يتعلق بالطائرات ، والفنادق . وسأرسل البرقيات حتى ينتظرك أحد فى كل مطار . أظن أنها أول مرة تذهب فيها إلى هذه البلاد ؟ »

أحسست بشعور من الود ينمو فى داخلى فابتسمت ناحيتها وقلت :

« نعـــم أول مرة فعلا » .

حملقت فى وجهى بنفس النظرة الجامدة فقمت من جلستى وقلت :

« سأمر باكراً لأخذ الرسالة وتذاكر السفر . أشكرك » .

ثم فتحت الباب وخرجت .

الناس والموارد

السيارات تسرع عبر الشوارع ، وجهاز التكييف ينفث هواء بارداً منعشاً فى الجو الحار . عندما هممت بالركوب فتح لى السائق الباب الخلفى . ولكننى أشرت إلى الباب الأمامى وجلست إلى جواره . بدت عليه لحظة اندهاش خفيفة سرعان ما عاد وجهه بعدها إلى الجمود المعتاد . نظرت بطرف عينى إلى ملامحه السمراء . شىء ما فيها لا يشجع على الحديث . آثرت الصمت وتأمل الشوارع والناس من النافذة .

المستر « وينيت » رجل مستدير الوجه ، أبيض اللون . جسمه المكتنز يقبع فى هدوء خلف المكتب الكبير المغطى بالأوراق والكتب والملفات . شرحت له كيف أننى تكبدت مشقة السفر مسافة ستة آلاف كيلو متر لزيارة المشروع الذى يتولى مسئوليته ، فبدت عليه بعض علامات التجاوب . رفع سماعة التليفون العاجى وهمس ببضع كلمات سريعة حادة ثم أعادها

إلى مكانها وقال :

« اليوم ستستمع إلى شرح مسجل لبرنامج تنظيم الأسرة ومعه بعض الشرائح الإيضاحية . وبعد ذلك ستقابل مديرى الإدارات وتجرى معهم مناقشة حول عملنا . وابتداء من باكر سنرتب لك بعض الزيارات للمستشفيات والوحدات المختلفة » .

سمعت قرعاً خفيفاً على الباب . دخلت فتاة متوسطة الطول ووقفت صامتة كأنها تنتظر الأوامر . قال :

« الآنسة " سون " سترافقك فى أثناء زياراتك » .

نظرت ناحيتها وأومأت برأسى محيياً .

ردت التحية بانحناءة خفيفة . قمت من جلستى . شددت على يده الممدودة . وقفت الفتاة تنتظرنى فأشرت لها بأن تتقدمنى . فتحت الباب وتبعتها عبر الهول الطويل الضيق . وعلى الدرجات . تنحدر إلى أسفل فى دوائر حلزونية . وصلنا إلى حجرة فسيحة بها آلة سينما وشاشة بيضاء ، وملصقات ملونة على الجدران وموائد هندسية للرسم وآلات تسجيل . سحبت أحد المقاعد الجلدية ووضعته وسط الحجرة . أشارت إلىّ بالجلوس ثم قالت :

« أتريد شاياً مثلجاً أم قهوة مثلجة ؟ »

تقابلت عيوننا لأول مرة وفجأة أضاءت وجهها ابتسامة دافئة مريحة جاءت ثم ذهبت بسرعة كالشمس فى يوم ممطر .

قلـــت :

« قهوة مثلجة لو سمحت » .

صوت وصورة

الشريط المسجل يحدثنى بصوته الآلى عن برنامج تنظيم الأسرة فى تايلاند . والفانوس السحرى يلقى بالرسومات البيانية والأرقام على الشاشة

البيضاء . الوسائل عصرية دقيقة موحدة المضمون والنمط . ولكننى أحسست وأنا جالس وحدى فى الظلام . أنها لا يمكن أن تكمل الإنسان ، وأن تساعده . ولكنها لا يمكن أن تكون بديلا عنه .

توقف أزيز الأجهزة فجأة . خطرت لى فكرة غريبة . ماذا لو نسوا وجودى وتركونى هكذا فى الحجرة المظلمة المغلقة تحت الأرض ؟ ولكن لم يكد هذا الخاطر يمر بذهنى حتى أضيئت الأنوار ودخلت الآنسة سون تمشى بخطوات صامتة لينة عبر الحجرة الفسيحة .

« أرجو أن تكون قد استفدت من التسجيل » .

« شكراً . أخذت فكرة عامة عما كنت أريد » .

« هل تعبت ؟ »

« لا بالعكس تفتحت رغبتى لمعرفة المزيد » .

« هيا بنا . أعددت لك لقاء مع مساعد المدير ورؤساء الإدارات المختلفة فى المشروع » .

انتقلنا مرة أخرى عبر ممر طويل ضيق ودخلنا حجرة فسيحة . كان ثلاثة من الرجال يجلسون فيها على مائدة للاجتماعات . وقفوا وسلموا على ثم دعونى إلى الجلوس معهم .

مرة أخرى وجدت أمامى القهوة المثلجة المنعشة ولكن هذه المرة كانت الأكواب أكبر حجماً مصنوعة من الزجاج السميك وذات يد كتلك المستعملة فى شوب البيرة .

هتف صوت فى داخلى « لكل مستوى أكوابه » . ذكرتنى بمصر . « أقداح » القهوة التى تختلف بين مكاتب الموظفين . وذلك القدح المميز الذى يخص « سعادة البك » دون غيره والذى يوضع أمامه أحياناً قبل أن يقدم قدح الضيوف .

عرفت من خلال المقدمات الأولى أنهم ثلاثة أطباء . وأنهم التحقوا بالعمل فى المشروع منذ بدايته . أى منذ سنتين . قال لى المدير المساعد :

« اسأل . وعلينا أن نجيب . .

« لاحظت أنكم جميعاً أطباء . ألا يوجد بينكم رجال اجتماع ، وتربية . وثقافة . وتعليم . وتخطيط قوة عاملة » .

« لا . فمشكلة تنظيم الأسرة مرتبطة فى بلادنا بالصحة ولم ندخل بعد فى مجالات التربية والتعليم . والعمل الاجتماعى والثقافى . نحن نحاول بشكل أساسى أن نتصل بالسيدات اللائى يترددن على مراكز رعاية الأمومة المختلفة سواء فى الوحدات أو المستشفيات . وأن نقنعهن باتباع وسائل منع الحمل . إما باستخدام الأقراص الخاصة أو اللولب . وقد لاحظنا أن عدداً كبيراً من السيدات يلجأن إلى الإجهاض للتخلص من حمل غير مرغوب فيه . مما يعرض صحتهن . وحياتهن لمخاطر عديدة . ولذلك ننصحهن باتباع وسائل منع الحمل » .

« لاحظت فى أثناء التسجيل المصور الذى استمعت إليه أنكم خلال السنتين . أى منذ بداية المشروع . حققتم نتائج سريعة . فإلامَ تعزون هذا النجاح ؟ » .

صمتوا مدة كأنهم يفكرون . ثم أجاب الطبيب الجالس بجوارى بجملة قاطعة عنت فيها نبرة التأكيد . فأثارت شكوكى :

« لأننا أظهرنا العلاقة الوثيقة بين صحة الأم والأطفال . وبين عدد مرات الإجهاض » .

« وبالنسبة للرجال ماذا فعلتم ؟ » .

« مازلنا فى بداية مجهوداتنا . ولم نتوسع فى عملنا بين الرجال حتى الآن » .

استمرت المناقشة نصف ساعة ولكننى أحسست بالفتور ينتابنى بعد قليل . فلم أشعر بأننى اكتشفت جديداً ولم تشف بعض الإجابات غليلى أو تقنعنى . فقمت واستأذنت . وجدت الآنسة سون فى الحجرة الخارجية . تقدمت ناحيتى وقالت :

«هل انتهيت» ؟

قلـــت :

« نعـــم » .

« السيارة تنتظرك فى الخارج لتحملك إلى الفندق . غداً فى الساعة السابعة فى الصباح الباكر سأمر بك بسيارتى لتأتى معاً إلى المكتب هنا ، ثم نستقل سيارة أخرى نذهب بها لزيارة مستشفى للولادة تبعد عن بانجكوك مسافة ١٢٠ كيلومتراً تقريباً . سنقضى اليوم هناك ونعود آخر النهار . هل توافق على هذه الترتيبات » ؟

« أوافق عليها تماماً . وداعاً وإلى اللقاء باكراً صباحاً » .

حديث مع الآنسة « سون »

دق جرس التليفون فى حجرتى . نظرت إلى ساعة اليد فى معصمى فوجدتها تشير إلى الساعة السابعة إلا ربعاً رفعت السماعة . من الجانب الآخر جاء صوت فتاة تتحدث بالإنجليزية بتلك النبرات الآسيوية المميزة .

قالت : « صباح الخير . أنا سون » .

شعرت بشىء من الارتباك لأننى لم أكن مستعداً قلت :

« صباح الخير . لقد وصلت قبل الميعاد » .

« أعلم ذلك . تركت البيت مبكرة لأتفادى زحام السيارات » .

« سأكون معك بعد خمس دقائق » .

أعدت السماعة إلى مكانها وارتديت ملابسى بسرعة . ثم هبطت فى المصعد إلى الصالة .

السيارة الصغيرة اليابانية « مازدا » تطن بصوت منتظم وهى تسرع عبر الشارع . والفتاة الصغيرة تقودها بثقة وسط الزحام المتزايد وأنا أجلس بجوارها أختلس النظرات إليها بين الحين والحين . وأحاول أن أفهم

أى نوع من الفتيات هذه التى ترتدى المينى جيب بدون أن يبدو عليها أنها تريد استعراض فتنتها أو أنها تهتم بها . شعرها الطويل الأسود منسدل على كتفيها . ووجهها مريح خال من الصبغات والمساحيق .

قلـــت :

« هذه السيارة ، ما رأيك فيهـــا ؟ »

« متينة وسريعة واستهلاكها فى الوقود قليل . إنها يابانية الصنع » .

سكتت لحظة لتتفادى موتوسيكلا برز فجأة من ناحية اليمين ثم استطردت :

« اليابان تبعث إلينا بتسعين فى المائة من السيارات التى نستوردها » .

« وفى باقى المجالات » .

« تزحف بسرعة : الساعات . والأقلام . والأقمشة الجاهزة ، وأجهزة الراديو والتليفزيون وآلات السينما والتصوير ، وعدد كبير من السلع »

« أتنافس أمريكا إذن ؟ »

« بدأت . ولكن أمريكا مازالت مسيطرة عن طريق البنوك وشركات التأمين . والشركات التجارية » .

كنا قد وصلنا إلى مبنى مشروع تنظيم الأسرة . تركنا السيارة وصعدنا إلى حجرة صغيرة تحس فيها بالترتيب والنظافة شأن المكاتب التى رأيتها فى بانجكوك . أجلستنى على مقعد وقالت :

« أنت لم تتناول إفطارك بعد . أليس كذلك ؟ »

قلـــت :

« نعـــم » .

« هنالك مطعم صغير بجوارنا . هيا بنا » .

هبطنا الدرجات من جديد ومشينا مسافة قصيرة عبر شارع ضيق تحيط به المبانى الحكومية ومساحات من الحشيش الأخضر . كل شىء هنا

نظيف لا تجد ورقة على الأرض ، أو سيجارة . ظاهرة ملفتة للنظر تدركها أينما ذهبت .

جلسنا أمام المائدة الصغيرة تحت سقف من تيل المراكب مشدود بحبال ملونة . تتدلى منه بعض الأعلام . وضع الصبي أمامنا كوبين من القهوة الساخنة باللبن وكعكة إسفنجية . شربت القهوة بنهم وأكلت الكعكة ثم أخرجت علبة السجائر . عرضت عليها أن تدخن ولكنها رفضت . اقترب منا الصبي فهممت بدفع الحساب ولكنها ألقت ناحيتي بنظرة صارمة فيها شيء قريب من الغضب فأوقفت يدي .

« أنت ضيفنا هنـا » .

أخرجت بعض النقود من كيسها الصغير وأعطتها الصبي ثم انصرفنا » .

السيارة « اللاندروفر » الخضراء تنهب طريق الأسفلت العريض الذي يمتد في شريط أسود لامع بين حقول الأرز حتى الأفق . السائق النحيف يقودها بسرعة وحذق . جلسنا أنا والفتاة في المقعد خلفه . من النافذة رأيت البيوت الخشبية . والحقول . ومساحات من الزهور البرية . وقنوات تغطيها النباتات المائية ذات الأوراق الخضراء العريضة المنتفخة . والزهور البنفسجية والبيضاء تشبه اللوتس . وأسراب البط الأبيض . وبين الحين والحين جاموسة تتميز عن تلك التي تراها في مصر بقرونها الطويلة . أخذت أسألها عن بعض تفاصيل ما تراه . وبالتدريج تبخرت بقايا الكلفة التي أحسست بوجودها أول الأمر . أدركت السبب فجأة عندما بادرتني بسؤال :

« كم سنك يادكتور ؟ » .

قلـت :

« تسع وأربعون سنة . وأنت ؟ »

« ست وعشرون » .

« محظوظة أنت . حياتك كلها ما زالت أمامك . أما أنا فالجزء الأكبر منها أصبح ورائى » .

ضحكت كأنها لم تأخذ كلامى مأخذ الجد . ورأيت عينيها تلمعان ببريق أضاء الوجه كله .

« ماهو عملك فى مشروع تنظيم الأسرة ؟ »

« أنا إخصائية إعلام تخرجت فى كلية الآداب » .

« هل لديك إخوة » ؟

« لى أخ واحد أصغر منى فقط » .

« ووالداك » ؟

« والدى موظف على المعاش . ووالدتى تعمل مدرسة » .

« وهل أنت مستريحة فى عملك راضية عنه ؟ »

« إلى حـــد كبـــير ولكن . . . . . »

هزت كتفيها كأنها تشعر بشىء لا تعرف كيف تعبر عنه .

« ولكن . . . . . ماذا ؟ »

« أشعر أحياناً بعدم الرضى » .

« عمّ » .

« عن حيـــــاتى » .

« لمـــــاذا ؟ »

« كأننى أسير فى طريق مسدود » .

« طريق مسدود ؟ لم أفهم ماتقصدينه » .

« أقصد أننى أفتقد الأمل الكبير » .

« وما هو الأمل الكبير ؟ »

« أن يصنع الإنسان شيئاً كبيراً وأن تكون أمامه فرصة لذلك » .

« أنت شابة وتعملين . . . والإنسان يحقق ما يريد عن طريق العمل » .

« ليس بالضرورة . فقد يكون العمل هو الطريق المسدود » .

« كيـــــف ؟ »

« إذا وجد من يسدون الطريق » .

« وهل تظنين أن هذه مشكلتك أنت فقط ؟ »

« لا . هى مشكلة جيل الشباب فى تايلاند » .

« لم أحس بهذا الانطباع . أغلب الشباب الذى رأيتهم بدا لى أنهم تأثروا بسطحيات الحياة الغربية : السيارة وطريقة اللبس ، والأفلام ، والرقصات المجنونة ، ولا شيء سوى هذا » .

« هذا جزء من الشباب فقط . الجزء الذى " تأمرك " ولكن أغلب الشباب يعانون مشاكل صعبة » .

« لمـــــاذا ؟ »

قطبت جبينها كأنها تفكر . ثم قالت :

« لا أعرف بالضبط . يبدو لى وكأن البلد يسيطر عليه كبار السن . هناك روتين . تحس أن البلد ليس بلدنا . إن مصالح فئة صغيرة هى التى تتحكم فيه .

« والشباب ؟ »

« يحس بعدم الارتياح . بل بالتمرد إزاء كل ذلك ، ويبحث عن مخرج . ثم التعليم هنا باهظ التكاليف ، وفرص العمل محدودة . فليست هناك سياسة للتصنيع يمكن أن تستوعب الشباب . ولذلك بدأت تظهر مشكلة بطالة بين الشباب المتعلم » .

« وأنت ماذا تفعلين ؟ »

« لاشيء . أقوم بما يطلب منى وحسب » .

« كيف إذن تتغير الأشياء ؟ »

« وماذا أستطيع ؟ »
« من يريد شيئاً لا بد أن يحارب من أجله » .
« لا أعرف ما أريد » .
« تريدين على الأقل أن تنفتح أمامكم الفرص » .
« نعم بالطبع . ولكن ماذا أفعل وأنا وحدى ؟ »
« لست وحدك . لاتستسلمى . . . ينبغى ألا نستسلم أبداً » .
« ولكننى أشعر باليأس أحياناً ، كالتائهة وسط الزحام » .
« كلنا نشعر باليأس أحياناً » .
« كيف يمكن أن تتغير الأشياء ؟ هذا هو السؤال » .
« إنها تتغير بالفعل . ألم تتغير فى بلادكم ؟ »
صمتت لحظة وبدا عليها جهد التفكير .
« نعم تتغير . ولكن بصعوبة وببطء » .
« وما هى أهم مظاهر التغيير ؟ »
ترددت من جديد .
« ربما الإحساس بأننا يجب أن نستقل ، أن نعتمد على أنفسنا أولا » .
« وكيف نما هذا الإحساس ؟ »
« مايحدث الآن فى آسيا ، أمريكا تقف مع تايوان لتستفيد ، وعندما تغيرت مصالحها تخلت عنها . وفيتنام . . . انسحابها من هناك أصبح مسألة وقت .

« ومـــــاذا ؟ »
« بروز الصين ، والهند كقوتين كبيرتين » .
« تايلاند للتايلانديين . وآسيا للآسيويين » .
« بالضبط » .
« واليابانيون . ماذا يقول الناس عنهم ؟ »
« أغلب الناس يخشونهم » .

« لمـــــاذا » ؟

« يقولون إنهم يريدون التوسع مرة أخرى » .

خشيت من ضيقها بأسئلتى فقلت :

« أرجو ألا أكون قد أثقلت عليك ؟ »

رأيت الابتسامة الخاطفة تضىء من جديد .

« على العكس . الحديث مع الغريب ممتع . الجدة التى تنبع من الاختلاف . والرغبة فى الاكتشاف . لا حرج ولا قيود . فأنت هنا اليوم وغداً فى بلد آخر » .

ضحكت وقلت :

« ربما التقينا من جديد » .

« ربمـــــا » .

سكتنا لحظة ثم سألتها :

« هل أنت بوذية ؟ »

« نعـــــم » .

« هل تذهبين إلى المعبد ؟ »

« أحياناً يوم الأحد . كبار السن يذهبون بانتظام . ولكن الشباب ليسوا مثلهم » .

« لمـــــاذا ؟ »

« إنهم يطالبوننا باليقين . ونحن نطالبهم بالعقل » .

أبطأت السيارة من سرعتها ودخلت فى شارع ضيق . رأيت عدداً من المبانى البيضاء المنخفضة . توقفنا عن السير بالقرب من إحداها . ودلفنا من باب جانبى ضيق إلى مكتب فسيح . قابلتنا لفحات الهواء البارد المكيف . أسقطت جسمى فى مقعد من الجلد اللين لأستريح .

* * *

كل شىء فى المستشفى لونه أبيض . ناصع البياض . الجدران .

والأبواب . والأرض . والأسرة والدواليب . وملابس الأطباء والممرضات . كل شيء ما عدا الأدوات والأجهزة المعدنية اللامعة .

وقفت أستمع إلى شرح المدير .

« هنا في هذا العنبر نضع السيدات اللاتي أجريت لهن عمليات التعقيم . وتجرى هذه العملية بقطع قناة المبيض . وهي تعمل لكل سيدة تطلب إجراء العملية إما لأسباب صحية أو لأنها لا تريد . هي وزوجها . مزيداً من الأطفال . والمستشفى يحتوى على مائتي سرير . ومدرسة للتمريض . وسكن للأطباء . والأطباء ليس لهم حق فتح عيادة ولكنهم يتقاضون أجوراً عالية . ونحن نهتم بالسيدات الحوامل قبل الولادة وفي أثنائها وبعدها . وعندما يحضرن في الزيارات إلى المستشفى فإننا نجمعهن في حجرة معدة لذلك ونوجه إليهن بعض الأحاديث المبسطة عن صحة الأم . وتغذية الأطفال . وفوائد تنظيم الأسرة ووسائله » .

« بماذا تفسر إقبال السيدات على الولادة داخل المستشفى ؟ »

« مستوى الخدمة الطبية . النظافة . الراحة . جودة الطعام . فهذا المستشفى نموذجي يخدم المدينة . وعدد سكانها ٨٠,٠٠٠ . ويخدم القرى المجاورة لها » .

« وهل يوجد مستشفى آخر مثله ؟ »

« واحد آخر . هذا بالإضافة إلى المستشفيات الكبيرة في بانجكوك » .

« وبماذا تفسر النجاح السريع لتنظيم الأسرة في بلادكم ؟ »

« الآراء في هذا تختلف . ولكن لي رأياً في هذا الموضوع مبنياً على مشاهداتي للحياة في الريف والمدينة . فقد انتقلت كطبيب بين مختلف أرجاء البلاد . وأعتقد أن سرعة تقبل فكرة تنظيم الأسرة نابع من وضع المرأة » .

« كيـــــف ؟ »

« المرأة فى تايلاند تشكل ٤٠ ٪ من القوة العاملة النشيطة وهى تعمل خارج المنزل فى عمل مستقل عن زوجها وعن البيت » .

« وما أثر ذلك ؟ »

« الاستقلال الاقتصادى . والشعور بقيمتها . وبذاتها . ونظرة جديدة إلى الحياة ، إلى مستقبل الأسرة ومستقبل أطفالها » .

وقفت إلى جوار السيارة عند باب الفندق . مدت الفتاة يديها الاثنتين وأحاطت بهما يدى الممدودة. أحسست بحرارة الوداع فى اليدين . والوجنتين اللتين كستهما حمرة خفيفة وبريق العينين .

ترى ماذا ستأتى به الأيام ؟ صعدت إلى حجرتى . أعددت الحقائب وأودعتها عند الاستقبال . دفعت الحساب ثم توجهت إلى الصالون باحثاً عن مقعد . كان أمامى ساعتان من الزمن قبل ميعاد السيارة التى ستحملنى إلى المطار . جلست على المقعد وأخذت أقلب فى الصحف الموضوعة أمامى . طالعتنى العناوين المكتوبة بالبنط الأسود المربع .

« إجراءات جديدة لمواجهة الخطر الشيوعى » .

« متوسط الدخل فى تايلاند مائة دولار فى السنة » .

تسمرت عيناى على عنوان كبير فى وسط الصفحة :

« مصر تطلب سحب الخبراء السوفييت » .

جرت عيناى على السطور بسرعة فى لحظة ذابت المسافات الشاسعة ، وأحسست بذلك القلق الدفين الذى ينقض على المسافر أحياناً كما تنقض الطيور الجارحة من السماء الصافية . مددت يدى إلى الصحيفة وأخذت أقرأ الخبر من جديد .

مهما بعد الوطن !

الطائرة تسبح مرة أخرى فوق سطح العالم . والموسيقى الهادئة تصل إلى أذنيك وأنت جالس هكذا فوق عرش الدنيا بعيداً عنها ، وعن مشاكلها

تتأمل حياتك بنوع من الانفصال المريح وكأنها ليست حياتك . وليست مشاكلك .

ولكن مهما كانت مسافات البحر والأرض التى تفصل بينك وبين القاهرة . ومهما كان الارتفاع الذى تصل إليه الطائرة فى الفضاء العريض ، فهناك لحظات تشعر فيها بحالة من الغربة الشديدة . برغبة فى العودة . بأن تترك كل شيء وتعود على الفور . إلى مكانك حيث ولدت . وترعرعت ، وعرفت معنى الوطن . بكل ماتحمل هذه المعرفة من سعادة وتعاسة يختلطان فى نسيج واحد متشابك فيها الخيوط البيضاء والسوداء لتصنع صورة فيها عذاب الفن وجماله .

أغلقت عينى وأسندت رأسى على ظهر المقعد . الليلة الأخيرة فى بانجكوك ربما هى التى أثارت فى كل هذا الشوق المفاجئ إلى الناس والأشياء التى تركتها وسافرت .

المندوب المقيم لهيئة اليونيسيف فى جنوب شرق آسيا هو الأستاذ يحيى درويش . رجل طويل القامة . يتحدث بهدوء . ويتحرك بهدوء . تشعر من أول لحظة أنه واثق من قدرته على التصرف . دعانى لتناول العشاء فى المنزل . فوافقت بشعور من السعادة إزاء اللقاء المنتظر مع هذه الأسرة . ذلك أن المسافر فى رحلة طويلة يعانى من الوحدة فى بعض الأحيان .

كنا قد اتفقنا على أن نلتقى فى بهو الفندق الساعة السابعة مساء . ليصطحبنى فى سيارته إلى المنزل . استغرقت المسافة ما يقرب من نصف ساعة اخترقنا فيها الشوارع العريضة اللامعة تتلألأ أضواؤها تحت سيل المطر المنهمر .

المنزل ذو الطابقين جدرانه البيضاء غارقة فى الظلام يحيطها سياج كثيف من الأشجار الاستوائية بأوراقها الخضراء المسطحة ، يسقط فوقها المطر بصوت رتيب ، يعلو ويهبط فى سكون الضاحية . خلعنا أحذيتنا

على الطريقة التايلاندية وعبرنا شرفة كبيرة عبر النوافذ المفتوحة إلى حجرة الاستقبال الواسعة الأرجاء. فالآسيويون فى هذه المنطقة من العالم لا يميلون إلى كثرة الحجر والجدران ، ويفضلون المساحات الواسعة التى يمكن أن تستغل لمختلف الأغراض ، والتى تعطى شعوراً « بالبراح » والراحة . حجرة الاستقبال التى دخلناها كانت مقسمة إلى عدة أركان . ركن لاستقبال الضيوف والجلوس . وركن للتيلفزيون والراديو ، وركن للقراءة ، وجزء مستطيل على اليمين تحتله مائدة طويلة للطعام . ويفصل بينه وبين باقى الحجرة حاجز خشبى يشبه المشربية نحتت عليه أسماك ، وعصافير ، وزهور ملونة .

بعد دقائق كان الحديث يدور فى انسياب دافئ . أحسست بفرحتهم بهذه الليلة يقضونها مع زائر غادر الوطن منذ زمن قريب يلتقطون منه أخبار الأصدقاء ، ويسألون عن أشياء تشغل بالهم . وأحسست أنا بالراحة فى جو هذه الأسرة المصرية ، كالمسافر يصل إلى بيته بعد سفر طويل . كان معنا السفير الأستاذ ، مصطفى عيسوى إلى جانب أفراد الأسرتين . رأيت الوجه الأسمر المفتوح لأحد الشبان الذين كانوا يجلسون معنا ورن فى أذنى السؤال الغاضب الذى وجهه إلينا :

« إلى متى نتحمل الوضع الذى تفرضه إسرائيل ؟ »

« وما الحـــــل ؟ »

« أن تستخلص أرضنا بالسلاح . هل يوجد حل غير هذا ؟ »

سادت لحظات وجوم فى الحجرة .

* * *

انتزعنى صوت هامس من تأملاتى :

« أتريد فنجاناً من القهوة ؟ »

تلفت إلى أعلى . وقف المضيف إلى جوارى يحمل وعاء من الزجاج يتصاعد منه البخار . شىء فى هذه الطائرة مختلف . الابتسامات المشرقة

المصطنعة . والأصوات الناعمة الآلية اختفت لتحل محلها الرقة التى لاتخلو من الجد .

« أشكرك . متى نصل إلى سنغافورة ؟ »

« بعد نصف ساعة » .

من النافذة رأيت المدينة تخرج من جوف الليل مثل بساط لا ينتهى من الأضواء الملونة تتحرك عليها السيارات كالديدان الفوسفورية . خرجت من باب المطار الضخم بجدرانه تبدو كالرخام الأبيض فى النور الساطع المنبعث من أماكن خفية . أحمل فى صدرى شعوراً من الضيق ، فعند حاجز الجمرك ووجهت بالرجل يقول :

« من أى بلد أنت ؟ »

« من مصر » .

« آها . . . من مصر » .

حملق فى وجهى بشىء من الوقاحة وقال :

« أمعك سلاح ؟ »

« لا » .

« مخدرات إذن ؟ »

« ولا مخدرات » .

« ما هذه الأنبوبة ؟ »

« أنبوبة مرهم للجروح » .

أخذ يقلبها بين يديه . رفع عنها الغطاء وضغط عليها . فحص قطعة من المرهم بين أصابعه . ثم أخذ يدفن أصابع يديه فى أركان الحقائب بعد قليل أشار بغلقها ، وانتبه إلى مسافر آخر كان ينتظر دوره .

السيارة تمرق عبر الشوارع بتلك السرعة الجنونية التى تعودتها الآن . أخذت أتطلع إلى وجه السائق . البشرة البيضاء وشكل العينين توحيان بأنه صينى الأصل . أصبحت أستطيع التمييز نوعاً ما بين الأجناس المختلفة

فى هذه المنطقة . الهواء الساخن ينساب من النافذة المفتوحة . كل شىء هنا يذكرنى ببانجكوك . غير أن الأشجار العملاقة . والحدائق والمساحات الخضراء تملأ كل ركن من أركان المدينة ألمحها فى الضوء الأبيض الساطع المنبعث من أعمدة النور العالية المحنية كالعنق الرشيق .

كانت الساعة قد قاربت الواحدة صباحاً عندما أدخلت جسمى المرهق تحت الأغطية الصوفية الناعمة . أحسست بنفسى أسبح فوق المرتبة الإسفنجية . وبالنوم بتغلغل إلى كيانى مع نغمات الموسيقى المنبعثة فى همس من مكان إلى جوار السرير .

سنغافورة

فتحت عيني على ضوء النهار يتسرب خلال زجاج النافذة والستارة البيضاء الخفيفة . لذيذ هذا الشعور بالدفء ، بالصوف الناعم الذى يحتوينى ، والمرتبة اللينة الطيعة تحت جسدى . الحجرة ليست واسعة ولا ضيقة ، جدرانها مطلية بلون أزرق خفيف فضى . والأثاث يقف بأرجله الرشيقة فوق البساط السميك . هنا تشعر أنك معزول تماماً عن العالم الخارجى ، تسترق السمع فلا يصل إليك سوى صوت السكون التام . ضغطت على الزر الأبيض بجوار السرير فانسابت أنغام الموسيقى تنبض كاليوم الوليد بإيقاعها المرح .

قررت أن أبقى مستلقياً أستمتع بلحظات من الرفاهية الطارئة ، ولكن بعد قليل أحسست بالقلق يزحف علىّ بالتدريج . لماذا هذا الشعور بالإثم ينتابنى كلما عشت حياة الرفاهية ، ولو لبضعة أيام . جاهدت طويلا لأتخلص منه بدون جدوى . قفزت من السرير واتجهت إلى الحمام طالعتنى مساحات القيشانى الناصع البياض ، والفسيفساء الزوقاء ، وصنابير الكروم اللامعة ، وشممت رائحة الصابون المعطر ، والفوط النظيفة . خلعت ملابسى وتركت نفسى تحت سيل المياه الدافئة تغسل عرق السفر ، وترابه ، والتساؤلات التى تحملها النفس معها فى كل مكان .

كانت الساعة تدق الثامنة عندما دخلت المطعم البرتقالى اللون ، بموائده الدائرية ، تحتل مساحة واسعة فى بدروم فندق « الأكواتوريال ». جاءتنى همهمة الأحاديث المتصلة وأنا أحتسى فنجان القهوة الساخنة ، وأحس بتيار اليقظة والتنبه يسرى إلى عقلى مع كل رشفة ، مثل شحنات صغيرة منعشة من الكهرباء .

سنغافورة : الاثنين ذو العينين الحمراوين يحرس الميناء

الأسرة التى تجلس إلى جوارى من مانيلا . كما أدركت من الحديث . الأب يرتدى قميصاً مزخرفاً « باتيك » وينبعث دخان سيجارته السميك . وهو يميل إلى الوراء كأنه راض عن الدنيا وعن نفسه . الأم والصبى والفتاة يثرثرون بالإنجليزية . ينطقونها بتلك النغمات الآسيوية المضطوطة التى تنم عن محاولة لتقليد الأمريكان . تبدو عليهم علامات الثراء من ملابسهم الأنيقة . ومن تلك الطريقة فى التصرف التى تشعرك بأنهم تعودوا الرفاهية . وأن لا شىء يقلق بالهم .

كنت أضيق دائماً بالذين يصرون على التحدث بلغة أجنبية . وهى ظاهرة لا تجدها إلا بين فئات محدودة فى مصر . ولكن هنا ، فى هذه المنطقة من العالم . الجميع يتحدثون بالإنجليزية . كأنه شىء عادى تشعر معه ببصمات الغرب ثقيلة على الحياة الثقافية والفكرية ، وبنوع من الطمس للشخصية الوطنية يترك أثراً عميقاً على فئات واسعة من الناس . فاللغة الإنجليزية هى اللغة الرسمية تستعمل فى الصحافة والنشر ، والإذاعة وجميع المراسلات الحكومية أو التجارية . سواء فى تايلاند . أو سنغافورة أو ماليزيا .

كان الفندق مزدحماً بعدد كبير من الأمريكان والإنجليز ، تقابلهم فى كل خطوة : فى المصعد فى أثناء الصعود والهبوط ، وفى البهو العريض ينثرون أجسادهم الطويلة فى المقاعد الجلدية السوداء ويلقون بنظراتهم المتعالية على الداخلين والخارجين ، وعند المدخل ، يستعدون لرحلة اليوم الجديد ، أو يستقلون السيارات الفارهة اللامعة تنطلق عبر الشوارع ، أو فى حمام السباحة يعرضون بشرتهم البيضاء للشمس عسى أن يصيبها شىء من السمرة .

وعندما تتنقل فى كل من بانجكوك وكوالا لامبور وسنغافورة يمكنك أن تلمس عن قرب لماذا يتشبث الأمريكيون والإنجليز بهذه البلاد ، ويبذلون كل الجهد ممكن لتأجيل يوم الرحيل . فهنا تدرك المعنى الحقيقى للثراء .

الشوارع العريضة ، والحدائق التى تمتد بزهورها على مساحات شاسعة ، ومنازل كالقصور تطل من داخلها الأضواء الخافتة ، وأشباح الرياش والتحف ، والغابات الكثيفة ، والفواكه ، والزهور الثمينة ، والمعادن ، والمطاط يسيل كاللعاب الأبيض فوق الجذوع السمراء ، والطبيعة الساخنة السخية ، والليالى تلمع فيها أبهاء الفنادق تبدو كقصة ألف ليلة وليلة ، والجواهر تلمع عند الأصابع ، وفوق الشعر الأسمر الطويل ، وهمسات النساء ، والضحكات الناعمة المرتاحة ، والسيارات تنساب فوق الأرض كالزوارق ، أو تقف أمام بيوت الليل غارقة فى الوهج الأحمر حتى الفجر .

هنا يحيا أسياد العالم ، ملوك المال ، يمارسون المتعة إلى مستوى يفوق الخيال .

وسنغافورة ميناء ضخم ، ملتقى خطوط التجارة فى الشرق ، منطقة حرة يسكنها خمسة ملايين من البشر .

وفى مدينة سنغافورة إلى جانب الأسياد الأجانب الذين يملأون الفنادق وينتقلون بين أرجائها فى سياراتهم الفاخرة ، ويحملون حقائب « السمسونايت » فى رحلاتهم بين عواصم العالم ، توجد جاليات أخرى لها دور فى التيار التجارى الضخم الذى يمر عبرها .

لم أكن قد رأيت الصينيين من قبل ، وعندما خرجت من الفندق فى ذلك الصباح الغائم الحار ، لم أكن أتصور أننى سأكتشف أشياء جديدة علىّ تماماً ، برغم كل ما قرأته وسمعته عن الصين الشعبية ، وعن شعبها .

أمام محطة الأتوبيس ، وقف الناس ينتظرون . كان الزحام شديداً . فالوقت وقت الذهاب إلى العمل ، والمدارس مفتوحة فى فصل الصيف ، ولكن عندما توقف الأتوبيس الضخم فجأة فى المكان الذى كنا نقف فيه تماماً ، تحرك الطابور الطويل فى سرعة هادئة ليصعد السلم . لم يحاول

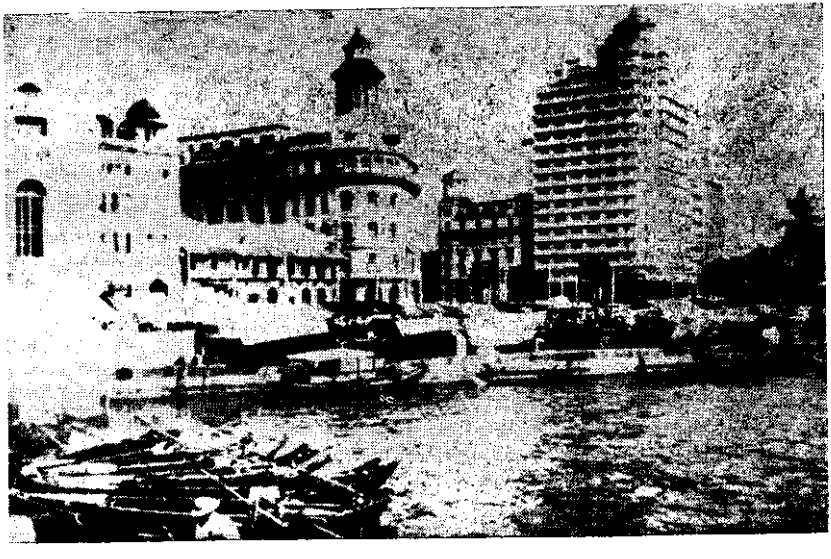

سنغافورة : الحى التجارى حول الميناء ، والعمارات الشاهقة

أحد أن يندفع قبل غيره ، ولم أشعر بأحد يدفعنى من الخلف ، أو يسحق أصابع قدمى تحت حذائه ، أو يضرب مرفقه المدبب فى ضلوعى . وقفت خلف السائق أتطلع إلى الشعاع العريض الممتد أمامى أتابع السباق المنظم بين السيارات المسرعة . طلبت من الكمسارى أن أنزل فى « شنتون واى » كانت المسافة طويلة . ومرت أكثر من نصف ساعة بدون أن يلتفت إلى فظننت أنه نسينى ، وأننى سأضل الطريق . ولكن بعد قليل اقترب منى وقال :

« شنتون واى . . . المحطة القادمة » . ثم ضغط على زر أحمر ليفتح الباب ، ووجدت نفسى فى الشارع أدور بعينى على المبانى البيضاء ومساحات الحشيش والأشجار ، ترتفع وسطها نافورات المياه ، وتماثيل من الرخام الأبيض . عبرت قنطرة طويلة ضيقة للمشاة لأجد نفسى أمام الميناء . المياه الممتدة حتى الأفق رمادية زرقاء . والبواخر راسية فى هدوء بمداخنها الصامتة تنتقل بينها القوارب الصغيرة فى حركة دائبة مثل خلية النحل .

الذين يسمونهم « الخطر الأصفر » !

المنطقة المحيطة بالميناء تعتبر من أكبر الأحياء التجارية ترتفع المبانى الشاهقة حولها فى نصف دائرة تفصل بينها عشرات الممرات . وعبر هذه الممرات يمر الناس فى سيل لا ينقطع ، جاءوا من كل بلاد العالم إلى هذه البقعة ، يبحثون عن ذلك الشرق الغامض الذى يثير الخيال .

دلفت إلى أحد الممرات . طريق ضيق للغاية على جانبيه حوانيت صغيرة . أو مجرد رفوف خشبية تكومت فوقها تلال من البضاعة . آلاف الأصناف وآلاف الألوان ، ومئات من الناس ، لمحت مقهى صغيراً فى منتصف الممر . حجرة بها عدد من الموائد ، والمقاعد الخشبية ، فدخلت وجلست .

سنغافورة : الحروف الصينية والزحام وأكشاك الباعة

لم أر فى حياتى مقهى فى هذا الحجم يدخل إليه ، ويخرج منه ، هذا العدد الهائل من الناس : عمال ، وموظفون ، وطلبة ، ورجال أعمال ، شبان وشيوخ ، رجال ونساء ، أشخاص يبدو عليهم الثراء ، وآخرون تظهر عليهم علامات الفاقة ، أندونيسيون يرتدون قمصانهم الملونة وطاقية من الفرو الأسود ، هنديات يرفلن فى « السارى » الطويل ، وسنغافوريات يكشف الميكروجيب عن أجسادهن الرشيقة ، بحارة أمريكيون ، سياح من روسيا ، شابات وشبان يحملون أمتعتهم على ظهورهم ، ويرتدون « الشورت » والصنادل ، تدل عيونهم الزرقاء ، وشعورهم الشقراء على أنهم قادمون من بلاد الشمال ، عمال جاءوا بملابس العمل ، وتلامذة يتأبطون كتبهم ، أو يحملون حقائب من الجلد .

كان بالمقهى أربعة عمال ، اثنان منهم من الرجال يصعب تحديد سنهم ، كما هو شأن الآسيويين عموماً ، واثنان من الصبية . والموائد كلها مشغولة ، يدخل الزبون فيجلس على أى مقعد خال ، وبعد ثوان تجده وقد انسجم مع الباقين . لا أحد يبقى مده طويلة لأن الضغط على المحل شديد . تحس أنه محطة يدخل إليه الناس ليستريحوا من عناء العمل أو الطريق ، مدة عشر دقائق ، ويتناولوا مشروباً مثلجاً يقاومون به حرارة الجو ، ثم ينصرفون .

المكان يلمع من فرط النظافة ، برغم كثرة المترددين . فأحد الصبية لا يكف عن تنظيف الأرض ، والمقاعد ، والموائد ، والجدران ، كلما سنحت له فرصة لذلك ، يتحرك بسرعة وحذر برغم الزحام لا تكاد تحس به ، فهو يعمل فى صمت ، وبدون أن يقلق راحة أحد من رواد المحل . أما باقى العاملين فى المحل فأحدهم يتولى « الكيس » ويقوم فى الوقت نفسه بالمساعدة فى إحضار الطلبات من الثلاجة الضخمة التى تحتل الجزء الداخلى من القهوة ، أو من ملحق صغير لا يزيد حجمه على ثلاثة أمتار مربعة وضع فيه عدد من الفناطيس الصغيرة الكهربائية

لإعداد القهوة . والشاى ، مزودة بصنابير عند جزئها الأسفل فما على الرجل إلا أن يضع تحتها الفنجان ، ويفتح الصنبور عندما يريد أحد الزبائن فنجاناً من القهوة أو الشاى الساخن ، ثم يضيف عليه اللبن للذين يطلبونه .

أما العاملان الآخران ، الرجل ، والصبى ، فكانا يقومان على خدمة الزبائن ، وبتوصيل الطلبات الخارجية إلى الحوانيت ، والمبانى المجاورة . كانا يروحان ويجيئان فى حركة دائبة لا تنقطع لحظة ، لا تبدو عليهما أدنى علامات الإرهاق أو الضيق ، أو حتى مجرد بادرة صغيرة تدل على شىء من العصبية ، لا يرتفع صوتهما إلا للمناداة بالطلبات ، أو لتحية زبون ، أو تبادل بضع كلمات ضاحكة مع أحد الأشخاص . الصوت عال حتى يسمع فوق ضجيج المرر والجالسين فى القهوة ، ولكن لا الضجيج ، ولا أصوات النداء مزعجة . كل شىء فيه نوع من الحفاظ على راحة الآخرين .

على كل مائدة وضع طبق يحتوى على ثلاثة أو أربعة أصناف من الفطائر ، والكعك الإسفنجى . والزبون يتناول ما يريده ثم يدفع الثمن مع حساب المشروب الذى يطلبه . المكان متواضع للغاية ومع ذلك أطباق الصينى المنقوش عليها رسومات جميلة : أسماك ملونة ، وأطفال يلعبون ، ودوائر ، وزهور ، والكعك لذيذ الطعم ، طازج ، يضارع أحسن ما يمكن أن تأكله فى أفخر المحلات ، وكلما فرغ الطبق ، بدون أن تشعر ، تمتد يد من مكان ما لتضع مكانه طبقاً آخر . المشروبات المثلجة موضوعة فى زجاجات مغلقة ، نظيفة تحفظ فى الثلاجة : عصير الفواكه ، والليمون ، واللبن ، واللبن بالشيكولاته وجوز الهند باللبن ، عشرات الأصناف تلمحها مرصوصة بانتظام فى الثلاجة الضخمة ، صفاً فوق صف ، تجذبك بألوانها المغرية ونظافتها .

وعندما تطلب مشروباً تفتح الزجاجة وتوضع أمامك فى لمح البصر ومعها « شناطة » من البلاستيك الأبيض . وعلى كل مائدة « طفاية » سجاير صغيرة بها كبريت وشطاطة . والمكان خال من الذباب تماماً . فبين الحين والحين يقوم أحد العاملين برش سائل مبيد من رشاشة صغيرة تطلق رذاذاً معطراً فى الجو .

والمحل يقدم إلى جانب المشروبات أنواعاً أخرى من المثلجات . الأيسكريم الدسم تكتشف معه أن كل ما أكلته من قبل لم يكن «أيسكريما» و « الشندو » يوضع فى أطباق خاصة . صغيرة الحجم تشبه الفنجان المسطح معه ملعقة ذات يد قصيرة . وهو عبارة عن لبن . وجوز هند مع الثلج المبشور . وفواكه جافة فى شكل مربعات جيلاتينية ملونة ، وأعشاب بحرية مسكرة فى شكل خيوط حمراء وخضراء قوامها يشبه الجيلاتين أيضاً .

وعندما يأتى وقت الحساب . برغم الزحام الشديد ، وبرغم هذا العدد الهائل من الناس الذين يدخلون المكان ويغادرونه . وبرغم جلوس الناس مختلطين حول الموائد ، تكتشف أن الرجل النحيف الهادئ الذى يقف أمامك لا يحاول أن يتذكر الحساب ، إنه يترك المسألة لك تماماً يكتفى بسؤالك عن المشروب الذى طلبته ، وعن عدد قطع الكعك أو الفطائر التى أخذتها من الطبق الموضوع فوق المائدة . ولكن فى الوقت نفسه يجيئك إحساس خفى بأنه يعرف تماماً حساب كل واحد من الذين يجلسون فى المحل . وأنه قادر على تصحيح أى خطأ بذلك الأدب الجم الذى يقابلك به الناس فى كل مكان .

هكذا هم الصينيون . أو على الأقل الصينيون الذين يعيشون كأقليات فى مختلف البلدان التى زرتها فى أثناء رحلتى الآسيوية . قدرة على العمل المستمر تبدو أنها بغير حدود ، دقة ، وهدوء ، وصبر مدهش . أمانة

سنغافورة : رقصة التنين فى الشوارع تؤدّى فى مناسبات خاصة

لا يتطرق إليها الشك ، فإذا قال لك الصينى إن ثمن السلعة كذا يمكنك أن تطمئن إلى صدق قوله . أدب ، ورقة فى التعامل مع الآخرين ، انسجام طبيعى مع الأسلوب المنظم فى الحياة . وفى العمل . وميل إلى أن يضفى على الأشياء المحيطة به قدراً كبيراً من النظافة والجمال .

لقد أطلق الاستعمار على شعب الصين لفظ « الخطر الأصفر » لعشرات السنين . وكان الغرض هو تخويف بقية العالم من تقدم الصين ، وتعبئة الجهود ضدها . وكان الغرض أيضاً التفرقة بين الشعوب على أساس اللون وإثارة نزعات التفرقة العنصرية . ولكنى عندما رأيت صفات الشعب الصينى وقدراته ، أدركت سبب الذعر الذى أصاب المستعمرين الأجانب فى مواجهة الجهود التى يبذلها هذا الشعب للقضاء على ميراث التخلف . فهذه الصفات والقدرات تنبئ بمعجزات تستطيع الجماهير الصينية أن تحققها وتفسر إلى حد كبير ما يصل إلينا عن نجاحهم فى مجالات مختلفة اقتصادية . وصحية ، وتعليمية . فإلى جانب دور الحزب الشيوعى ، والتنظيمات السياسية ، والمثل الذى تضربه الزعامات السياسية ، توجد هذه الصفات الأصيلة للشعب الصينى .

عندما يخرج الإنسان من حدود بلاده إلى العالم الرحب الواسع تتفتح أمامه آفاق وحقائق جديدة وتتبخر كثير من الأفكار المسبقة ، والآراء الجامدة ، ويدرك أن قضية التطور الإنسانى معقدة . ذلك أن كل شعب نتاج تاريخ طويل ، ومعارك طويلة ، وتطورات معقدة دخلت فى تكوينه وبدون معرفة دقيقة لكل ذلك لا يمكن قيادة الشعب فى طريق التقدم .

وأعترف أن الإعجاب الذى أحسست به إزاء الصينيين ، صاحبه تساؤل حول أشياء تذكرتها فى بلادى . فالحضارة المصرية شأنها شأن الحضارة الصينية عريقة ، أصيلة ، تضرب بجذور عميقة فى التاريخ . ومع ذلك بدا لى أن التطور فى بلادنا مشكلة أكثر تعقداً ، وأن الطريق أمامها ليس ممهداً بالقدر نفسه . الصين مثلنا كانت هدفاً للغزو الاستعمارى ، ولكن حجم

البلاد ، ومساحاتها ، وضخامة عدد سكانها جعلتها مجتمعاً مغلقاً إلى حد كبير ، ومجتمعاً يصعب السيطرة عليه . وهذا الانغلاق ربما أفاد فى بعض النواحى . فقد سمح بالحفاظ على التراث . وعلى صفات أصيلة موروثة من الماضى الطويل . سمح بالحفاظ على نوع من الانسجام الاجتماعى ، على الروابط ، على علاقات يمكن أن تكون أساساً لتطوير جديد . وربما لمس ماوتسى تونج جزءاً من الحقيقة عندما قال : « إن الشعب الصينى مثل الصفحة البيضاء يمكن أن ترسم عليه أجمل الألوان » . الشعب الصينى ، شأنه شأن كل الشعوب ، لم يكن صفحة بيضاء ، ولكنه كان صفحة احتفظت بكثير من نقائها ، صفحة أمكن وقايتها من بعض عوامل الإفساد ، صفحة يمكن إعادة صياغتها بقدر أكبر من السهولة .

أما مصر فأوضاعها اختلفت فى كثير من النواحى . السكان محصورون فى الشريط الضيق لوادى النيل . والزراعة تعتمد على الرى . والرى يعتمد على إيجاد سياسة مركزية قوية تنظمه . ولذلك اتبع المصريون منذ آلاف السنين نظام الحكومة المركزية للسيطرة بسهولة على المساحات المحدودة حيث يتركز السكان .

وموقع مصر يقع فى سرة العالم ، تتدفق إليها التيارات من الشرق والغرب ، وتمر عبرها تجارة العالم وأفكاره . استهدفت لغزوات لم تنقطع من الهكسوس ، والفرس ، واليونانيين والرومان . والتتر والعرب والصليبيين ، والأتراك ، والمماليك ، والفرنسيين ، والإنجليز .

مصر مجتمع مفتوح ، ليس بالمعنى الذى يقصده بعض المفكرين من الغرب ، ولكن بالمعنى المضاد للمجتمع المغلق . وهذا التفتح الذى يقصد المفكر الغربى ، يفتت فى البنيان الاجتماعى ، ويضعف الروابط ، وينشر التفكك ، والتنوع ، ويقوى الاتجاهات الفردية ، وعدم الرغبة

فى الخضوع للنظام الموحد والسلوك الموحد .

وعوامل التفكك والإفساد هذه لعبت دورها منذ آلاف السنين . ولولا قدرة المصريين المدهشة على استيعاب الغزو الخارجى بمختلف أشكاله . وصوره . وعلى تمثله . لما احتفظ المجتمع المصرى بشخصيته القومية . المميزة . العميقة الجذور .

هذا التفتح يجعل المصريين يميلون أكثر من الصينيين إلى الفردية وإلى إخضاع المسائل للمقاييس العقلانية . ففى مصر كل شىء يناقش . وكل شىء يشك فيه . وكل شىء يخضع لتقدير الفرد . وكل هذه الصفات تدل على التقدم . ولكنها فى الوقت نفسه عندما تتعدى حدودها تجعل النظام . والتحرك الجماعى . أمراً أكثر صعوبة .

التعقيم بعد الطفل الثالث !

دفعت الحساب وخرجت إلى الممر ثم إلى الشارع وركبت الأتوبيس . اكتشفت أن الكمسارى يعرف مقر تنظيم الأسرة . سألته إن كان يمارس أى نوع من أنواع التحكم فى الإنجاب فأجاب بأن زوجته أجرت عملية تعقيم بعد طفلها الثالث بالاتفاق معه . ودعنى بابتسامة صينية فلوحت له بيدى من على رصيف الشارع .

كنت على موعد مع رئيس جهاز تنظيم الأسرة . ولكن عندما دخلت الحجرة وجدت أربعة أشخاص فى انتظارى . رئيس الجهاز نفسه . رجل صينى الملامح تبدو عليه الجدية إلى درجة الصرامة . وتوحى إليك نظراته المباشرة الثابتة بأنه يفحص الشخص الجالس أمامه . ويحاول أن يضعه فى ميزان دقيق . والمسئول عن الإعلام اسمه الأول من أصل إنجليزى واسمه الثانى من أصل ألمانى تشعر فى طريقة كلامه وفى تصرفاته أن نموذجه فى الحياة هو رجل الأعمال العصرى . وسيدتان إحداهما

سنغافورة : شرطي المرور يحرس أطفال المدارس

تتولى الإشراف على الخدمات الطبية المتعلقة بتنظيم الأسرة والأخرى مديرة إدارة التدريب . ولم تكن هذه أول مرة أذهب فيها لمقابلة أحد المسئولين ، فأجد فى انتظارى ثلاثة أو أربعة أشخاص . فقد حدث هذا عديداً من المرات ليس فى هذه الرحلة فحسب ، ولكن أيضاً عندما زرت الولايات المتحدة الأمريكية فى صيف ١٩٧١ . إنه أحد مظاهر الأسلوب الجماعى ومحاولة لكى يستفيد المسئولون الأساسيون من الاتصال بالزائر الأجنبى ، ومن المناقشة معه ، واعتراف بأن أى مشروع أو عمل هو حصيلة مجهود عدة قطاعات لا يستطيع شخص بمفرده أن يلم بجميع جوانبه . وهى أيضاً محاولة لتربية قيادات جديدة ، وفتح مجالات الخبرة والمعرفة أمامها .

ومثل هذه المقابلات الجماعية تضفى حيوية ودفئاً على الجلسة ، وتجعلك تشعر أنك خرجت منها بمقدار أوفر من المعلومات تختلف نواحى الموضوع الذى أتيت لدراسته .

تناولنا القهوة باللبن وأشعلت سيجارتى . لم يكن أحد منهم يدخن . قالوا لى :

« الطبيب ينبغى أن يضرب به المثل » . أحسست بشىء من الخجل إزاء ضعفى سرعان ما ذاب فى دفء الابتسامة . جلسنا حول مائدة الاجتماعات وبدأت المناقشة .

« لماذا تهتمون بتنظيم الأسرة وأنتم عبارة عن مدينة عدد سكانها خمسة ملايين ومن أكبر المراكز التجارية فى العالم ؟ »

« لأن لدينا قطاعات فقيرة تواجه الصعوبات فى رعاية عدد كبير من الأطفال وتربيتهم ، كما أن الفئات المتوسطة فى المجتمع تريد أن تحقق مستوى أرقى لحياتها وحياة أطفالها » .

« ولكن بلدكم غنى ومستوى المعيشة فيه مرتفع ، وهناك فئات واسعة

تحصل على دخول خيالية بالنسبة إلينا ، كما أن هناك أصحاب ثروات طائلة ؟ »

« هذا صحيح ، ولكن أغلب المكاسب تذهب للشركات الأجنبية ، وتوجد فئات فقيرة ، كما قلت مثل الحرفيين . والتجار الصغار ، والعمال » .

« إذن المشكلة أساساً هو كيف يمكن الاحتفاظ لأنفسكم بالأموال التى تدخل إليكم وأن توزع بطريقة أفضل » .

ساد الصمت قليلا وأحست بنوع من الحرج فى وجوههم ، ثم قالت إحدى الطبيبتين :

« نحن أطباء ولسنا سياسيين » .

« هذا صحيح ، ولكننا جميعاً مواطنون فى بلادنا » .

قال مسئول الجهاز :

« المسألة ليست سهلة . فنحن مركز للتجارة العالمية ، والاحتكارات تسيطر على هذه التجارة . التغيير يحتاج إلى وقت ، وإلى تطور كبير فى أوضاع البلاد الآسيوية . وفى الفترة الأخيرة حدث كساد فى الحركة التجارية وأصبحنا نعانى من الأوضاع الاقتصادية ومن البطالة » .

« وماذا تفعلون ؟ »

« لا بد من التصنيع . وقد بدأنا فعلا فى إقامة صناعة وطنية . ونحن ندرك الآن أن تنظيم الأسرة ليس بديلا للتنمية . ولكنه يمكن أن يكون عنصراً مساعداً ومهماً فى البلاد التى تعانى من الانفجار السكانى . . . بلادكم مثلا » .

« هذا صحيح . ولكن أظن أن المشكلة عندكم لم تصل إلى مستوى الانفجار السكانى » .

« إنها لم تصل ، ولكننا نعتبر أنها تتعلق برفاهية الأسرة وصحتها . ونحن

نهتم كثيراً بصحة الأسرة ، والأم . والأطفال . فالأطفال هم ذخيرة المستقبل » .

« ومشروع تنظيم الأسرة كيف يعمل عندكم ؟ »

« خدمات رعاية الأمومة والطفولة متوافرة لكل السكان . وهي على مستوى عال . وجميع النساء يستفيدون من هذه الرعاية قبل و بعد الولادة . والأغلبية الساحقة يضعن أطفالهن في المستشفيات . ونحن نستفيد من هذه الخدمات لنبث فكرة تنظيم الأسرة في أثناء ترددهن على العيادات . أو عندما يقمن في المستشفيات عند الوضع . والوسائل المستخدمة متنوعة . الحبوب . واللولب . والتعقيم . عن طريق عملية جراحية تجرى على قناة المبيض » .

« وما موقف الرجال عندكم ؟ »

« إنهم يتجاوبون في أغلب الأحوال . وعدد منهم يطلب التعقيم لنفسه بعد الطفل الثاني أو الثالث ونجريها في العيادات الخارجية . فهي عملية سطحية لا تستغرق أكثر من عشر دقائق » .

« ألا توجد صعوبة في إقناع الناس بتنظيم الأسرة ؟ »

« في المراحل الأولى لم يكن الأمر سهلا وكانت هناك مقاومة للفكرة . ولكن الآن الشباب المتزوج يقبل عليها بسهولة . فهم يريدون أن يستمتعوا بحياتهم ، وأن يخففوا عن أنفسهم أعباء الحياة .

ولكن الصعوبة في الذين تزيد سنهم على ٣٥ سنة . إنهم ما زالوا متأثرين بالنظرة القديمة للحياة ، بنوع من التواكل . وعدم القدرة على إدراك التغيير الذي حدث . وهذه الفئات نسميها "بالقناة الصلبة" »

استمرت المناقشة تدور حول المائدة ساعتين كاملتين . شعرت بحركة انصراف في المكاتب فهم يحترمون مواعيد الغداء والراحة . قمت واستأذنت . نزلت درجات السلم اللامعة من فرط النظافة إلى الشارع . قابلتني لفحة الحرارة خارج المبنى . كانت السيارة البيضاء « تويوتا » تنتظرني ، لتحملني

إلى أحد مراكز رعاية الأمومة والطفولة ، ثم إلى مستشفى مخصص للولادة .

كانت الساعة تقترب من الخامسة عندما توقفت السيارة أمام الفندق . صعدت إلى حجرتى . سحبت أحد المقاعد وأخذت أطل من النافذة العريضة على غابات الأشجار تتخللها البيوت البيضاء ذات الأسطح المثلثة المغطاة بالبلاط الأحمر . تذكرت منظراً رأيته فى العيادة التى زرتها . رجل أسمر نحيل تبدو عليه سيماء الموظف . وإلى جواره زوجته فتاة جميلة يتميز وجهها بتلك التقاطيع الآسيوية الدقيقة التى تقابلك فى كل مكان .

سألته الطبيبة :

« ما مهنتك ؟ »

قال :

« سجان » .

نظرت إليه باهتمام زائد فلم أكن أتوقع أن أقابل سجاناً فى أثناء رحلتى .

« ولماذا أتيتما ؟ »

« زوجتى تريد أن تجرى عملية تعقيم » .

لاحظت أنه هو الذى يتكلم .

توجهت الطبيبة إلى الزوجة بعينيها . فقالت :

« أنا موافقة على هذا . ومستعدة للإمضاء » .

« ولماذا تريد إجراء هذه العملية » .

قال الزوج :

« عمرى الآن ٤٢ سنة ، ولدى ثلاثة أطفال . مرتبى لن يزيد كثيراً ، والحياة تبعاتها كثيرة . أريد أن أعطى أولادى الثلاثة أحسن الفرص . ثم لا داعى لأن أتحمل عبئاً جديداً فى هذه السن وأن أكبر قبل أن أنتهى من تربية أولادى » .

التفتت الطبيبة إلى الزوجة مرة أخرى وقالت :

« وأنت ؟ »

« أوافق على هذا الكلام . أنا لا أعمل ومع ذلك فأعباء المنزل كثيرة ، ولم يعد من الممكن الحصول على شغالة . وليس من السهل أن نتكفل بطفل آخر » .

أدركت أنني أشاهد تطوراً من تطورات العصر . كل شيء يخضع بالتدريج للتفكير ، كل شيء لاينبغي أن يخضع للمصادفة العمياء ، حتى ولادة الطفل . فالطفل إنسان ، والإنسان مسئولية .

سنغافورة بدون مساحيق !

السفر يولد عندى نوعاً من القلق . فأنت تشعر أن الزمن محدود ، وأنه ما زالت هناك أشياء كثيرة لم ترها . ولذلك أندهش دائماً من رفاقى فى السفر الذين يصعدون إلى حجراتهم ، ينامون ملء جفونهم ساعتين أو ثلاثاً ويرتدون ملابسهم على مهل ، ويتناولون طعامهم فى المواعيد المقررة ، فيضيعون فى هذه العمليات الروتينية نصف أيامهم .

الحجرة فى أثناء السفر تبدو لى كالزنزانة ، لا أطيق البقاء فيها ، إلا عند ساعة متأخرة من الليل عندما يفرض الإرهاق ضرورة الإيواء إلى الفراش ، أو فى فترات قصيرة يتطلبها تغيير الملابس والحلاقة والاستحمام ولحظات من الراحة . أما بقية الوقت فأقضيه فى التنقل المستمر من مكان إلى مكان ، أتناول طعامى فى المقاهى والمطاعم التى أصادفها فى أثناء التجول وأحياناً على قارعة الطريق ، أمام الأكشاك الخشبية ، أو من الباعة المتجولين ، آكل مما يأكل الناس ، وأراقب حياتهم وعاداتهم ، وأقف فى الزحام بينهم .

وفى كل مدينة عندما تسأل الاستعلامات فى الفندق ، أو الأشخاص الذين تصادفهم فى أثناء العمل عن مكان تبتاع منه شيئاً تريده ، أو

سنغافورة : رقصة الأسد فى الشارع

تقضى فيه بعض الوقت بعد عناء اليوم ، تجدهم يدلونك على الأحياء الراقية حيث الفنادق الفاخرة ، وبيوت الليل . والمحلات التى تبيع أغلى الأصناف . وعندما يحدثنى أحد عن هذه الأحياء أهز رأسى استحساناً وأستوثق من طريقة الوصول إليها ، ثم أخرج إلى الشارع وقد صممت على أن أضع بينى وبينها أطول مسافة ممكنة ، باستثناء المتاحف ، والآثار ، والأعمال الفنية ، والمكتبات . فهذه الأحياء فى أغلب عواصم العالم تتشابه . اللغة قد تختلف . والوجوه قد تختلف ، ولكن البذخ المثير للاشمئزاز واحد . والرجال الذين يتزاحمون عليها من النوع نفسه ، تجدهم فى كل عواصم العالم ، يلبسون آخر طراز ، ويتعطرون على آخر طراز . ويضحكون ويتكلمون ويرقصون على آخر طراز . ويضاربون فى بورصة المال والفتنة على آخر طراز ، ويستنشقون الهواء الفاسد فى الحجر المغلقة . هنا كل شىء مصطنع مزيف ما عدا الجواهر .

فإذا كنت تبحث عن أشياء حقيقية أصيلة ، عن نسيم منعش يكسر التتابع المرهق للأيام والليالى الحارة الرطبة ، عن دفء الناس العاديين وانطلاقهم ، عن سنغافورة بدون مساحيق وأصباغ ، فاتجه إلى الجنوب . إلى الميناء . الشمس تسقط خلف السحاب عند خط الأفق تغسل الكون بألوانها الوردية ، والمبانى البيضاء . وقمم الأشجار . ومياه البحر الممتدة فى الميناء . ورذاذ النافورات تتمايل خطوطه وتلعب مع الألوان . والطريق الدائرى مزدحم بالسيارات المسرعة . يشعرك برغبة فى الهروب من الضجيج . لتلتقى بنفسك فى أحضان الهدوء .

عند أول الكوبرى المعلق فى الفراغ تفاجأ بدرجات عريضة . وتيار من الناس يهبطون عليها كأنهم يسيرون نحو هدف واحد ، وعند أسفل الدرجات طريق واسع مصنوع من الحصى الملونة ، وعلى يمين الطريق يتحول البحر بالتدريج إلى لون بنفسجى . الظلام يزحف فوق سماء المدينة ، وعلى سطح المياه أضواء السفن تتلألأ كالنجوم التى تولد مع الليل ،

تتطلع إليها العيون الحمراء المنذرة المغروسة فى رأس التمثال الضخم المنحوت على شكل تنين .

وعلى يمين الطريق الذى يمتد مسافة كيلومتر ونصف سور من الحجر المتين ، ومصابيح بيضاء ، وصف طويل من المقاعد . وعلى يساره حديقة واسعة كالبساط الأخضر تتخلله الأشجار ، وأحواض الزهور ونافورات المياه . ومقاعد خشبية تحس أنها وزعت بعد تدبير .

والناس يجلسون فى هدوء يتطلعون إلى البحر ، أو يسيرون بخطوات متمهلة فوق الطريق ، أو عبر مساحات الحديقة تحت الأشجار .

كل الأعمار موجودة . مئات الشباب يتحدثون ويضحكون بدون ضجيج ، والعشاق يتهامسون عند السور ويطلون من فوقه إلى الأفق البعيد ، كأنهم يحاولون استقراء المستقبل ، أو يتهامسون فوق المقاعد وقد كادت رءوسهم تلتصق . والأطفال يمرحون هنا وهناك ، أو يبتاعون البالونات المستطيلة من الفتاة الصغيرة التى افترشت الأرض عند المدخل . وإذا تبعتهم فى لهوهم ولعبهم تكتشف الشىء الغريب فى الأطفال الآسيويين ، نوعاً من الجدية ، بل من الوقار ، فلا شجار ، ولا ضجيج ، ولا صياح . والكبار يوجهونهم دائماً برفق ، لا ضرب ، ولا عنف ، ولا صراخ ، ولا شىء من العصبية . علاقة مريحة تحب أن تراها وأن تتفرج عليها .

والأطفال هنا يلفتون النظر وبخاصة إذا لم تكن قد رأيتهم من قبل . فكل شىء فيهم بالغ الصغر ، أبدانهم ، وعيونهم ، وأيديهم ، وسيقانهم ، يشبهون العروس المصنوعة من المطاط . فتفاجأ بهم يتحركون فوق سطح الأرض مثل « عقدة الأصبع » وعلى وجوههم سيماء الجد والرزانة . فالطفل الآسيوى مثل الرجل الآسيوى لا تظهر انفعالاته فى وجهه .

عند آخر الطريق وجدت ميداناً واسعاً فى شكل مساحة مستديرة . على الحافة الخارجية للدائرة انتظمت أكشاك مستطيلة من الخشب مطلية بطلاء أبيض يلمع فى ضوء المصابيح . وفوق مساحات الدائرة

كلها وضعت الموائد والمقاعد الخشبية المثبتة فى الأرض . كان الميدان مزدحماً بالناس يجلسون حول الموائد .

سرت ببطء أتطلع إلى واجهة المحلات . على جدرانها رسوم ملونة تمثل الأطعمة التى تباع . وكل محل مختص بنوع معين . فهنا عصير الفواكه والمثلجات وأنواع من « الأيسكريم » وهنا القهوة والشاى والساندوتشات والفطائر والكعك . وهنا الخضر والأرز والأطباق المطبوخة ، وهنا أنواع السمك والجنبرى والحيوانات المائية والقوقعات . وهنا البيض والطيور ، وهنا اللحوم المشوية والمحمرة .

أحسست بالجوع ينقض على فجأة . جلست على أحد المقاعد عند الطرف الخارجى . برغم الزحام لم يزد صوت المتجمعين على شىء يشبه الهمهمة الهادئة . هناك تجلس أسرة بأكملها : الأطفال يغرسون ملاعقهم القصيرة فى تل من الأيسكريم الآسيوى وضع أمامهم . والكبار يشربون عصير الفواكه ويتطلعون إليهم بعيون هادئة . على المائدة الملاصقة لى رجلان يحتسيان الشاى برشفات لا تسمع . ويتحدثان بكلمات لا تسمع . الجو فيه شىء كالسحر . الشجرة العالية ترتعش فى الضوء الأبيض وسحابة ثقيلة تجتاز السماء تنبعث منها بقايا الألوان الذهبية والوردية التى تطلقها الشمس بعد غروبها ، على يمينها مساحة صافية من السماء كالنافذة الزرقاء . الأيدى والابتسامات تلتقى عبر الموائد الخشبية ، والفتيات يتحركن هنا وهناك وسط الزحام يحملن المشروبات ، والأطعمة . بتلك المشية اللينة السريعة التى تحس فيها بالقدرة على الجهد المتقن . وعلى بعد بضعة أمتار بحيرة صغيرة تحيط بها أزهار مائية أغلقت جفونها . وفتاة هندية لفت قوامها الفارع « بسار » أزرق طويل تتطلع إلى البحيرة فى صمت . ورجل يجلس على الجانب الآخر يتابع حركة الناس فى هدوء .

مرت ساعة والناس يروحون ويجيئون ، والرجل ما زال بجوار البحيرة . والفتاة الهندية ما زالت مستغرقة فى المياه الساكنة . وأنا جالس فى مكانى

لا أريد أن أغادره . كأنني أصبحت جزءاً من الطبيعة . من تيارها الخفي . من أسرارها . لم أعد أشعر بالحاجة إلى الكلام أو الحركة أو التفكير . يكفيني هذا الإحساس بالذوبان في اللحظة . هذه الوحدة مع الكون . هل كان لا بد من أن أجتاز كل هذه المسافة حتى أجدها ؟

تلفت إلى البحيرة . فوجئت بها ساكنة موحشة . هكذا في لمح البصر . بحثت عن الرجل فلم أجده . بحثت عن الفتاة فلم أجدها ؛ كأن سحراً ما يربط بيننا نحن الثلاثة . أحسست باللحظة تتلاشى وبالحلقة تنكسر . وضعت النقود على المائدة وغادرت المكان .

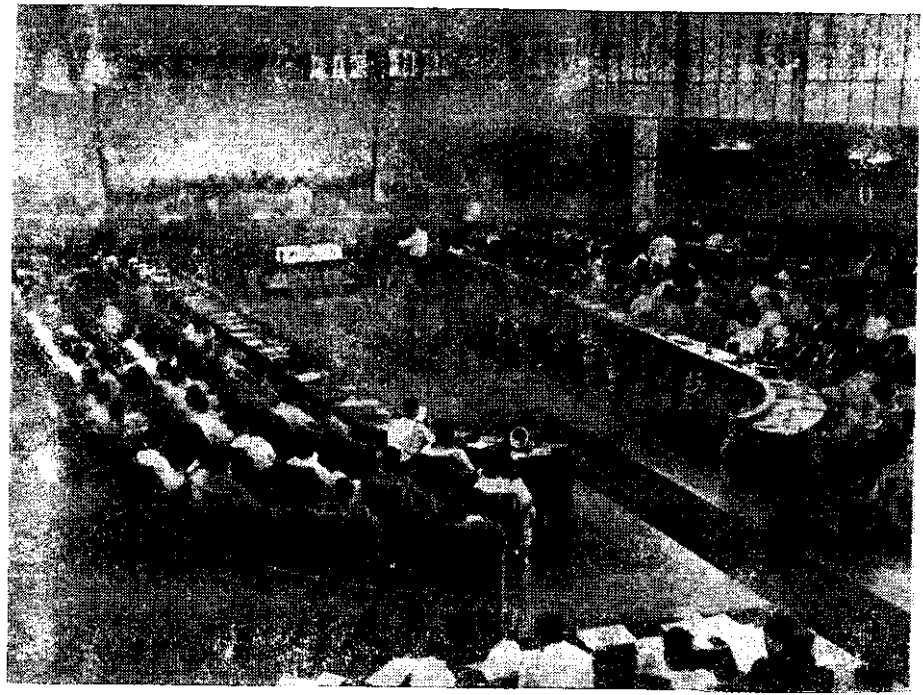

ماليزيا : قاعة المؤتمر ، صالة تنكو عبد الرحمن

ماليزيا

صعدت الممر الطويل الذى يرتفع بالتدريج إلى صالة المطار سائراً وسط الجمع الصغير الذى ترك الطائرة معى منذ لحظات . أخذت عيناى تدور بفضول حول المبانى . والأضواء . والمساحات الشاسعة الغارقة فى ظلام الليل . وقد انتابنى ذلك القلق الذى يصيبك عندما تطأ قدماك أرض بلد جديد .

عند نهاية الممر انحنيت لليمين . وتأهبت لاختراق الباب المفضى إلى الصالة الواسعة المضاءة بمصابيح مستترة . تغرق الناس . والجدران . والمقاعد . والوجوه بأشعتها العنبرية الدافئة والغامضة فى الوقت نفسه عندما فوجئت بصوت أنثوى هادئ ينطق اسمى .

تلفت إلى يسارى لأجد ثلاثة أشخاص يقفون . رجل نحيف ذو عينيين سوداوين فيهما شىء كالقسوة الباردة . ويبدو من ملامحه . ومن بشرته السوداء أنه هندى . وشاب تشع من عينيه . ومن وجهه الصينى الأبيض المستدير ابتسامة مشرقة . وفتاة طويلة ترتدى . « السارى » تلمع ألوانها فى الضوء الخافت . تقدموا نحوى وشعرت بأياد تمتد إلى حقائبى لتحملها عنى . وإلى يدى لتضغط عليها بحرارة . وإلى جواز السفر . وتذكرة الطائرة والأوراق الأخرى الموضوعة فى محفظة من الجلد . والتى كنت أقبض عليها بحرص المسافر « الغشيم » وإلى عروة « الجاكتة » لتضع زهرة النرجس البنفسجية فوق صدرى . وإلى ذراعى لتقودنى حيث ينبغى أن أتجه .

قال الشاب الصينى :

« مرحباً بك فى ماليزيا . من أين جئت ؟ »

« من مصر » .

ماليزيا : فتاة من أصل إندونيسى

« آه . . . مصر بلد بعيد . لكنه قريب إلى قلوبنا » .

شعرت بتلك السعادة . وذلك الاطمئنان اللذين يستوليان عليك عندما تنزل فى بلد غريب لتجد أن الناس ينتظرونك بترحاب . وأن كل شىء أعد لاستقبالك وما عليك إلا أن تترك نفسك للزمن يحملك فوق أمواج من المتعة الهادئة .

لم أشعر بنفسى إلا وأنا جالس فى سيارة بيضاء طويلة . كانت تنتظر عند المدخل الكبير . مددت ساقى المتعبتين من قلة الحركة فى الطائرة وأسندت ظهرى على المقعد الوثير . الطريق شريط أسود تنهبه عجلات السيارة بصوتها المنتظم . يمتد أمامك فى ظلام الليل كأنه يقودك إلى مصير مجهول . وأضواء المبانى تتلألأ وتنبئك بأن هناك أشياء سترّاها غداً .

أحاديث فى حمام السباحة

« فندق ميرلين » مبنى ضخم يرتفع فى سماء كوالالامبور . يقولون عنه إنه أكبر وأفخم فنادق العاصمة . بالنسبة إلى لم يكن سوى مكان للنوم . الفندق مبنى فى شكل حدوة حصان وفى الفراغ الداخلى حديقة تزدحم فيها الزهور الاستوائية . بألوانها العميقة . وعطرها القوى كالمخدر . وأشجار جوز الهند الفارعة . والشجيرات الصغيرة بأوراقها الكبيرة تشعر فيها بغزارة الطبيعة وعطائها . وفى وسط الحديقة حمام للسباحة كأن لونه يذكرنى بالبحر عند الشواطئ الممتدة غربىّ الإسكندرية .

كنت أذهب إلى حمام السباحة يوميًّا بعد انتهاء جلسات المؤتمر لأقضى هناك ساعة أو ساعتين . وفى هذا المستطيل الصغير من المياه الزرقاء التى لا تزيد على مائتى متر مربع تجمعت خيوط من أنحاء العالم وخيوط من كوالالامبور . تتشابك فى نسيج يجذبك بألوانه وظلاله . نسيج مثير تصنعه لعبة المصالح والجنس والأجناس .

ماليزيا : فتاة قروية ... زهور اللوتس للبيع .. من يشترى؟

وفى حمام السباحة قابلت ذلك الخليط من الناس الذين يتحكمون فى مصير ماليزيا ، بل فى مصير عديد من البلاد الآسيوية ، أولئك الناس الذين يتحدثون عن عواصم العالم كما نتحدث نحن عن شوارع القاهرة وبالألفة نفسها ، واليسر ، والمعرفة . تحس أنهم ينتقلون بينها مثلما تنتقل من السيدة زينب إلى بولاق إلى الجيزة . يعقدون الصفقات هنا وهناك ويحملون أوراقهم فى حقائب « السمسونيت » ويدبرون أمورهم فى حديث هامس حول الموائد المتناثرة على الحشيش الأخضر . ويحتسون المشروبات الآسيوية المسكرة المخلوطة بالفواكه الملونة . ويعرضون أجسادهم المشبعة بالطعام واللذة تحت أشعة الشمس . ويلقون نظرات الإهمال المتعمد على أرداف وسيقان . ونهود النساء . وهن يتهادين نصف عاريات حول الحمام . أو يلقين بأنفسهن فى مياهه الزرقاء ، أو يفترشن حشيشه الأخضر فى استرخاء كسول . هنا تحس بالمرأة العاطلة التى تحترف بيع جسدها فى بورصة المتسرين أزواجاً **كانوا** . أو عشاقاً . أو مجرد معجبين عابرين .

الرجل اليابانى صاحب مصانع الدراجات البخارية يسحب زوجته المطيعة يومياً إلى الحمام ويسبح إلى جوارها بحركات عنيفة سريعة تذهب سدى فى الهواء . ثم يجلس صامتاً بجسده المكتنز الأبيض لا يتحدث إلى أحد ، إلى حتى زوجته المسالمة التى تجلس إلى جواره منتظرة إشارة الانصراف . والإنجليزى فارع الطول الذى يرتدى لباساً للسباحة بلون الدم ، تتخلله رسومات الأشجار والأزهار الملونة . والذى عرفت منه فى لحظة ود مفاجئة أنه من كبار المساهمين فى شركات مناجم القصدير . قال لى فى أثناء حديث طويل تبادلناه فى أمسية أحد الأيام إن ماليزيا تتبع سياسة حكيمة للغاية ، فهى ما زالت تعتمد على رءوس الأموال وعلى الخبرة الأجنبية ، ولا تحاول أن تسير فى طريق التصنيع الوعر ، بل تعتمد فى اقتصادها على تصدير المطاط الذى يشكل ٤٠ ٪ من الدخل

ماليزيا : الفتيات يرقصن بالسيوف

القوى . والقصدير ٤٥٪ . ثم الخشب وزيت النخيل اللذين يغطيان الخمسة عشرة فى المائة الباقية . كما أوضح لى أنها لا تصرف من ميزانيتها فى أغراض التصنيع أكثر من نسبة واحد فى المائة . فلما أشرت إلى خطورة الاعتماد على تصدير المواد الخام التى تتدهور أسعارها بسبب تحكم الاحتكارات الغربية فى أسواقها أحسست بلحظات الود المفاجئة تتبخر فى الحال . والفتاة السويدية التى كانت تعرض أجزاء جسمها المختلفة لأشعات الشمس . وتبحث عيناها الزرقاوان كل يوم عن رجل جديد من خلف الكتاب الذى كانت تتظاهر بقراءته . والرجل الماليزى ، أحد المسئولين عن تنظيم المؤتمر الخاص بتنظيم الأسرة فى المناطق الصناعية والذى قال لى إن هتلر كان أول من أدخل فكرة تنظيم الأسرة عن طريق إبادة الأجناس الضعيفة . ومنعها من التناسل . مما يبين أنه كان رجلا بعيد النظر . فلما أوضحت له أن رأيى فى هتلر يختلف تماماً وأنه كان مجرماً . أحسست أن الوصال قطع بيننا إلى الأبد . والصينى الذى يعمل أستاذاً للقانون الدولى فى إحدى جامعات أمريكا ... رجل دائم الابتسام . عشرى . يصاحب الجميع . وينسج علاقات واسعة بدأب منقطع النظير عرفت أنه يعيش أغلب الوقت خارج أمريكا متنقلا بين المؤتمرات . لقد اكتشفت أنه يوجد فى الهيئات الدولية وفى النشاط الدولى نوع من الخبراء أطلقت عليهم تسمية ساخرة هى « خبراء الطائرات النفاثة » لأنهم ينقلون من بلد إلى بلد . ومن اجتماع إلى اجتماع ومن مؤتمر إلى مؤتمر طوال السنة فلا تتاح لهم فرصة دراسة أى موضوع . ويتحولون إلى محترفين للخطب . والكلمات المحفوظة . ولمؤتمرات الكواليس وللمآدب والحفلات . والهندى ذو الوجه المفتوح القوى . تبرق أسنانه البيضاء فى ابتسامة مضيئة ويتحدث بصوت عميق . ويجلجل بضحكة ملؤها الثقة بالنفس . ويتحرك جسمه العريض بخطوات ناعمة وثابتة كالليث . قال لى إنه صاحب مزارع شاى واسعة فى جنوب الهند . وإنه جاء خصيصاً لحضور مؤتمر

ماليزيا : الإنسان فى مزارع المطاط . . حفرة دائرية فى قشرة الشجر والكأس يمتلئ . . . نقطة نقطة

تنظيم الأسرة . فتساءلت فى سرى عما يجعل رجلا رأسماليًّا كهذا . بل يجعل الرأسماليين عموماً يهتمون بتنظيم الأسرة .

وهنا فى ماليزيا تشعر بالبلاد التى ما زالت تحبو فى طريق التحرر من الاستعمار . تبحث عن الطريق بدون أن تهتدى إليه . لأن سحب الماضى . وسموم النفوذ الأجنبى ما زالت تحجب الرؤية . ولأن تحالف الطبقات الإقطاعية القديمة والرأسمالية الجديدة ما زال يفرض قيوده ، ولأن الاحتكارات الأجنبية تحيط هذا البلد الجميل بأخطبوطها المتشابك .

وكوالالامبور مدينة عصرية . واجهة من الواجهات التى أقامها الغرب مثل بانجكوك وطهران . الشوارع الواسعة ، والميادين الفسيحة يرتفع فيها رذاذ النافورات ، وتلمع بألوان قوس تزح فى ضوء الشمس ، والمبانى البيضاء . والفيلات الحديثة تصعد فى خطوط متصلة فوق الروابى الخضراء . هنا تحيا البورجوازية الماليزية . تنعم بتكييف الهواء فى منازلها . وتسرع فى سياراتها اليابانية والأمريكية . عبر الشوارع ، يرتدى نساؤها « المنيجيب » ويرتدى رجالها البنطلون والقميص ورباط العنق مثل الأمريكيين . ويمتطى شبابها الدراجات البخارية تنطلق كالبرق فوق الأسفلت الأسود يمتد كشريط من حرير . ويرقصون على أنغام « الكاليبسو » و « السيكيديلى » حتى الصباح .

وهنا تصدر الصحف باللغة الإنجليزية . تقرأ على صفحاتها أخبار الاعتداءات المسلحة والسطو . والجرائم . ودراسات عن انتشار المخدرات بين الشباب وحتى بين أطفال المدارس .

ماليزيا : استخراج خام القصدير من النهر

صناعة تدمير الإنسان من الداخل !

وفى يوم من الأيام كنت فى أحد قاعات الفندق فسمعت صوتاً أمريكيًّا أجش يرتفع من أحد الأركان . اقتربت منه لأجد أمامى جهاز التيلفزيون . وفوجئت بأن جميع البرامج التى تذاع . . . الأخبار . والتعليقات والمسرحيات ، والإعلانات حتى النكات نسخة باهتة من الاستعمار الجديد المعتمد على التغلغل الاقتصادى والثقافى فى أخبث صوره . وأن البلاد لم تكتشف شخصيتها الوطنية حتى الآن .

وقد نظم المشرفون على المؤتمر رحلة إلى أحد المناطق السياحية . فندق على قمة جبل اسمه « حنتينج هيلاندز » وهو اسم إنجليزى يعنى مرتفعات « حنتينج » . وصعدنا إلى القمة فى موكب من سيارات الأجرة سارت فى خط طويل عبر الطريق الحلزونى يطل على الغابات الكثيفة . . . أشجار عملاقة داكنة الخضرة تضرب بجذورها فى الأرض الحمراء .

استقبلنا صاحب الفندق عند الباب وقادنا إلى صالون واسع الأرجاء . الواجهة كلها من الزجاج تشعرك بأن لا شىء يفصل بينك وبين التلال . والأشجار ، والسماء الرمادية تتخللها مساحات من الزرقة الصافية كالبحيرات .

وقف الرجل بيننا يحدثنا عن مشاريعه . نموذج مجسد لرجل الأعمال الغربى يستقر خلف وجه آسيا التقليدى . العيون التى لا تستطيع أن تقرأ فيها شيئاً ، والابتسامة الدائمة . والحفاوة الحارة .

« هنا سنضيف جناحاً جديداً للفندق يسع ١٠٠٠ حجرة . وسعر الحجرة ٧٦ دولاراً ماليزيًّا فى الليلة شاملا الطعام (٢٥ دولاراً أمريكيًّا) وهنا — وأشار بأصبع مبتور عند المفصل الأخير — سنبنى حماماً للسباحة .

ماليزيا : جامع فى كوالا لومبور

وعند الطرف الآخر خصصت الأرض الواسعة التي ترونها كساحة للعب " الجولف " وهذا السور سيحيط بحديقة يابانية . ووسط الحديقة اتفق على إقامة ناد ليلي . ثم أضاف : من نوع خاص » ... وألقى بنظرة جانبية مرحة إلينا كأنه يستكشف رد الفعل .

أقدامنا تنغرس في البساط السميك . سرنا عبر الصالون نشق طريقنا بين المقاعد الجلدية الوثيرة المتناثرة في إهمال منظم . وحلقات الناس تفوح منهم رائحة العطر والتبغ . الجو مصنوع من المرمر والرخام ، تصعد منه وتهبط إليه المصاعد اللامعة بأجراسها الموسيقية . وأضواؤها ، وتنفتح أبوابها وتغلق على سيل متدفق من الناس . هبطنا إلى البدرون : صالة ضخمة فيها جميع أنواع القمار موائد البكاراه والروليت الخضراء تدور فوقها الأرقام العاجية الملونة . وتتحرك الأيادي الناعمة . والفيشات ، وينسكب الزهر مع الحظ . وتمتد العصاة الطويلة وسط دائرة من الوجوه ، والأنفاس المعلقة . والكلمات الحامسة . مئات من الرجال والنساء أغلبهم من الشباب الذي لا يتعدى سن الدراسة أخذتهم حمى المقامرة فحضروا فوق الجبل ينفقون بالنقود بدون حساب .

صعدنا إلى الدور الأول . هنا تمتد الصالة بطول الفندق مسافة تصل إلى مائة متر : انتصبت فيها عشرات الآلات الميكانيكية تلمع بلونها المعدني البارد . ألعاب متنوعة تضع فيها قطعة من النقود على الأرقام ، أو صورة من الصور ، أو زاوية من الزوايا . أو كرة ملونة ، فيصدر عنها صوت دوران معدني في داخلها ، يخفق معه قلبك في انتظار النتيجة ثم ينقلب الضجيج إلى صمت كالقبور لترقد نقودك في جوفها مفقودة إلى الأبد . ولكن بين الحين والحين تستسلم الآلة لموجة من الكرم المفاجئ فتنسكب منها الدوائر الفضية دفعة واحدة يحتك بعضها ببعض مصدرة ذلك الصوت المرح الرنان : صوت النقود الذي يسعد قلب الواقف أمامها .

ماليزيا : رقة الفتيات تتضح فى الرقص الجماعى

وهذه الآلات يسمونها « جاكبوت » وهى احتكار لبعض الشركات فى أمريكا . التى لها صلة وثيقة بعصابات « المافيا » المسيطرة على « صناعة » القمار فى جميع بلاد العالم المرتبطة بالغرب . ولذلك فإن الجزء الأكبر من المكاسب التى تعود منها تذهب إلى جيوب ملوك القمار فى الولايات المتحدة .

وصناعة تدمير الإنسان صناعة عصرية منظمة تتشعب وسائلها وتتشابك . فإذا أردت أن تستغل الإنسان وأن تتحكم فيه فلا بد من تدميره ، لا بد من القضاء على وعيه ، على ثقته واعتداده بنفسه ، وعلى استعداده للنضال . وإذا أردت أن تنجح فى ذلك فلا بد من البدء فى سن مبكرة عندما تتكون شخصية الإنسان وتتحدد معالمها .

وليس من قبيل المصادفة أن تجد بجوار آلات « الجاكبوت » هذه ألعاباً أخرى للأطفال . بعضها مبنى على الحظ وعلى القمار . ولا تختلف إلا من حيث صغر المبالغ التى تراهن أو نوع الألعاب : سباق البط ، وسباق السيارات ، والفوازير ، وصندوق ضخم بأزرار أوتوماتيكية يستطيع أن يمارس الصغار من خلالها هواية إلقاء القنابل ، أو إطلاق الصواريخ على القرى والمدن .

جلست إلى جوار السيدة الفيليبينية مندوبة جمعيات تنظيم الأسرة فى المؤتمر وسألتها :

« ما رأيك فى كل هذا ؟ »

هزت كتفيها النحيلتين وقالت :

« جو من الرفاهية أشعر أنه مؤقت » .

« لماذا ؟ »

« يستنزفون مواردهم بدون أن يضيفوا شيئاً » .

« أليس الوضع عندكم مشابه ؟ »

« إلى حد كبير . ولكن الوعى بها يتزايد » .

ماليزيا : رقصة بالمناديل تعبر عن تساؤل الحيران

السلطان فى المطعم !

فى المطعم الكبير للفندق كنا ثمانية . السيدة الفيليبينية تحس فيها بالمرأة التى تعودت العمل وتحمل المسئولية منذ سن مبكرة . هادئة ، متزنة وقد زحف الشيب إلى شعرها الأسود الأملس الذى رفعته خلف رأسها على طريقة النساء الآسيويات . وسيدة أيرلندية مندوبة منظمة الأغذية والزراعة ، وسيدة سويدية مرحة تلمع عيناها خلف النظارة ببريق ساخر ، ومدير مشروع تنظيم الأسرة فى الهند ، رجل تخطى سن الخمسين يكاد لونه يقترب من الزنوج . ورجل اقتصاد لبنانى يعمل فى قسم السكان بهيئة الأمم المتحدة يحكى قصصاً مضحكة بدون انقطاع وطبيب من سيلان ، وأخيراً شاب ماليزى من أصل صينى مندوب صاحب الفندق .

قاعة الطعام برغم اتساعها الشاسع لا يوجد فيها مكان خال . كتل من الناس يبدون كالأشباح فى نصف الظلام وقد تجمعوا فى دوائر حول الموائد يأكلون أو يتحدثون بأصواتهم الهامسة . وبين الموائد حركة لا تنقطع عشرات البنات يرحن ويجئن من مكان إلى مكان بدون كلل وقد حملن صحاف الطعام ، أجسام آسيوية رشيقة يرتدين « المنيجيب » ، ولكن على وجوههن مسحة من الجد وأحياناً من الحزن غريبة ، كأنهن تلميذات مدرسة للراهبات .

فى وسط القاعة ارتفع مسرح كبير وقف عليه أفراد الأوركسترّ : شباب ماليزى بأجسادهم النحيلة ، وتقاطيعهم الآسيوية الدقيقة ،

ماليزيا : السلام بضم اليدين يعبر عن بداية الرقصة

وشعورهم المضوية على طريقة « الجيبيز » يتثنون ويتأوهون بأغانى الحب الحديثة . ومن خلفهم شاشة تتحرك فوقها رسومات تجريدية ملونة بمئات الألوان . كرات . ونجوم . ومثلثات . ومربعات . ورذاذ كالمطر ، وألسنة من اللهيب . وأجسام هشة كالقطن والسحاب .

المائدة التى نجلس حولها مستديرة فى وسطها طبلية من الخشب تدفعها بيدك فتدور . وأمام كل منا عدد من الأطباق والملاعق المصنوعة من الصينى الأبيض . وعصوان من العاج . الأطباق صغيرة تشبه فى شكلها « السلطانية » والملاعق مجوفة تجويفاً عميقاً ويدها قصيرة .

أطباق الأكل توضع على الطبلية وسط المائدة . والطبلية تدور حتى يتناول كل واحد ما يريده . .

كل شىء يتم فى هدوء بدون عجلة . فالأكل هنا عملية استمتاع طويلة تتخللها الأحاديث أو حتى مجرد الصمت . الطبق يوضع على المائدة ، ولا يرفع إلا عندما يكون الجميع قد توقفوا تماماً عن الأكل . وعدد الأصناف يبدو لا نهائيًا لدرجة أننا اختلفنا حول العدد ونحن عائدون فى سيارة الأجرة تهبط فى الظلام على الطريق الحلزونى من قمة الجبل إلى قاع المدينة . تذكرت أنا منها حساء سمك القرش الذى أقدمت عليه بحذر شديد ثم اكتشفت أن لا بديل له فى الطعم عندما تسكب عليه قليلا من الخل الأحمر المحتوى على قطع صغيرة من الفلفل الأخضر الحراق . والأرز المخلوط بالبازلاء وشىء كالكركم . والجنبرى الصغير المسلوق الذى ينبغى أن تضيف إليه ملعقة من الصلصة الخاصة التى تقدم إلى جانبه فى وعاء صغير . والفراخ المشوية يفوق طعمها كل ما ذقته من قبل . وبخاصة أننى لست من هواة المشويات . وطبق يتكون من قطع صغيرة من الفراخ مطبوخة فى سائل أحمر « مشطشط » يشيع الدفء كلما ابتلعت قطعة منها . وكبد الإوز ، والسمك ،

ماليزيا : السيدة الفيليبينية فى شرفة منزل مدير مزرعة المطاط . . .

وخضراوات عبارة عن جذور بعض أنواع البوص ، ومعها بيض العصافير المسلوقة التى أوضح لنا الشاب المالبزى أن عمرها خمسمائة سنة . تناولت واحدة منها فوجدت أن البياض تحول إلى لون رمادى يميل إلى الأسود المشوب بزرقة بسيطة . استجمعت شجاعتى ووضعت البيضة فى فمى وسط نظرات الاهتمام والاستطلاع ، وكأن أصدقائى ينتظرون النتيجة ، فتموجئت بملمس كالقطيفة ، وبطعم البيض مخلوطاً بطعم آخر يشبه « أبا فروة » المشوية .

لا أتذكر هل كان عدد الأطباق اثنى عشر أو ثلاثة عشر . أتذكر فقط أننى نظرت إلى الساعة بعد أن انتهينا من العشاء فاكتشفت أننا مكثنا ثلاث ساعات نأكل ، بدون أن يشعر الإنسان بالملل أو الامتلاء . . . عملية استطعام طويلة هادئة تحس بعدها أن الحياة لم تفقد لذتها وتجد جسمك وقد غدا دافئاً . كأن شعلة خفية أضيئت فى أعماقه من كثرة المواد « الحارقة » .

كدنا أن نفرغ من تناول الطعام عندما أحسسنا بحركة غير عادية . رأينا عدداً من الرجال ومن بينهم صاحب الفندق ، والشاب المالبزى الذى يجلس معنا يهرعون ناحية الباب . بعد قليل عاد إلينا الشاب . جلس ، ثم أومأ برأسه إلى مائدة قريبة منا بدون أن ينظر ناحيتها ، وقال بصوت انخفضت نبراته إلى شىء قريب من الهمس : « سلطان . . . . التفتنا إلى المائدة التى أحاطت بها دائرة كبيرة من الناس يتوسطهم عملاق برونزى اللون يبرز بجسده الضخم ، وكتفيه العريضتين ، وعنقه الغليظ ، ورأسه الكبير المحلوق بالموسى يرتفع فوق مستوى الجالسين معه . كان يشبه تماماً الصورة التى كثيراً ما نراها للحراس المغوليين يقفون أمام باب سميك وقد رفعوا بين أيديهم السيوف العريضة . أمعنا النظر فى الجمع الصغير بفضول . السلطان يرتدى قميصاً ملوناً مفتوحاً عند الصدر ، وسروالا . أما بقية الرجال فكانوا بالملابس الإفرنجية ، بعضهم شباب أطالوا شعر رءوسهم

ماليزيا : الفتى والفتاة فى رقصة شعبية

وتركوها تنسدل على الجانبين ومن الخلف . أما النساء فكانت تلف أجسادهن الرشيقة فساتين السهرة ذات الألوان الحريرية الزاهية . كانوا يجلسون جميعاً فى صمت . الرجال وضعوا أيديهم فوق المائدة فتلمع أزرار المعاصم فى الضوء الخافت . والنساء ثبتوا عيونهم فى الأطباق التى وضعت أمامهن فى استسلام كأن مجرد الارتفاع بنظراتهن إلى أعلى قد يشتم منه ما لا يجوز .

كان العرض قد بدأ على المسرح . مغنية تنفث كلمات الحب فى صوت عميق فيه شرخ مبحوح كالحزن وتقف كالتمثال الأبيض فى شعاع الضوء . والناس يصفقون فى فتور كأن الحماس فى وجود السلطان شىء لا يليق . والخالسون مع السلطان ينظرون إليه عند نهاية كل أغنية كأنهم يريدون أن يستشفوا منه الرضى أو الضيق . وهو لا يتحرك . ولا يتكلم . ولا يبدو عليه أى شىء . كقطعة من الصخر صبت قديماً من فوهة بركان لتبقى مكانها . ثم جاء دور ألعاب الأكروبات . مجموعة من الرجال كالمصارعين ربطوا معاصمهم بأشرطة من الجلد . وثلة من الأطفال وأربعة من الشباب بدوا كالفرق البدائية التى تتجول بين القرى لتكسب قوت يومها . كانوا يقدمون ألعابهم وقد ثبتوا عيونهم على السلطان كأن خوفاً مستمراً يشد انتباههم نحوه . وعند نهاية كل فقرة كانوا ينحنون إلى الأرض وقبلتهم ناحيته .

مال الصديق اللبنانى ناحيتى وهمس :

« ما رأيك ؟ »

قلت : « فيم ؟ »

« فيما رأيت الليلة » .

ترددت لحظة :

« تناقضات غريبة » .

« ولكن طبيعية فى مثل هذه البلاد » . وأشار إلى صاحب الفندق الذى

كان واقفاً عند إحدى النوافذ يتابع العرض « هذا هو الكومبرادور . وهذا — ومال برأسه ناحية المائدة المجاورة — هو السلطان . هنا التكنولوجيا الرأسمالية . . . . . وهنا بقايا القبلية والإقطاع » .

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل عندما عدنا إلى الفندق . صعدت إلى حجرتى . كانت تبدو باردة موحشة . أدرت مفتاح الراديو وأشعلت سيجارة ثم حشرت جسدى المتعب تحت الأغطية . هذه البلاد غريبة . مدهشة . فيها ما يثير الإعجاب . وفيها أيضاً ما يثير الخوف .

الإنسان فى مزارع المطاط

زحف الأتوبيس فوق شريط من الأسفلت الأملس كجلد امرأة زنجية ، يخترق مساحات الخضار . على الجانبين صفوف من الأشجار ترتفع سيقانها الفارعة فى خطوط منتظمة تحس فيها بيد الإنسان العاملة ، وتحجب فروعها وأوراقها سماء رمادية اللون . الأرض تحتها ترتفع وتنخفض فى تلال صغيرة تحس بها فى حركة الأتوبيس كأننا نسير على أمواج البحر .

حول السيقان خطوط دائرية شقت بسكين حاد ، وعند أسفل الخطوط كأس صغيرة من المعدن الصدئ مربوطة بسلك معدنى يسيل فيه سائل كاللبن الأبيض . . . . نقطة ، نقطة . المطاط الخام الذى يمثل ٤٠٪ من الإنتاج القومى فى ماليزيا .

هذه المزارع الشاسعة التى تمتد أبعد من مرأى العين تملكها شركات ضخمة ، رءوس أموالها إنجليزية أو أمريكية دخلت معها الأموال

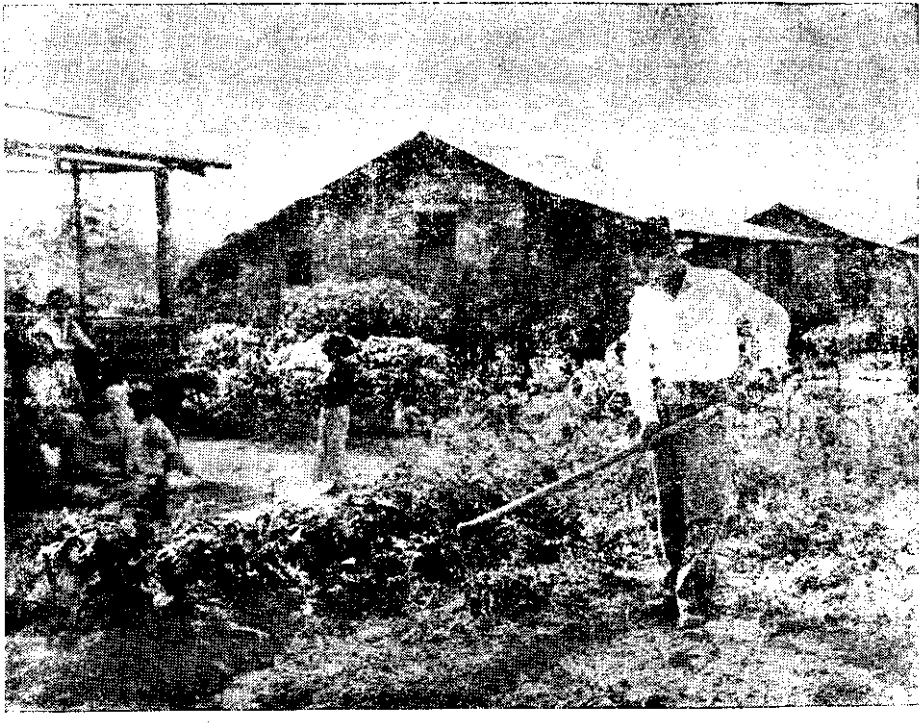

ماليزيا : أسرة فى مزارع المطاط ... زراعة قليل من الخضر حول المنزل للاستعمال العائلى

الوطنية بنصيب محدود . وهنا وهناك مساحات من الأرض غطتها أشجار النخيل ، جذوعها القصيرة مغروسة فى الأرض كأنها توقفت عن النمو فى سن مبكرة . ثمار البلح البيضاوية المكتنزة مصبوغة بألوان خضراء تتحول إلى الأحمر المحروق . وهذه الثمار لا تصلح للأكل ولكن عندما تنضج يجمعونها . ويضعونها فى أكوام عالية فوق مقطورات النقل ، تحملها إلى معاصر ميكانيكية حديثة . فقد انخفضت أسعار المطاط فى الأسواق ، كما انخفضت أسعار كل المواد الخام ، وتفاقم النزيف التجارى الذى يمتص ثروات البلاد النامية لمصلحة الاحتكارات العالمية . وأخذ المطاط الصناعى يتقدم خطوات واسعة ، ويهدد مكانة المطاط الطبيعى . لذلك لجأت هذه الشركات إلى البحث عن مواد زراعية أخرى ومنها زيت النخيل .

بين الحين والحين ، من نافذة الأتوبيس ، كنا نلمح امرأة شابة ترتدى قبعة من الخوص وسروالا ، وقميصاً ملوناً . يبدو وجهها دائرة سمراء تحت القبعة . تراها تسير وحدها من شجرة إلى شجرة تجمع السائل الأبيض من الكؤوس فى جردل من البلاستيك تحمله معها ، وقد تركت الدراجة التى تتنقل بها مسنودة على إحدى الأشجار . شىء ما فى هذه المرأة وهى تتوغل فى جوف الغابة يوحى بالوحدة الفظيعة ، بالبؤس . . . هكذا هى الدنيا التى نعيش فيها . . . الغنى الفاحش يجاوره دائماً البؤس الفاحش . والإنسان يجمع اللبن الأبيض لكى يصب فى أفواه أصحاب الشركات ، يمشى وسط الغابة حتى اليوم الذى يكتشف فيه أن واحداً زائداً واحداً يساوى أكثر من اثنين .

والوحدة سمة من سمات الحياة فى مزارع المطاط فالناس يسكنون هنا فى تجمعات صغيرة . أربعة أو خمسة ، أكشاك خشبية تلاصقت جدرانها وكأنها تبحث عن الطمأنينة وسط الغابة الموحشة ، ترى الملابس المغسولة

ماليزيا : فلاحة من ماليزيا تحمل « جردلين »

وهى تتدلى من الحبل وعدداً من الأطفال كعيدان الكبريت المحروقة يمرحون حولها أو يتطلعون بعيون نظرتها غريبة مسطحة كأنهم قباوا منذ زمن بعيد كل ما يدور حولهم كشىء طبيعى .

عند نهاية الطريق الذى كنا نسير فوقه انحدر بنا الأتوبيس إلى اليسار وسار مسافة تقرب من ثلاثة كيلومترات صاعداً فى اتجاه قمة أحد التلال الخضراء . هبطنا من الأتوبيس لنجد المدير فى انتظارنا . رجل هندى قصير القامة يغطى شاربه الأسود الكث فماً واسعاً ، وفوق عينيه نظارة طبية تخفى نظره بإرادة نفاذة . كان يرتدى « بنطلون شورت » وحذاء ذا رقبة ، قادنا إلى منزله . فيلا واسعة مبنية من طابق واحد ، بيضاء كالحمامة وسط المساحات الخضراء ، تحيط بها حديقة كبيرة تناثرت فوقها أشجار الحناء والفل الهندى ، والياسمين الآسيوى ، وأحواض من البنفسج والزهور الاستوائية .

الحجرات واسعة الأرجاء ينفتح بعضها على بعض بدون أبواب . تلمع من النظافة المفرطة . وكل قطعة أثاث منتقاة تحس أن صاحبها جمعها خلال رحلاته عبر بلاد المنطقة . على الجدران سيوف من الفضة وسجاد من فارس وبخارى .

جلسنا على الشرفة نحتسى البيرة فى أكواب من الفخار السلوفاكى الأزرق ونمضغ الحبوب الصفراء المحمصة المخلوطة بالبهارات ونوع من الشطة الحارقة .

لمحت فى الحجرة المجاورة مائدة طويلة اصطفت فوقها أطباق من الفاكهة وزجاجات خمر مختلفة الأحجام والأشكال . تلمع فى الضوء المتسلل من النافذة القريبة .

لمح مضيفنا عينى وهى تستقر على المائدة فضحك وقال :

« ساوى الرجل فى وحدته . أنت طبيب أليس كذلك ؟ »

قلت : « نعم . كيف عرفت ؟ »

لمعت أسنانه البيضاء القوية فى ابتسامة عريضة وكأنه فخور باكتشافه .

« من أسفارى الكثيرة » ، سكت قليلا ، ثم استطرد : « عندنا مستشفى هنا » .

وقفت أتأمل عنابر الخشب الثلاثة . رائحة من العطن تفوح من جدرانها . والمرضى يجلسون كالأشباح فوق الأسرة ، وقد أزاحوا وجوههم عنا كأنهم لا يريدون أن ينظروا إلينا . أحسست بالكراهية كالرماد المشتعل تحت السطح .

وقف الطبيب الإيرانى إلى جانبى . رأيت عينيه اذادئتين تدوران حول العنبر وقد لمعت فيها نظرة غريبة كأنه عاد إلى شىء كان قد نسيه قلت :

« ما رأيك ؟ »

هز كتفيه وصمت .

خرجنا من العنبر وسرنا عبر الحديقة إلى المنزل . قال فجأة :

« لذلك كرهت الطب » .

« وأنا أيضاً » .

« وددت لو تركت المهنة » .

« وماذا تفعل ؟ »

« أرسم » .

« وما الفارق . الرسام يتعذب أيضاً » .

« إنه على الأقل لا يتاجر بالمرضى » .

حملنا الأتوبيس فوق طريق العودة . الشمس تنحدر خلف السحاب نحو الأفق مررنا أمام قرية صغيرة من الأكشاك . حول الساحة الخضراء الممتدة أمام البيوت رصت صفوف من الدكك والمقاعد فى مربع كبير . المساحة مزدحمة بالناس يجلسون فى هدوء ورزانة .

(٥)

ماليزيا : حفلة عرس ألعاب الملكة الماليزية

الرجال يرتدون قمصاناً من الحرير الأبيض وغطاء الرأس من الفرو الأسود . سألت الشاب الماليزى الذى أخذ يغمض عينيه استعداداً للنوم .

« ما هذا ؟ »

قال : « فرح » .

فكرت لحظة فى إيقاف الأتوبيس لأنضم إلى الجالسين فى الساحة ثم عدلت . يومان كاملان ونحن حول كوالالامبور . شاهدنا فندق « جنتينج » وتناولنا الطعام فى أفخر الأماكن ، واستمعنا إلى الخطب ورأينا الأشجار والمزارع ومعاصر الزيوت ، ولكن لم يفكر أحد فى أن أهم حاجة فى ماليزيا هم هؤلاء الجالسون فى الساحة بقمصانهم البيضاء يتأملون ما يدور فى جد ورزانة . لم يفكر أحد فى أن أهم شىء كان ينبغى أن نراه ونعرفه هو شعب ماليزيا .

كوالالامبور فى الليل !

فى جميع البلدان التى زرتها . . . تايلاند ، وسنغافورة ، وماليزيا ، والهند ، والباكستان تصدر أغلب الصحف والمجلات باللغة الإنجليزية . وفى الصباح الباكر من كل يوم كنت أستيقظ على حفيف الصحيفة تدفعها يد حريصة من تحت عقب الباب . وفى كل مرة كان يعاودنى شعور غامض ، خليط من الدهشة والضيق أكاد لا أحس بوجوده ، ولكنه موجود . فقراءة الصحف فى الخارج متعة حقيقية . إن كل سطر فيها يأتيك بجديد . لكن عناوين الصحف فى ماليزيا تعكس ذلك التناقض المتزايد بين قيم المجتمع التقليدى وبين مشاكل الحضارة الغربية التى تزحف بسرعة على هذه البلاد ، والتى توقع الشباب فى حيرة شديدة . وأتذكر أنه فى يوم من الأيام قرأت خمسة موضوعات على الصفحة نفسها : تحليلا لظاهرة انتشار المخدرات ، ليس بين الشباب فحسب ،

ماليزيا : رقصة بطيئة بالريش . والجد فى العيون

ولكن أيضاً بين تلاميذ المدارس من سن عشر سنوات إلى خمس عشرة سنة . وقراراً أصدرته نقابة الأطباء البشريين بضرورة منع الإعلان عن السجائر فى التليفزيون ، والإذاعة والصحف ، بسبب الأضرار الصحية الناجمة عن التدخين . وخبراً عن فصل مساعدة مولدة من وظيفتها الحكومية لاتهامها بمغازلة أحد الشبان من نافذة الطابق الثانى فى أثناء وقوفه فى فناء المستشفى . ومقالة عن المرأة العاملة ودورها فى المجتمع . وتعليق عن المسابقة التى أجريت لاختيار ملكة الجمال فى كوالالامبور ومعه عدة صور لفتيات يلبسن أحدث أنواع البيكينى ، وأصغرها . وهذه التناقضات تلمسها فى شتى نواحى الحياة .

وإذا كانت قراءة الصحف متعة وضرورة لفهم المجتمع الماليزى فإنك تشعر أنها لا تعبر فى الواقع إلا عن تلك الفئة المحدودة من الشعب التى ارتبطت حياتها بنشاط التجارة والمال فى المدن . وعن السلاطين وأتباعهم فى الريف . ومن هنا يأتى هذا التناقض الواضح بين القيم الزاحفة من الغرب وبين التقاليد المرتبطة بمجتمع زراعى يحيا فى ظل علاقات إقطاعية .

ولكن هذه الفئات ، إن كانت تحتل مكان الصدارة وتطفو على سطح الأحداث والمجتمع ، فإنها لا تمثل وجه ماليزيا الحقيقى . فإذا أردت أن تراه فلا بد من الغوص فى الأعماق ، ولا بد من أن تسير فى شوارع المدينة وأن تختلط أنفاسك بملايين الأنفاس ، ولا بد من أن تترك الحفلات الرسمية ، والملابس الرسمية ، والابتسامات الرسمية ، والحلقات الصغيرة التى تقف فى الأبهاء الفاخرة تتبادل الأحاديث المكررة وكأنها تسمعها لأول مرة ، وأن تنزل إلى حيث يحيا الناس وجوداً حقيقياً ، لا دوراً على مسرح الأحداث .

شوارع كوالالامبور أشرطة ضيقة تتفرع وتتشابك فى دورة للمرور محكمة التوزيع . وحركة العمران تمتد بسرعة لتزحف فوق التلال الخضراء ،

ماليزيا : الرسم بالألوان على القماش من الفنون التي أجادتها المرأة هناك

مئات من المنازل تمتزج خطوطها الهندسية ، وألوانها الزاهية وتتلاشى عند الأفق . وفى قلب المدينة ترتفع المبانى الحكومية الحديثة بيضاء ، نظيفة بقبابها الماليزية عند الأركان وفوق المداخل ، صروح موروثة من عهد الاحتلال البريطانى . وإلى جوارها الجوامع التى يؤمها المصلون والتى يدهشك فيها مدى العناية والنظافة التى تحاط بها .

وفى وسط المدينة تجد المحلات الكبيرة ، والمطاعم ، والمراقص ، والتحف ، والحرابر . وأجمل ما فى شوارع العاصمة تلك البواكى المصنوعة من الموزايكو التى تحميك من لفحة الحرارة ، وتحوّل مهمة الشراء إلى نزهة للتذوق الفنى .

قال لى صديقى اللبنانى :

« ألا تريد أن ترى كوالالامبور الحقيقية ؟ »

« طبعاً » .

« إذن انتظرنى فى البهو الساعة السابعة مساء اليوم » .

ركبنا سيارة يابانية صغيرة . « مازدا » . كنا أربعة : شاب ماليزى وزوجته ، وصديقى اللبنانى وأنا . مرقت بنا السيارة عبر الشوارع المضاءة بأنوار قوية كنت أتطلع من النافذة ألتقط بين الحين والحين مناظر سريعة تمر أمام عينىّ . القمر يظهر فجأة من خلف السحاب تتراقص أمامه أشجار جوز الهند الفارعة وبحيرة واسعة تنتقض وسط مياهها أضواء النافورة يرتفع رذاذها فى ظلام الليل مثل سحابة رقيقة تتبدل ألوانها .

توقفت السيارة بعد نصف ساعة تقريباً . رأيت ساحة ضخمة تحيط بها الأكشاك الخشبية ، دكاكين صغيرة حولها مئات الناس كأنهم فى مهرجان . وأمام الأكشاك رفوف طويلة وضعت فوقها البضائع : أقمشة ، وملابس ، ولعب أطفال ومصنوعات جلدية ، وتحف ، وأدوات مطبخ ، وأحذية وخواتم ، وأدوات كهربائية ، وأجهزة راديو وتيلفزيون ، وزهور ، وفواكه

ماليزيا : متعة الشراء والأطفال يتابعون حركة البيع والشراء و « الفصال »

وخضراوات ، ومشروبات ملونة فى فناطيس صغيرة من الزجاج . اخترقنا ممرًّا ضيقاً لنجد أنفسنا فيما يشبه ميداناً ضخماً اصطفت فوقه مئات من الموائد تحيط بها دكك خشبية مثبتة فى الأرضية الأسفلت. وحول الموائد شباب وشابات وأسر وأطفال وشيوخ ورجال ونساء .

على المائدة المجاورة لنا جلس اثنان رجل وعجوز وامرأته . كانا يحملقان فيما يدور حولهما ، صامتين لا يتبادلان كلمة واحدة . ترى ماذا يدور خلف هذين الوجهين الجامدين كالقناع ؟ لاحظت أن المائدة التى يجلسان إليها بها فجوة كبيرة مستديرة . بعد قليل قام أحد الشبان الذين يقومون على خدمة الزبائن بإحضار موقد ضخم يعمل بالكيروسين . أشعله فرأيت اللهب يرتفع من الفجوة فى ألسنة حمراء لتنتقض فى ظلام الليل . تبعته فتاة ترتدى « ساری » ناصع البياض ووضعت فوق الفجوة المستديرة إناء كبيراً ملأت نصفه بالماء . ثم جاءت فتاة أخرى تحمل كمية من المأكولات النيئة عبارة عن قطع من السمك . واللحم . والخضراوات ، والبقول . وضعتها على صينية كبيرة . رأيت السيدة العجوز تلتقط هذه القطع وتلقى بها الواحدة تلو الأخرى فى الماء الذى بدأ يتصاعد منه البخار . مال الرجل فوق الإناء وأخذ يتتبع عملية الطهى باهتمام شديد ، كأن أموراً خطيرة تجرى فى داخله .

التفت إلى صديقى الشاب الماليزى وسألته :

« ما هذا ؟ »

قال :

« عادة ماليزية قديمة ، ما زالت الأجيال السابقة تجد لذة خاصة فى ممارستها . المطعم يقدم الأطعمة النيئة والإناء والموقد . والناس يتولون عملية الطبخ بأنفسهم . والمسألة سهلة لأنهم يكتفون بوضع كل المأكولات بعضها مع بعض وسلقها . وعندما تنضج ، يشربون الحساء ويأكلون اللحوم والخضراوات وقطع السمك مع إضافة صلصة خاصة

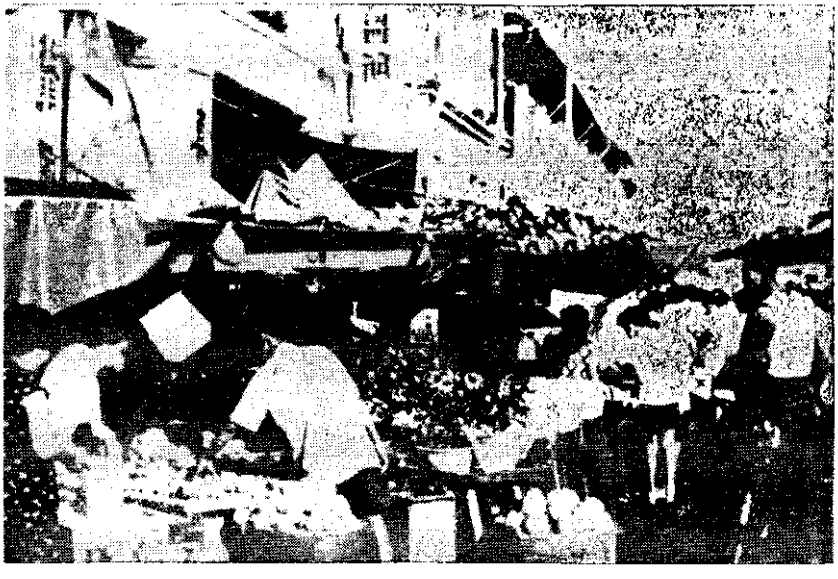

ماليزيا : الأسواق على أرصفة الشوارع

تحتوى على السكر ، والفستق ، وكمية كبيرة من الفلفل الأخضر الحراق » .

« والطعم ؟ »

« إذا أردت أن تجربه يمكننا أن نطلب منهما طبقاً » .

« لا ، وشكراً » .

عدت أتطلع إلى العجوزين يجلسان أمام الإناء ، ويتابعان صوت الماء وهو يغلى ويرفعان الغطاء كل بدوره ، ليغرسا ملعقة خشبية كبيرة يحركانها فى بطء داخل الإناء ، ويستنشقان بين الحين والآخر رائحة البخار كأنهما يستخدمان أنفيهما كمقياس لتتبع مدى إنضاج الطعام . كل شىء فيهما يبدو هادئاً وكأن الوقت يمتد أمامهما بدون حدود . كأن الدنيا وكل ما يدور فيها لا يساوى فى أهميته هذه الجلسة المطمئنة تحت السماء المفتوحة والناس يروحون ويجيئون فى حركة دائبة ، وقطع اللحم والسمك تنضج ببطء داخل الإناء . ترى ما هى السعادة ؟ السعادة أن يعيش الإنسان لحظات الحياة أن يستمتع لحظة بلحظة ، أن يحيا بكل كيانه فى الحاضر ، فى الأشياء الصغيرة . ولكن كيف ؟

قال صديقى :

« هيا بنا نختار عشاءنا » .

سرنا على الأقدام حول الساحة الواسعة ، نتوقف أمام الأكشاك . هنا الفول السودانى يضعونه فوق الصاج الساخن بدون أن ينتزعوا عنه غلافه الخارجى ، فينضج بالتدريج . فإذا ما نزعت عنه القشرة الخارجية ووضعت الحبة الملتهبة فى فمك ، وجدتها طرية تشبه فى طعمها ثمرة « أبى فروة » التى كنا نأكلها أحياناً ونحن صغار . وهنا المشروبات الباردة ، جوز الهند الأبيض المثلج أو أنواع مختلفة من عصير الفواكه زاهية الألوان ، حمراء ، وبرتقالية ، وزيتونية ، تسبح فيها قطع من اللوز ، والصنوبر ، والزبيب ، والأعشاب البحرية كالخيوط المصبوغة بلون أخضر داكن ، والفواكه المجمدة ، وهنا الدجاج المحمر يدور ببطء

ماليزيا : بائعة « الساتاى »

حول سيخ طويل تغرس أسنانه فى لحمه الأبيض ، وهنا قطع اللحم اخترقتها بوصة رفيعة ، ووضعت فوق رماد مشتعل يتكون من تراب الفحم ، فتتناول منها بوصة ، ثم أخرى ، ثم ثالثة ، تنزع عنها قطع اللحم وتكومها على طبق كبير ، يحتوى على صلصة الفستق الحمراء الحراقة . رأيت الناس يأكلونها على كل الموائد فى الساحة الكبيرة ، وعرفت من صديقى أنها الأكلة الوطنية المفضلة ، وأنهم يسمونها «الستاى» . وهنا أكوام الأرز ، تلال منسقة من الحبات البيضاء المستطيلة ، أو تلال صفراء فى لون الكركم . وهنا أنواع الحساء المختلفة ، حساء السمك ، والثعابين البحرية ، وكوارع الخنازير والبط ، وكبد الطيور . وهنا خنازير صغيرة مشوية معلقة يكسوها لون ذهبى يلمع فى ضوء الكهرباء .

جلست فى صمت . هؤلاء القوم بهدوئهم الغريب ، وأجسادهم الرشيقة ، والابتسامات الودود ، والدأب على العمل . ليس من السهل أن تفهمهم . أشعر أننى أنزلق على سطح حياتهم بدون أن أنفذ إلى الأعماق .

المؤتمر

مائدتان طويلتان فى شكل حدوة حصان تلتقيان عند الأطراف ، ودائرة واسعة من الناس تجلس حولها عشرات من النساء والرجال من مختلف البلدان . وجوه بيضاء ، وصفراء ، وسمراء ، وبرونزية . وجوه من الشرق والغرب ، هنود ، عددهم كبير ، وزعوا أنفسهم بحيث احتلوا رئاسة المؤتمر وسكرتاريته ، ورئاسة اللجان ، وحتى أعمال المقررين ، يتبادلون الكلمات وكأنها كرة يلقونها فيما بينهم عبر المائدة البيضاوية ، وفيليبينيون ينفعلون من سخونة الدماء الإسبانية التى تجرى فى عروقهم ، وإيرانيون تقاطيعهم الحادة ، وأنوفهم السامية ، وعيونهم المشتعلة تجعلهم كالصقور . وشباب من دولة بانجلاديش الوليدة ، تحس فيهم حماس الجديد الذى يعيش فى الأمل . ويابانيون يكتبون ويسجلون طوال الوقت

ماليزيا : فتاة تتلو القرآن

كالآلات الصماء ، الفعالة والمخيفة فى الوقت نفسه ، وإنجليز وأمريكان بشرتهم حمراء ، وكلماتهم وحركاتهم مدروسة وكأنهم يقولون لك : « ما زلنا نحن الأسياد » .

خليط متضارب متناقض ، ومتناهم فى الوقت نفسه ، يرسم صورة غريبة لقضية التكاثر البشرى وضرورة العمل بسرعة للحيلولة دون كارثة محققة. فإذا ما استمر النمو السكانى على ما هو عليه فسيصبح عدد سكان العالم عند آخر القرن ستة بلايين بدلا من ثلاثة ونصف . لن يجد الناس غذاءهم ، ولن يجد الأطفال لبنهم . ولن يجد الشباب أرضاً يحرثونها ، أو مصنعاً يعملون فيه ، ولن يجد المرضى علاجاً لآلامهم . صورة للبشرية تأكل بعضها .

لا بد إذن من حل . وليس هناك سبيل سوى أن تقتنع شعوب البلاد النامية حيث يتركز الانفجار السكانى فى أشد صورة بضرورة تحديد النسل .

وهناك أصوات أخرى قليلة ، ولكنها موجودة تعارض وتحتج . مشكلة التزايد السكانى خطيرة . ولكنها مشكلة تقدم . مشكلة تصنيع ، وتحضر ، وتعليم ، وفرص للعمل ليس للرجال وحدهم ولكن أيضاً للنساء . والدليل على ذلك أن بلاد العالم المتقدمة الصناعية لا تعانى من النمو السكانى السريع ؛ وجنوح الناس لتكوين الأسر الكبيرة يرتبط أساساً بأساليب الزراعة التقليدية ، وما يصاحبها من احتياج إلى اليد العاملة . ومن اتجاهات قبلية ، ومن قلة طموح فى الحياة ، ومن أمية . فإذا أردنا أن نغير فى سلوك الناس فلا بد من تغيير ظروفهم . المسألة ليست فقط إقناع الناس بضرورة تنظيم الأسرة ، ولكن أيضاً وربما قبل ذلك توزيع ثروات العالم بالعدل وإعطاء فرص التقدم للجميع ، ونشر الآلة والتعليم ، والمعرفة فى كل مكان ، والقضاء على كل صور الاستغلال الاستعمارى التى تمارسه الدول الإمبريالية فى الغرب .

وتحتدم المناقشة . فهنا فى هذه الحجرة المغلقة على خمسين أو ستين من المندوبين يجلس ممثلو المناطق الصناعية فى ٢٩ بلداً من بلاد آسيا . ممثلو وزارات القوى العاملة والصناعة ، وهيئات التأمين الاجتماعى ، وأطباء المصانع ، وأصحاب المصانع وأيضاً مندوبو النقابات العمالية . فالعاملون فى الصناعة هم أكثر الناس استعداداً لتقبل الفكرة وممارستها . إن ظروف حياتهم قد تغيرت أو هى فى سبيلها إلى التغير . فلم يعد الطفل مورد رزق ، وإنما إنسان صغير ينبغى أن يأكل ، ويلبس ويتعلم . وحياة المدن توسع آفاق الإنسان وتخلق عنده احتياجات جديدة وتطلعاً إلى حياة أفضل والآلة تجمع الناس فى مكان واحد يسهل الوصول إليه ، وتحرر الإنسان من التواكل ومن الخرافات . لذلك فإن العمال يمكن أن يكونوا أكثر الناس وعياً بهذه المشكلة ، وإحساساً بها ، واقتناعاً بكل فكرة جديدة تفيد حياة البشر .

وأصحاب المصانع يريدون الاستقرار فى الإنتاج . والعامل الذى يعانى كثرة الأطفال كثيراً ما يعكس هذه المشكلة فى عمله . ولذلك يدفع كبار الاحتكاريين فى مصانع الهند ، ومزارع الشاى ، الحوافز المالية للأسر التى تقلل من إنجابها .

والعمال يحتدون : « أيها الرأسماليون . لماذا هذا الحماس لتنظيم الأسرة ارفعوا مستوى معيشة العامل ، وارفعوا الأجور . وأعطوا الناس فرصاً كاملة للتعليم وعندئذ يمكن أن يستمعوا إلى دعوتكم لأنهم عندئذ سيقتنعون بها ويفهمونها » . لا بد من أن يتغير المجتمع بحيث يعمل لا الرجال فقط ، ولكن النصف العاطل من المجتمع ، الذى لا وظيفة له فى الحياة سوى إنجاب الأطفال . . . النساء .

ولكن شأن كل مؤتمر لا بد من الوصول إلى اتفاق . التطور الاقتصادى والاجتماعى مهم ، ولكن فرص هذا التطور ترتبط أيضاً بعدد الناس ، وكلما زاد الناس فى البلاد التى ما زالت تبنى اقتصادها ، صعب

ماليزيا : فتاة تعمل على النول

توفير العمل ، والمدارس ، والمواصلات ، والغذاء ، والأدوية ، والكتب ، والمسارح . إذن لا بد من تخفيض سرعة النمو السكانى ، ولا بد لكل أسرة من أن تنجب الطفل عندما تستطيع أن تقدم له فرص الحياة . ولا بد أن تكون ولادة الطفل مسألة لا تأتى بالمصادفة ، وإنما بالاتفاق بين الزوجين. هكذا يمتد تحكم الإنسان فى حياته إلى مجال جديد . يضاف إلى مجالات أخرى ، يمتد إلى ولادة الطفل ، وإلى عدد الأطفال ، وهكذا تسمح وسائل منع الحمل بأن يمارس الزوجان حياتهما الجنسية الطبيعية بدون أن يتهددهما شبح طفل لا يستطيعان تحمل احتياجاته المشروعة كإنسان يولد ، وينبغى أن يعيش حياة الإنسان .

عشرة أيام من المناقشات قضاها ستون رجلا وامرأة فى هذه القضية الهامة . وإذا كانت مثل هذه المؤتمرات تتفاوت من حيث ثمارها وفوائدها فإنها تشعرك دائماً بحقيقة هامة وأساسية ، بالتقارب المتزايد بين البشر فى كل أنحاء العالم ، مما يعطى أملا متجدداً فى أن مشاكل الإنسانية ستحل الواحدة بعد الأخرى .

أسوار تتحطم

تطلعت إلى الفتاة السمراء الجالسة خلف المكتب بشىء من الضيق ، ودفعت فنجان القهوة بالبن ، وطبقاً من الفطائر جانباً بأصابع متوترة .

« حضرت مبكراً » .

« اللافتة تقول : " ساعات العمل من الثامنة صباحاً " والساعة الآن الثامنة وعشر دقائق » .

حملقت فى وجهى بعينين كالخرز الأسود وسكتت ، جلست على مقعد بجوارها وقلت :

« أهنا مكتب السفر التابع لهيئة العمل الدولية ؟ »

« نعم » .

« اتصلت بكم من أسبوع لأطلب الحجز على طائرة لنيودلهى » .
« ما اسمك » .
« د . شريف حتاتة » .
أخذت تقلب فى دفتر كبير أمامها ، وقالت :
« لا توجد أماكن قبل يوم الاثنين القادم » .
« المؤتمر ينتهى الخميس . ماذا أفعل هنا حتى يوم الاثنين » ؟
هزت كتفيها المكتنزتين وابتسمت بشىء من الخبث :
« هناك وسائل تسلية كثيرة فى كوالالامبور » .
فكرت لحظة ثم قلت :
« أعطينى جداول الطائرات من فضلك » .
دفعت بكتاب ضخم عبر المكتب وعادت تحتسى القهوة ، وتقضم قطعاً من الفطير .
أخذت أقلب فى الكتاب حتى اهتديت إلى الصفحة التى كنت أريدها . لمحت فى جدول يوم الخميس « طائرة إسيو ٥٠١ الساعة الساعة ١٧,٣٠ سألتها :
« ما هذا ؟ »
قالت :
« هذه طائرة سوفيتية » .
« أليست طائرة » ؟
سكتت لحظة ثم سألت :
« ألن يؤاخذوك فى بلادك إذا ما ركبت طائرة سوفيتية ؟ »
نظرت إليها فى دهشة :
« طبعاً لا . ولكن اسمحى لى أن أسألك أنا سؤالا . هل هيئة العمل الدولية وهى إحدى الهيئات التابعة للأمم المتحدة تقاطع الطائرات السوفيتية ؟ »

هزت كتفيها مرة أخرى بعدم اكتراث .

رفعت سماعة التليفون وأدارت القرص . سحبت مقعدى بعيداً أنتظر . بعد قليل أومأت إلى برأسها ، وقالت :

« حجزنا لك مكاناً على الطائرة إسيو ٥٠١ التى تقلع غداً يوم الخميس الساعة ١٧.٣٠ مساء من مطار كوالالامبور إلى نيودلى . مر على بعد ساعة ستكون التذكرة جاهزة .

جلست فى بهو الفندق أقلب صحف الصباح . لفت نظرى أحد العناوين المنشورة على الصفحة الأولى .

« الحكومة تبيح السفر إلى البلاد الشيوعية » « ابتداء من يوم السبت القادم الموافق . . . سيسمح للذين يرغبون فى السفر إلى البلاد الشيوعية بالحصول على تصريح لذلك . وسيكون عليهم أن يملأوا استمارة خاصة فيها بيانات تفصيلية عن أغراض السفر ، والجهات والأشخاص الذين سيتصلون بهم ومعلومات أخرى . ولا يسرى هذا القرار على الصين الشيوعية » .

حوار فوق السحب

سيارة اتحاد نقابات العمال فى ماليزيا تسرع بنا فى اتجاه المطار الأحاديث والضحكات المرحة تختلط بالصوت المنتظم للمحرك يذهب الطريق . هنا تسود البساطة ، بساطة فى الكلمات ، وفى الملابس ، وفى التصرفات ، وفى تلك العناية الطبيعية والصادقة التى تشعر أنك محاط بها من هؤلاء الرجال أصحاب الملامح المنحوتة ، والأيدى الخشنة . الرجل الذى يجلس إلى جوارى كان فى المستطاع أن يكون عاملا مصريًّا ، ابن بلد من بولاق . أو من السيدة لولا اللغة الإنجليزية التى كان يتحدث بها .

قال محدثى :

« أنا مسلم من عمال السكة الحديد » .

« هل زرت مصر » .

« لا ، زرت إسرائيل بدعوة من الهستادروت . ولذلك لا أستطيع أن أزور مصر برغم أنني مشتاق إلى رؤيتها . وأشعر أن علاقتنا كان يجب أن تكون مع نقابات العمال فى مصر » .

« أنتم منضمون إلى الاتحاد العالمى الحر أليس كذلك » .

« ولكن هذا الاتحاد واقع تحت نفوذ النقابات الأمريكية والإنجليزية. وكثيراً ما يخدم أهداف السياسة الاستعمارية » .

« ولكن هناك نقابات ارتبطت لأسباب تاريخية . وأصبحت صلاتها به قوية ولن ينتهى هذا الوضع بسهولة . فمثلا هنا فى ماليزيا أية محاولة لخلق صلات مع الاتحاد العالمى للنقابات الذى يضم النقابات فى البلاد الشيوعية لا بد أن تؤدى إلى مشاكل مع الحكومة . وربما إلى حل نقاباتنا . إننا نشعر أن عمال مصر أشقاء لنا . وإذا لم يتصلوا بنا فإننا لن نسمع سوى جانب إسرائيل » .

وقفت السيارة أمام باب المطار. أصر أن يحمل عنى الحقيبة . كان معى فى هذه السفرة اثنان من الهند . عمال أيضاً . أحدهما سكرتير المؤتمر العام للنقابات الهندية . وهو التنظيم الذى يعتبر فى يسار الحركة النقابية ، والآخر عضو المجلس التنفيذى لاتحاد نقابات الهند وهو التنظيم النقابى المرتبط بحزب المؤتمر الهندى . وقد علمت فيما بعد أنه عضو فى البرلمان الهندى ، ومن أسرة وزير الصحة الهندية فى الحكومة المركزية . كنا قد اتفقنا على حجز مقاعد متجاورة حتى نتحدث فى أثناء الرحلة . ونتسلى معاً .

دلفنا إلى صالة الانتظار الخاصة بالمسافرين بعد تبادل العناق ، والتأكيدات المتبادلة بضرورة إرسال الرسائل .

الطائرة فسيحة والمقاعد واسعة وبين الصفوف مكان واسع لمد ساقيك . لونها من الداخل عاجى والمقاعد والستائر زرقاء . شىء ما يوحى بالبساطة ، ونوع من الجو الأسرى ، ربما قليل من الفوضى ، والمضيفات

اللائى تميل أجسامهن إلى البدانة ، يشبهن الفتيات التى تراهن فى السينما يعملن فى الخوخوزات . ودورة المياه متقشفة خالية من زجاجات العطور ، والكولونيا ، والشامبو ، وفرش الأسنان وأنابيب المعجون الصغيرة . وعلى الأرض فرشاة خشنة كتلك التى تستخدم فى البيوت المصرية لدعك البلاط .

سكرتير المؤتمر العام للنقابات الهندية رجل قصير القامة ، نحيل الجسد ، تشتعل عيناه الواسعتان الرماديتان تحت جبهته البارزة ببريق نفاذ . كنت قد لاحظته فى أثناء المؤتمر ، رجل يميل إلى الصمت ، يجلس هادئاً ولا يتدخل فى المناقشات إلا بين الحين والحين ، عندما تثار قضية يرى فيها مساساً بحقوق العمال ، أو محاولة لتجاهل المشاكل المتعلقة بالتنمية الصناعية .

كانت الساعة قد تعدت الواحدة بعد منتصف الليل عند ما انطلقت الطائرة فى سباقها الجنونى بين صفين من الأنوار ، تراهما العين عبر النوافذ الصغيرة كخطين متصلين على أرض المطار . بعد خمس دقائق وضعت المضيفة صوانى الأكل الصغيرة أمامنا . تناول جارى الصامت تفاحة كبيرة حمراء وأخذ يقشرها بحركات بطيئة متأنية ، ثم قسمها إلى أربع قطع ، مضغها الواحدة تلو الأخرى ، وكأنه يقوم بعملية مهمة تحتاج إلى تركيز الذهن والى عناية . عندما انتهى من التفاحة غطى الصينية بفوطة من الورق ، وتوقف عن الأكل . سألته لماذا لا يأكل فأوضح لى أنه نباتى ولا يستطيع أن يأكل لحوم المواشى ، أو الدواجن ، أو الأسماك ، أو أى غذاء تدخل فيه المنتجات الحيوانية مثل اللبن أو البيض ، أو الجبن . كان ينظر إلى بملء عينيه الواسعتين الرماديتين ، ويجيب عن أسئلتى فى نبرات منخفضة مضغوطة أكاد لا أسمعها . عرفت أنه كان يعمل موظفاً فى السكة الحديد ، وانضم للحركة النقابية منذ أن كان شابا ثم بالتدريج أخذ يقف جهوداً متزايدة للمعارك النقابية إلى أن تفرغ تماماً قبل أن

يتجاوز الثلاثين سنة . وارتقى فى مسئولياته إلى أن أصبح سكرتيراً عاماً لمؤتمر نقابات كل الهند. كان أمامنا ما يقرب من خمس ساعات من الطيران المتصل قبل أن نصل إلى نيودلهى ، وإزاء استعداده الواضح لقضاء الوقت فى تبادل الأحاديث انتهزت الفرصة لكى أوسع نطاق معلوماتى عن الهند .

« المشكلة السكانية عندنا قضية تؤرقنا جميعاً. ولكننا نرفض كل تلك النظريات التى تريد أن تصورها كأساس للتخلف ، وللمصاعب التى تعانى منها الهند والتى ترسم صورة مظلمة للمستقبل ، وللكوارث ، والمجاعات التى تهدد البشرية . تعال نعرض الحقائق . الفلاحون لا يجدون الخبز فى بلادنا. ونجد أمريكا تخزن القمح حتى لا ينخفض سعره فى السوق ، وتدفع تعويضات مالية باهظة لملاك الأراضى حتى يبوروا جزءاً من أرضهم بدلا من زراعتها بالقمح . وأطنان السمك يلقى بها إلى البحر وشعب الهند ، وشعوب أخرى تعانى من نقص شديد فى المواد البروتينية فى غذائها ، وهذه المواد أساسية لبناء الجسم ، أو إحلال أنسجة جديدة محل تلك التى تستهلك مع الزمن . يقولون إن هناك مشكلة انفجار سكانى فى العالم ، ولكنك تعلم بالطبع أنه حينما تنمو موارد العالم بمقدار ٤٪ أو ٥٪ سنوياً يزيد عدد السكان فى المتوسط سنوياً بنسبة ١,٩٪ فقط . إنها ليست مشكلة سكانية بالمعنى الذى يحاولون ترويجه . إنها أساساً مشكلة سوء توزيع للثروات : مشكلة المبالغ الطائلة التى تصرف على الحرب ، مشكلة إحجام البلاد المتقدمة فى الغرب عن تقديم مساعدات غير مشروطة للبلاد النامية ، مشكلة استنزاف البلاد الفقيرة عن طريق التجارة غير المتكافئة . إنها مشكلة الاستعمار الجديد الذى يحتكر المال والعلم ، على حين نستطيع نحن ، إذا توافرت لنا المساعدات المالية والعلمية ، أن نقيم المصانع ، وأن نزرع الصحارى ، وأن نستخرج غذاءنا من سطح البحر ومن قاعه » .

كانت عيناه تلمعان فى ضوء الطائرة الخافت ، ورأيت أصابعه الرفيعة تقبض بعصبية على ذراعه كأن شيئاً يؤلمه . قلت له :

« هل هنالك شىء يؤلمك » .

« ذراعى هذه .. عندما تنخفض درجة الحرارة تنتابنى آلام الروماتزم. داء حملته معى من بلاط السجن وجدرانه . لكن لا تنزعج لقد تعودتها. ولم تعد تقلقنى كثيراً . لنستمر فى الحديث » .

« ماذا تفعلون إذن فى تنظيم الأسرة بين العمال ؟ » .

« إنهم حذرون من الدعوة إليها . ويخافون من استخدامها كوسيلة لصرفهم عن نضالهم فى سبيل العدالة الاجتماعية والحرية . ولكن بالتدريج أخذوا يدركون أنه لا تعارض بين الاثنين . ولذلك أخذت النقابات تعطى اهتماماً متزايداً للمشكلة . وفى كل مصنع كبير نحاول أن ننشئ لجنة صغيرة فيها ممثلون للإدارة العليا . والنقابات . والإخصائيون والاجتماعيون. والطبيب والممرضة . وشئون الأفراد والعلاقات الصناعية . وفى رأينا أن الدعوة لتنظيم الأسرة ينبغى أن تصبح جزءاً أساسيًّا من الخدمات الأخرى . فيمكن إدخال الحوافز لعدم الإنجاب كجزء أساسى من التأمينات الاجتماعية . وربط الخدمات بتنظيم الأسرة مع رعاية الأم العاملة وأطفالها. ومع التوسع فى حضانات الأطفال الضرورية فى حياة المرأة العاملة ؛ وإدخال الدعوة لتنظيم الأسرة فى مجلات الحائط . والمجلات النقابية . وكجزء من الثقافة العامة التى تقدّم للعمال فى أثناء التدريب الوظيفى والمهنى . وفى دروس محو الأمية التى تنظم للذين حرموا نعمة القراءة والكتابة وعند الاحتفال بالمناسبات الخاصة مثل عيد الطفولة أو الأمومة . ينبغى أن نوضح كيف أن تنظيم الأسرة جزء أساسى من الجهد العام لتوفير الصحة ، والثقافة ، وفرص الحياة للمرأة وللأطفال ومساهمة مهمة فى رفاهية الأسرة وفى السعادة الزوجية ، وشرط لا بد منه لكى يستقر العامل وترتفع قدرته على الانتاج بكفاية أكبر » .

« ولكن هل تعتقد أن هذه الجهود كافية لحل مشكلة التزايد السكانى السريع فى بلادكم » ؟ .

« لا . . . لا . . . إنها لن تؤثر إلا على تلك الفئات من الشعب التى تأثرت بأنماط من الحياة الحضارية . وهم العاملون فى الصناعة ، والمثقفون . والموظفون . والمتعلمون عموماً سواء فى الريف أو فى المدينة . ولكن أغلب سكان الريف . وسكان المدن فى الأحياء الشعبية . أولئك الذين يعملون فى الحرف ، والمتاجر الصغيرة . أو الباعة الجائلين . وذوى المهن المؤقتة أو غير المحددة . . . هم المشكلة . ولا يمكن أن يتغير سلوكهم فى الحياة . ومعها نظرتهم لإنجاب الأطفال إلا إذا تغيرت حياتهم . بدخول التصنيع على نطاق واسع . وميكنة الريف . وتشغيل المرأة والتعليم . أنت تعلم أن الهند مقسمة إلى ولايات وأن عدد سكان هذه الولايات كبير . يصل أحياناً إلى تسعين أو مائة مليون . وقد اتضح أن الدعوة لتنظيم الأسرة نجحت نسبيا فى " البنجاب " لأن هذه الولاية شهدت . فى العشرين سنة الماضية . حركة تصنيع وميكنة متزايدة للريف . ولم تعد الزراعة فى حاجة إلى الأيدى البشرية بالقدر نفسه ، مما دفع الفلاح البنجابى إلى البحث عن وسائل لتحديد أسرته . كما أن إدخال الأساليب الحديثة فى الزراعة يؤدى إلى زيادة الدخل ورفع مستوى معيشة الفلاح . وانتشار التعليم » .

« هل لديك أمثلة أخرى عن أثر الظروف الاقتصادية والاجتماعية فى تحديد حجم الأسرة ؟ »

« نعم هناك مثل آخر جدير بالتأمل . عندنا ولاية اسمها " كيرالا " ربما سمعتم عنها فى مصر لأنها كانت مسرحاً لأحداث سياسية هامة منذ الاستقلال وعلى الأخص نتيجة لنفوذ الاتجاهات الاشتراكية الثورية فيها . كان النظام القبلى سائداً فى " كيرالا " خلال مئات السنين ، ولكن الغريب فى الأمر أنه كان نظاماً قبليا أمومياً ، أى أن رئيس القبيلة

كانت امرأة ، وكذلك رئيس الأسرة ، وعندما دخلت "كيرالا" فى مرحلة اضمحلال النظم القبلية ، وانتقلت إلى نظم أكثر تقدماً ، احتفظت المرأة بمكانتها المتميزة فى المجتمع كاستمرار لنظام الماضى وتقاليده . ولذلك تجد نسبة كبيرة من البنات والنساء المتعلمات فى "كيرالا" كما أن عدداً كبيراً منهن يعملن كجزء أساسى من القوة العاملة النشيطة فى الصناعة ، والتجارة ، والزراعة ، والمهن والوظائف المختلفة . وللمرأة مكانة كبيرة فى الحياة العامة والخاصة ، وتتمتع بكيان مستقل عن الرجل ، لا ينازعها فيه إلا عدد ضئيل جداً من العقول المتخلفة . وفى هذه الولاية تجد الدعوة لتنظيم الأسرة آذاناً صاغية .

« وبهذه المناسبة هناك حقيقة هامة . فى جمهورية الصين الشعبية حدثت محاولتان لإقامة برنامج قومى ناجح لتنظيم الأسرة . المحاولة الأولى كانت فى سنة ١٩٥٨ وقد أخفقت . أما المحاولة الثانية فبدأت منذ حوالى خمس سنوات وقد لاقت نجاحاً منقطع النظير . وهذا النجاح له أسباب كثيرة بالطبع : تجاوب الشعب مع قياداته ، والتمسك بالمبادئ والسياسة التى اختاروها لأنفسهم وفعالية التنظيمات الشعبية .

« ولكن عندما سألت المسئولين هناك عن أهم أسباب النجاح الذى يحققه برنامج تنظيم الأسرة الآن قالوا إن السبب الرئيسى هو خروج كل النساء تقريباً من البيت ، ودخولهن ميدان العمل . فالمرأة العاملة تقدر أعباء الإنجاب ومسئولياته ، وتسعى إلى تنظيم أسرتها » .

« إذن لا يمكن أن يحقق تنظيم الأسرة نتائج سريعة ؟ »

« هذا صحيح وربما لهذا السبب تصرح الحكومات بضرورة الاهتمام به ، ولكن نادراً ما يترجم هذا الاهتمام إلى سياسة فعلية تضع فى خدمتها الجهود ، والاعتمادات والقوة البشرية المطلوبة . ذلك أن المشاكل الاقتصادية والسياسية العاجلة تستحوذ على اهتمامها ، وجهودها الأساسية . ولكن هذا خطأ كبير . ذلك أن أية خطة لا يمكن أن تنجح إلا إذا بنيت

على دراسة لحجم السكان المحتمل فى المستقبل وتوزيعهم من حيث العمر ، وعدد أطفال المدارس الذين سيدخلون المدارس والمعاهد والجامعات ، وعدد الشباب الذين سيبحثون عن عمل لهم . كل هذا جزء أساسى من التخطيط للتنمية وعليه يتوقف إلى درجة كبيرة الإخفاق أو النجاح فى تحقيق أهداف التنمية . وينبغى أن ندرك أنه فيما يتعلق بتنظيم الأسرة فإن كل طفل يمكن الحيلولة دون ولادته هو قدر من المال يتوافر للاستثمار فى الإنتاج ، أو فى الخدمات . هل قمتم بحساب هذا الوفر عندكم ؟ »

« نعم . لقد قدر عندنا أن منع ولادة طفل واحد يوفر على الدولة أربعة آلاف جنيه » .

أحسست بالضائرة تهبط . ذلك الشعور الغريب الذى يبدو معه وكأن القلب يسقط فجأة إلى أسفل ،

قلت له :

« لم نتحدث فى السياسة » .

ابتسم وقال :

« فى نيودلهى سنتحدث فى السياسة » .

أيام فى الهند

كل شىء هنا يشعرك بكآبة الفقر . ببصمات الاستعمار . ولكنه يشعرك أيضاً بالذين يكافحون فى سبيل حياة أخرى . صالات الاستقبال فى المطار ضيقة والناس ينامون مرهقين على دكك من الجلد . والكبار والأطفال ملابسهم تبدو عليها الحاجة والعوز . أو تجدها ممزقة كاشفة عن الجلد الأسمر تحتها . والروتين مستحكم فى إجراءات جواز السفر ، وتفتيش الحقائب ، وتسجيل العملة الأجنبية التى تحملها معك ولكنك لا تضيق بها لأنها تشعرك بالذين يجاهدون لحماية أنفسهم من أعداء أقوياء لا يرحمون . والتاكسى الذى ركبناه نحن الثلاثة من صنع الهند ، وإن كان اسمه الإنجليزى « إمباسادور » يحمل طعم الماضى ورائحته .

فى الهند منعت الحكومة استيراد السيارات من الخارج ، وأصبحت تعتمد تماماً على الصناعة المحلية . ولذلك فالسيارات والتكسيات ليست فارعة الطول . ولا لامعة ، ولا وجيهة ، وإنما صغيرة عملية تحمل الناس إلى كل مكان لكى يواصلوا أعمالهم وقضاء حاجتهم . وتشعرك بزحف البساطة على الأبهة الموروثة من عهد المهراجات والإقطاع ، وبانتصارات العمل بالتدريج على المظاهر الجوفاء والكاذبة التى تستنزف الدخل ، ولا تطعم الأفواه .

استودعت رفيقى فى السفر عند باب الفندق . مبنى يشبه «قشلاقات» الجند . أبهاؤه مظلمة طويلة . تحس أن البلاط الخشن تحت قدميك لا ينظف إلا نادراً . صعدت إلى حجرتى . الفراش الذى حمل عنى حقائبى رجل ذو وجه مدبب يرتدى عمامة « الشيخ » . كان يؤدى التحية العسكرية كلما تحدثت إليه ، وكأنه قضى جزءاً كبيراً من حياته فى

الهند : أنديرا غاندى

الجيش . وضع الحقائب فى أحد الأركان ثم وقف داخل الباب ، يدور بعينيه الصغيرتين الذكيتين حول الجدران كأنه ينتظر أوامر أخرى . بحثت فى جيوبى عن النقود وأعطيته نصف روبية . فانصرف مؤدياً التحية العسكرية مرة أخرى .

الحجرة ضيقة بها سرير من خشب ومنضدة صغيرة ومقعد اتسخت مساند من كثرة الاستعمال . وإلى جوار الباب تسريحة قديمة ، ومرآة تجعل وجهك غير مألوف عندما تنظر إليه . من السقف تدلت مروحة ضخمة ، وتحت النافذة المطلة على منور ضيق جهاز تكييف يئن بضجيج متصل . فى الحجرة باب داخلى يقود على اليسار إلى ملحق صغير انتصب فيه دولاب من الخشب وتسريحة أخرى ، وعلى اليمين إلى الحمام . تحت سخاناً كهربائياً ضخماً وعتيقاً يشبه الغلايات البخارية فأعددت نفسى ذهنياً لحمام لذيذ ينفض عنى إرهاق السفر ، وغبار الطريق من المطار .

بحثت عن عود ثقاب فلم أجده . رفعت سماعة التليفون وأدرت الرقم حسب التعليمات المكتوبة على ورقة صغيرة وضعت تحت زجاج الكومودينو المشروخ . دق الجرس برنين متصل دون أن يرد أحد . حاولت من جديد . بعد المحاولة الثالثة رد صوت ينطق كلمات إنجليزية غير مفهومة .

طلبت علبة ثقاب . فأغلق الخط بدون أن أدرك إن كان محدثى قد فهم شيئاً . انتظرت قرابة ربع ساعة ، ولكن أحداً لم يحضر . أدرت الرقم مرة أخرى بشىء من العصبية . رد على الصوت نفسه بالكلمات نفسها غير المفهومة . شرحت مطلبى فى نبرات ارتفعت حدتها . وضعت السماعة وانتظرت . بعد قليل فتح الباب بدون إنذار سابق لأجد أمامى شاباً قصير القامة تدلت شعوره الناعمة فوق وجهه الأسمر كأنه استيقظ من النوم منذ لحظات . كان يرتدى بدلة بيضاء متسخة وصندلا . مد يده

بعلبة الثقاب ثم وقف يدور بعينيه نصف المغلقتين على الجدران ، كالذى يبحث عن شىء تعود أن يراه ولم يعد موجوداً. نظرت إليه متسائلا فقال بكلمات إنجليزية التقطت معناها بصعوبة :

« عشرون بايسة » (الروبية تساوى مائة بايسة) .

« لماذا ؟ »

« ثمن علبة الكبريت » .

فوجئت بالإجابة فى كل الفنادق كانوا يضعون علبة من الثقاب بجوار السرير . أعطيته المبلغ فتناوله من يدى ثم وقف ينتظر وهو يحملق فى وجهى بنظرة بلهاء . أحسست برغبة شديدة فى أن أطرده . ولكننى تمالكت نفسى وقلت :

« ماذا تنتظر ؟ »

تلكأ قليلا ثم قال :

« أتريد شيئاً آخر ؟ »

« لا وشكراً » .

خرج وأغلق الباب وراءه بشىء من العنف . وضعت المفتاح الطويل العتيق فى الثقب . بعد عدة محاولات انزلق اللسان مع المفتاح . تذكرت الإعلان المكتوب على نافذة الحجرة فى فندق « أكواتوريال » الفاخرة « لا تفتح النافذة . فى أثناء النوم حفظاً على حياتك » . كنت قد لاحظته ساعة وصولى . ولما سألت الفراش الصينى المبتسم الذى حمل حقائبى عن دواعى هذا الاحتياط هز كتفيه وقال : « العصابات فى سنغافورة كثيرة وخطرة » .

توجهت إلى الحمام وحاولت تشغيل السخان الكهربائى بدون جدوى. خلعت ملابسى وتركت المياه الباردة ترطب حرارة الجو الخانق الذى

شعرت به منذ لحظة النزول من الطائرة . ارتديت ملابس النوم وأسقطت نفسى على السرير .

إلى جوارى كان صوت جهاز التكييف يرتفع فى ضجيج متصل . بعد قليل شعرت برائحة نفاذة تتسرب إلى أننى من مكان ما فى الحجرة ، رائحة أحسست أننى أعرفها جيداً ، شىء يشبه فضلات القطط والفيران .

هكذا قضيت أول ليلة فى نيودلهى . أستنشق روائح الماضى البعيد والقريب فى آن واحد . وأنا أمد جسدى المتعب فوق السرير الخشبى فى الحجرة رقم ٣٦٩ بفندق « جان بات » .

* * *

كانت ساعة الفندق تشير إلى السادسة والنصف . خرجت من الباب الرئيسى إلى الشارع . كنت قد قررت أن أمشى حتى المكتب الهندى لهيئة العمل الدولية فى سردار باتيل مارج (وكلمة مارج هذه تعنى شارع) لم أكن بعد قد أدركت أن مدينة نيودلهى الجديدة مبنية على مساحات شاسعة . فالشوارع عريضة تمتد مسافات طويلة ، تتخللها الحدائق الكبيرة ، والخضرة ، والأشجار فى كل مكان . البيوت أغلبها منخفضة مبنية من طابق أو طابقين لونها أبيض أو أحمر . وهذه الألوان المميزة بالإضافة إلى ضخامة البناء المعمارى ، وعلو الأسقف ، وكبر حجم الحجر ، والأشجار العالية تعطى المدينة طابعاً خاصًّا ورثته من أيام الإنجليز .

فى هذه الساعة المبكرة من الصباح كانت الشوارع خالية تقريباً من المارة ما عدا قليلا من الناس يذهبون إلى عملهم فوق الدراجات . فالدراجات فى بلاد آسيا وسيلة شائعة للانتقال . أمام فندق « إمبريال » لمحت عدداً كبيراً من سيارات الأجرة لونها أصفر ، وصفوفاً من الأسرة

مصنوعة من الجريد مرصوصة فوق الرصيف العريض ، وعلى الأسرة أجسام نائمة بدون غطاء ، أو ملفوفة فى رداء يشبه « حرمل » من الصوف الخشن المصبوغ بلون داكن أو أسود . ورجالا يجلسون فى مجموعات صغيرة يتحدثون . أو يمشطون شعورهم الطويلة كالحرير الأسود . ويلفونها فى كومة عالية تحت العمامة . أو يقومون ليغتسلوا تحت المياه المتدفقة من صنبور كبير أقيم تحت كشك خشبى نصف مفتوح .

هؤلاء هم سائقو التاكسى . كلهم من « السيخ » . والسيخ قبائل محاربة عرفت بشجاعتها وقدرتها على التحمل . إنهم أتراك الهند . تجدهم منتشرين فى كل مكان يقومون بالأعمال الشاقة ، ويعملون فى الفنادق حراساً . وسائقين لسيارات النقل والأجرة . وفى البريد والسكك الحديدية والأعمال التجارية . وهم جميعاً ذوو لحى سوداء يرتدون عمامة بيضاء أو سوداء أو حمراء مثبتة تحت ذقونهم بحزام من المطاط أو القماش ولا يقصون شعورهم أبداً بل يتركونها تنمو ويلفونها تحت العمامة . وسائقو التاكسى ينامون هكذا فى العراء تحت السماء ، فوق أسرة من الجريد يتركونها فى أماكن محددة فى أثناء النهار ليعودوا إليها عند انتهاء العمل . رجال أشداء تحس فيهم الجلد . والهدوء والطيبة .

والجو الحار الرطب فى الهند يسهل قضاء الليل فى العراء . والفقر يدفع الناس إلى افتراش الأرض تحت السماء . والهند بلد الملايين الذين ينامون فى شوارع المدينة وميادينها وحدائقها وفى الحقول الممتدة آلاف الكيلومترات يهربون منها فقط عندما تنهمر الأمطار فى سيول لا تنقطع .

سرت عبر الشارع المسمى « جان بات مارج » متجهاً إلى « كونوت بلايس » (أى ميدان كونوت) . وكثير من الشوارع والأماكن ما زالت تحتفظ بأسمائها الإنجليزية . وجدت نفسى أحملق فى ميدان ضخم تكاد العين لا ترى حدوده ، تتوسطه حديقة تمتد مساحات شاسعة والميدان بيضاوى الشكل ترتفع منه النافورات العالية . وفى الليل

تضاء بالمصابيح والكشافات الملونة فينطلق الرذاذ فى أقواس تشق ظلام الليل كسيمفونية من الألوان الرقيقة. كاللوحة المرسومة بأصابع « الباستيل ». وحول الميدان العملاق شارعان متوازيان ، حلقة داخلية وأخرى خارجية . وإذا أردت أن تسير المسافة حول الميدان على الأقدام فلا أقل من ثلاثة أرباع ساعة بالخطوة السريعة .

ولكن فى ذلك الصباح عندما وجدت نفسى أصعب من الشارع داخل الميدان فوجئت بالحديقة الخضراء مغطاة بمئات من الأجسام . رجال ما زالوا ينامون ووجوههم للسماء وآخرون لفوا حول أجسامهم نصف دائرة كالجنين فى بطن أمه كأنهم يحاولون حماية أنفسهم من أحلام مزعجة . ورجال يجلسون القرفصاء نصف عرايا ، وقد أطلقوا شعورهم ولحاهم السوداء أو البيضاء . ترى عظامهم البارزة تحت الجلد ، وصدورهم كالأقفاص المتآكلة . والخطوط السوداء المحفورة حول العيون . والسكون بل الجمود يسيطر على حركاتهم . والنظرات تبدو وكأنها موجهة إلى الداخل لا إلى ما يدور حولهم . وكأن لا شىء مما يحدث يهمهم .

ورجال ونساء تدرك أنهم ليسوا من الهنود ، يرتدون الأسمال البالية ، وتبدو على جلودهم البيضاء تلك القذارة المتراكمة من إهمال النظافة . أظافرهم طويلة تراكم تحتها التراب الأسود ، وشعورهم الشقراء طويلة شعثاء ، ينامون ملتصقين بدون غطاء ، وقد أسندوا رءوسهم إلى أكياس من التيل يحملون فيها ممتلكاتهم وملابسهم القليلة ، أو يجلسون فى حلقات يتحدثون ، ويدخنون . أو يحملقون فى السماء بعيون ضائعة ، أو يخلعون ستراتهم أو قمصانهم ليبحثوا فى ثناياها عن القمل . يقتلونه بعناية بين أظافر الأصابع ، وقد كشفوا أجسادهم البيضاء تلفت النظر بين الأجسام السمراء المستلقية فى سكون فوق أرض الحديقة . فالهند ملتقى « للهيبيز » من كل أنحاء العالم . فالحياة هنا لا تكلف كثيراً . وافتراش العراء يحل محل السكن . . .

رأيت رجلا عجوزاً يتطلع إلىّ بنظرة جامدة . العظام البارزة تبدو وكأنها ستشق الجلد المتهدل الذى يكسوها بغطاء رمادى مريض . أسرعت الخطى . . . أدركت أننى أهرب من رؤية الفقر .

الفيضان البشرى

عشرات من الموائد والمقاعد المتلاصقة لا تكاد تستطيع أن تمر بينها . ومئات من الناس يجلسون حولها . يقرءون صحف الصباح . ويحتسون القهوة الساخنة وقد تركوا أحذيتهم عند الباب وارتدوا خفاً من المطاط الأسود . وعند المدخل أربعة من الرجال . . . هيا كل من العظم والجلد يمسحون الأحذية بحركات سريعة مدربة . والناس الذين يغادرون القهوة يمرون أمامهم فى صف طويل . ويعيدون إليهم الخف الأسود . ويرتدون أحذيتهم مسندين أنفسهم على قدم واحدة وعلى يد يضعونها فوق درابزين من الخشب المتآكل ، يكاد يقع تحت ضغط الأجسام المستندة إليه ، ويدسون قطعة من النقود مصنوعة من الألومنيوم تساوى ربع روبية فى الأيدى الناحلة الممدودة . والأصوات ترتفع فى ضجيج متصل كأنك فى سوق كبيرة ، والقهوة التى تشتريها سائل ساخن أسود لا طعم له ولا رائحة ولكنها رخيصة تملأ الجوف الخالى من الطعام ، وتعطى شعوراً كاذباً بالطاقة. وبين حشد الهنود بوجوههم السمراء جماعات صغيرة من « الهيبيز » تطل عيونهم بنظرات متأملة جامدة كأنهم يعيشون فى حلم بعيد . بشرتهم بيضاء وعيونهم زرقاء ، غرباء عما يحيط بهم . ومع ذلك تحس أنهم جزء منه . وأن الحشود التى اندسوا بينها تعودت وجود هؤلاء الراحلين من البلاد البعيدة ، الهاربين من المدن الصناعية بمداخنها وآلاتها التى تدور لتسحق الإنسان . الباحثين عن لحظة تأمل فى الحياة ، الزاهدين عن الطعام الجيد والملابس الناعمة ، الغارقين فى ضياع المخدر ، أو فى نوع من الانفصال الذهنى ، يكاد أحياناً يقترب من التصوف . « الهيبيز » هنا لا يشعرون بالغربة .

فالبطون الخاوية . والأسمال الممزقة . والأجسام الهزيلة . والقذارة والتململ أشياء معتادة . وهؤلاء القوم يرفضون كل نعم الحياة الحديثة . ويبحثون عن كل ما يتناقض معها . ويجدون فى الهند تجسيداً لما يسعون إليه . إنهم يتحدثون أحياناً مع الهنود الذين يحيطون بهم فى المقاهى والشوارع والحدائق العامة . والهنود يتقبلونهم ويعاملونهم بعطف ولكنك تحس بنوع من الجدار البارد يرتفع بين الاثنين . نوع من الاستنكار الصامت . أو عدم الاطمئنان . أو الريبة . وكأن الذين فرض عليهم الفقر يرتابون فى أمر الذين يبحثون عنه . ويشكون فى صدق ما يدعون أو ربما لأن « الرجال ذوى العيون الزرقاء » كانوا دائماً أصحاب أغراض . غزاة . لصوصاً . قراصنة . قساوسة . رجال أعمال . رجال دولة كلماتهم معسولة وأنيابهم مسنونة . فلماذا لا تكون دعوة هؤلاء صورة جديدة من صور التضليل ؟

والمأكولات هنا بسيطة . قطع من عجين الدقيق أضيفت إليها الشطة ، وأعشاب خضراء محمرة فى الزيت مثل الطعمية . أو خبز وعسل أسود ، أو عجين البطاطس باللحمة المفرومة مقليًّا فى الزيت ، أو نوع من البقول مثل الفول ، ولكن حباته صغيرة مطبوخ فى صلصة بنية اللون حراقة المذاق يسمونه « دال » وخبز رفيع عادى أو مقلى فى الزيت يطلق عليه « نان » . أما الأطباق الممتازة فهى لا تخرج عن أنواع من البيض أو كفتة السمك .

ومع ذلك فإن أبسط أنواع الأطعمة فى الهند تتميز بطعمها اللذيذ . فهم يستخدمون التوابل والبهارات بكميات كبيرة وبحنكة شديدة . ويبدو أن بساطة الطعام وقلة أصنافه فى البلاد الفقيرة دفعت الناس إلى ابتكار الوسائل التى تغير من طعمه ، وتدخل عليه شيئاً من التنوع حتى يصبح مقبولا .

جلست إلى أحد الموائد . بعد قليل احتل ثلاثة من الرجال المقاعد الباقية حول المائدة . كانوا يقرءون الصحف . ويتحدثون فيما بينهم حديثاً

طويلا متصلا لم ينقطع لحظة . وكأنهم تقابلوا بعد فترة طويلة .

عرفت منهم أنهم ثلاثة تجار يعملون فى بيع الأحذية والجلود . ودار الحديث بيننا حول الأسعار . والغلاء . ففى تلك الفترة كانت الهند تعانى من الجفاف . لقد طال انتظار الأمطار التى تأتى عادة مع أوائل الصيف ، وجفت المحاصيل فى الحقول . فشحت المواد الغذائية وارتفعت الأسعار ارتفاعاً جنونياً ؛ ذلك أن ٦٠٪ من أراضى الهند ما زالت تعتمد فى زراعتها على الأمطار . وامتلأت أعمدة الصحف بالنقد الشديد الموجه لحكومة أنديرا غاندى . فالمين يتهم سياسة التأميم بأنها السبب فى المصاعب الاقتصادية واليسار يوجه سهامه لتجار الجملة والمضاربين وضعف الحكومة فى مواجهة ألاعيب المحتكرين . والمواد الضرورية تشح أو تختفى الواحدة بعد الأخرى . بل حتى « الفكة » توارت طوال الأسبوعين اللذين قضيتهما فى نيودلهى .

سألت الرجال الجالسين حول المائدة عن رأيهم فى الموقف ، فعبروا عن مخاوفهم وعن إحساسهم بالتشاؤم إزاء الأوضاع . حدثونى طويلا عن سيطرة المحتكرين على الأسواق ، واختناق صغار التجار ومتوسطيهم ، وعن الغلاء الفاحش ، والاحتمالات المترتبة على عدم هطول الأمطار ، بل استفسر أحدهم عن فرص العمل فى مصر .

الهند تبحث عن نفسها !

خلال الأيام القليلة التى قضيتها فى الهند أحسست أن البلاد كالمرجل تغلى مياهه فوق نار موقدة يرتفع لهيبها يوماً بعد يوم . كنت أستيقظ لأقرأ عدداً من الصحف قبل أن يبدأ يوم العمل . وقراءة الصحف فى الهند متعة حقيقية . الصحف بسيطة خالية مما يسميه الصحيفون المحترفون « بالفن الصحفى » ثمانية صفحات مطبوعة فى أعمدة بالبنط الصغير على ورق

الهند : فلاحون فى الحقل ويعملون شبه عرايا

يميل إلى الصفرة وكأنه رقد فى الخازن سنين طويلة . ومع ذلك فكل تيارات المجتمع وأحزابه وفئاته تعبر عن نفسها . وتموج السطور بصراع الأفكار والمصالح .

وأينما ذهبت كنت أسمع المناقشات الحارة التى تدور حول مستقبل البلاد والآراء متباينة بل أحياناً متناقضة . فالهند بلد القوميات المتعددة واللغات المختلفة . والطبقات والفئات تفصل بينها فروق شاسعة فى المستوى الاجتماعى وفى الطابع الثقافى . والمشاكل ضخمة ، فى حجم البلاد وفى حجم السكان . الذى يقترب سريعاً من ستمائة مليون . وفى حجم الفقر يطحن الملايين إلى درجة المجاعة .

هناك « المهراجات » وبقايا الإقطاع الذين يتحولون بسرعة إلى الأعمال التجارية والصناعية ويجعلون من قصورهم فنادق للسياح وأغنياء العالم . وهناك الرأسماليون أصحاب الملايين مثل « تاتا » و « برلا » الذين أقاموا المصانع الضخمة . وشنوا الهجمات على أنديرا غاندى لأنها أممت البنوك . وشركات التأمين . واتجهت إلى التعاون مع الاتحاد السوفيتى . وهناك بعض رجال الجامعة . والفنيون ، والمهنيون . والمثقفون الذين ما زالوا يقلدون الإنجليز فى حياتهم يتحدثون الإنجليزية من أنوفهم . ويتحركون ببطء مدروس ، ويهزون أكتافهم وأيديهم فى استعلاء ويرنون بنظراتهم وأفكارهم ناحية الغرب وأمريكا بالذات . ولكن هناك مثقفون ومهنيون . ورجال فكر آخرون يبحثون عن شخصية الهند فى تراثها . وتاريخها . وإنسانيتها العميقة ، وتلك القدرة الفريدة على تأمل الحياة ومعناها . على البحث عن المنابع . والوصول إلى الأهداف . هؤلاء يؤمنون بالهند ، وبضرورة الاعتماد على القوة العظيمة الكامنة فيها . وأتذكر عالم الاجتماع الأمريكى الذى قابلته فى مكتبه الفاخر المزود بكل أدوات العصر الحديث وإمكانياته تطل نوافذه العريضة على حدائق

الهند : فى شوارع دلهى القديمة الزحام « والسارى »

« لودى » الشهيرة ، والذى قال بمرارة : « الهند استيقظت والبعث القومى ينهض فى كل مكان . إنهم يقولون لنا . لم نعد نريد أن نعتمد عليكم . إن مستقبل الهند مرهون بتنمية مواردها الداخلية . مرهون بمجهود الشعب الهندى » . ثم أضاف : « لم أعد أشعر بالتفاؤل الذى أحسست به عندما وطئت أقدامى أرض هذه البلاد لأول مرة منذ سبع سنوات » .

وهذا البعث القومى تشهده فى كل مكان . فى مداخن المصانع التى تصنع الحديد والصلب ، والقاطرات والسيارات ، والملابس . وفى الاهتمام المدروس لتشجيع الصناعات الحرفية المتنوعة التى تشتهر بها الولايات المختلفة .

آلاف الأشياء تكتظ بها الأسواق ، والحوانيت الصغيرة ، والمتاجر الخاصة والحكومية التى تبيع للسياح ولأغنياء القوم أقمشة صوف وحرير ، وملابس ، وفخار ، وتحف ، وجواهر ، ومفروشات وموبيليات وأدوات مصنوعة من الجلد ، وأوان مختلفة . أو أطباق أو فناجين مصنوعة من الفخار ، كلها تخطف العين بفنها الرفيع ، وألوانها الجميلة ، وتلك الدقة التى تنم عن اعتزاز اليد الصانعة بما تصنع .

وتشهده أيضاً فى التمسك بالزى الوطنى ، القميص والسروال الأبيض للرجال ، و « السارى » للسيدات ذلك « السارى » الذى يحول كتل البشر إلى نسيج من الألوان تمتع العين ، وفى المحاولات التى تبذل لإحياء اللغات الكثيرة التى تتميز بها الهند فكيف يمكن أن يتحقق البعث القومى إذا كانت الإنجليزية هى اللغة الوحيدة المشتركة التى تستعمل فى الصحف ، والكتب وكل مراحل التعليم ، وفى جميع الأعمال الرسمية الحكومية وغير الحكومية .

وتحسه عندما تدخل البيوت الهندية ، فى المفروشات ، والستائر ، والمقاعد ، والسجاجيد ، وفى الأكل الذى يتكون من عشرات الأطباق

الهند : رسم الفخار ويعد إحدى الصناعات الجميلة التى تجيدها الهنديات

الهندية . والأطعمة المتنوعة بقدر تنوع الولايات . فيوجد مثلا أكثر من مائة صنف من الحلوى . وكل خمسة أو ستة من هذه الأصناف ترتبط بولاية من الولايات . أو منطقة من المناطق .

وهذا التمسك بالشخصية المتميزة يتجلى بوضوح شديد فى العناية التى تحاط بها آثار الماضى ومدافن الزعماء . وأغلب الآثار من عهد « المغول » الذين حكموا الهند منذ سبعمائة سنة تقريباً . والمغول كانوا مسلمين . قبائل رحالة شديدة البأس فى الحروب استقروا فى الهند وحكموها مرحلة امتدت ثلثمائة سنة وكما هو شأن المسلمين عادة اهتموا بالمعمار . أقاموا المدن المحصنة . والجوامع والقلاع ترتفع شامخة مهيبة فى كثير من أنحاء الهند . ومن بينها جامع « قوة الإسلام » و « الصدر الأعظم » . والقلعة الحمراء . فى دلهى القديمة . والتاج محل فى مدينة أجرا على بعد ٤٠٠ كيلومتر تقريباً من نيودلهى .

وأغلب هذه الآثار مصنوعة من أحجار رملية حمراء اللون تحيط بها حدائق خضراء منسقة بعناية . وأحواض من الزهور . والأشجار العملاقة . النظافة منقطعة النظير . والاهتمام بها يتميز بطابعه الشعبى . فإذا ألقى أحد الأشخاص قطعة من الورق على الأرض أو عقب سيجارة اندفع أحد من المارة ليلتقطه من الأرض ويضعه فى سلة من سلال المهملات الكثيرة الموزعة فى هذه الأماكن . وتحس وأنت تسير مع السائرين بنوع من الحب والاعتزاز يحمله أبسط الناس وأفقرهم لهذه الآثار الإسلامية برغم أن أغلبية السكان ليسوا من المسلمين .

وفى مدينة دلهى القديمة ذهبت فى إحدى الأمسيات لزيارة مدافن غاندى ونهرو . الشمس تسقط فى الأفق تصبغ السحب الكثيفة بألوان رقيقة ، نسيج من الخيوط البنفسجية والحمراء وتحتها ترقد التلال ساكنة خضراء تمتد حتى النهر إلى آخر حدود الرؤية . والناس يجلسون على الحشيش الأخضر الرجال ، والنساء . والشيوخ والشباب . والأطفال

دلهى القديمة : مئذنة جامع « قوة الإسلام » ويبلغ ارتفاعها ٧٥ متراً

يتحدثون بأصوات هامسة . لا أحد يجرى ، ولا صوت يرتفع فى ضجيج ، ولا طفل يعبث بأحواض الزهور المتناثرة فوق التلال المنحدرة . وجماعات صغيرة من الرجال فى لباسهم الأبيض ، وعلى الرؤوس الطواقى البيض ، وحول الوجه اللحى التى وخطها الشيب . وفى اليد عصاً يتكئ عليها الرجل وهو يسير . وأمام الحديقة « حوش » عريض غطته الرمال الحمراء وبجوار الباب الخشبى المفضى إلى الحديقة إعلان « ممنوع التدخين » والناس يطفئون سجائرهم قبل الدخول أو ينتظرون فى الخارج حتى ينتهوا منها ، وعلى أرض « الحوش » لا تلمح قطعة ورق . أو كيساً فارغاً أو قشور الفواكه ، أو حتى طرف سيجارة دفن تحت الحذاء . وعند طرف الحوش دورة مياه تلمع أحواضها وصنابيرها من كثرة التنظيف ، وإلى جوار الباب حنفيات تصل إليها المياه من أوان فخارية ضخمة عبر مواسير من المطاط الأسود . فإذا شربت منها تشعر أنك لم تذق مياهاً منعشة كتلك التى تتدفق من فتحة الصنبور . تذكرك بشلالات الثلج المذاب التى تسقط من قمم الجبال فى أوربا .

وعندما تسير فوق الممر الطويل ينتظرك أحد الحراس عند مدخل الضريح يحرس صفوف الأحذية التى تركها أصحابها عند الدخول ، وتخلع حذاءك بدورك وتسير حافى القدمين فوق ألواح من الخشب وضعت على الأرض لتلقى أقدام السائرين .

الهدوء هنا شامل ، هدوء عميق تكاد تسمعه ، والأشجار تهتز برفق مع نسمات الريح ، والضريح مربع كبير من الرخام . مساحة بنية اللون فيها دوائر سوداء صغيرة . وفوق الضريح آنيتان من النحاس اللامع وضع فيهما رماد الجسد المحروق . فالهنود يحرقون الجثة بعد الموت ، ويضعون الرماد فى آنية صغيرة .

لمحت رجلا طويل القامة ، أسمر الوجه يدخل إلى الضريح . دار حوله ببطء مرتين . ثم وقف ووضع زهرتين صغيرتين فى لون البرتقال ، واحدة

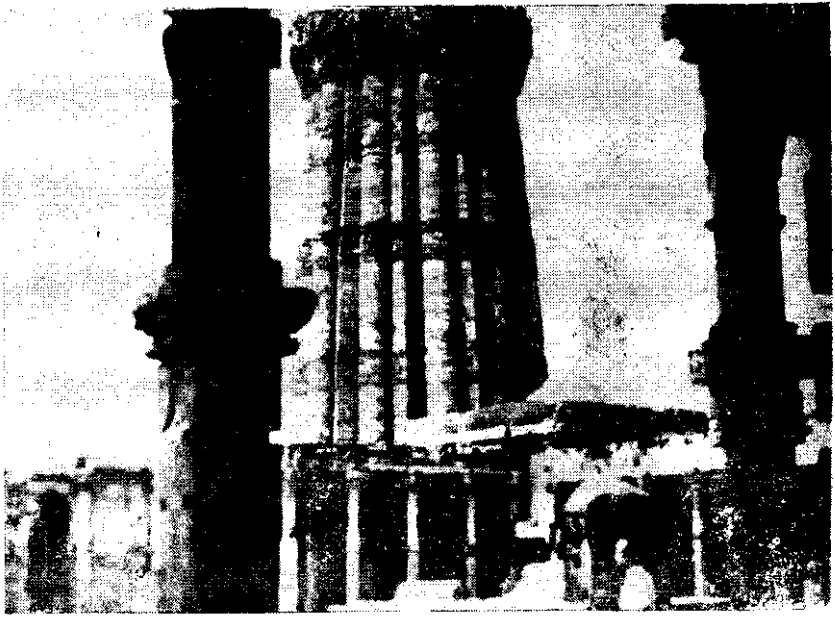

دلهى القديمة : قاعدة المئذنة فى جامع قوة الإسلام من الحجر الأحمر

على اليمين وواحدة على اليسار . بقى هكذا ساكناً أمام الضريح يتطلع إليه بدون أن يتحرك . الليل يزحف ببطء على المكان والسكون لا يقطعه سوى حفيف الشجر . والرجل كالشبح الأبيض يتأمل . . . ويفكر .

أحسست وأنا أقف على بضع خطوات منه أننى أشهد سرًّا من أسرار الهند .

جولة فى مجتمع نيودلهى !

المبانى الحكومية فى الهند تذكرنى « بقشلاقات » الجنود الإنجليز التى كانت مقامة فى ميدان الإسماعيلية (ميدان التحرير) مبان ضخمة صفراء أو حمراء اللون مكونة من مئات الأحجار كلها فى حجم واحد ، تمتد صفوفاً طويلة أو طابقاً فوق طابق . بل لا أعرف لماذا تذكرنى كثير من الأشياء فى الهند بأيام الإنجليز فقد تركوا بصماتهم فى كل مكان .

توقفت السيارة الفولكس الصغيرة التى خصصتها وزارة الصحة لتنقلاتى أمام مجمع كبير من المبانى . دخلت صالة الاستقبال الضيقة ووقفت أمام مكتب الاستعلامات . استقبلتنى السيدة السمراء الجالسة خلف المكتب بابتسامة مرهقة . أعطيتها اسمى ، فقالت : « إنهم فى انتظارك فى إدارة تنظيم الأسرة فى الدور العاشر » . همست بالانصراف عندما لمحت آلة التصوير فى يدى ، وقالت « ممنوع حمل آلات التصوير فى أثناء التجول فى المبانى الحكومية » . سلمتها الكاميرا فوضعتها فى درج مكتبها . بقايا القيود العتيقة التى لا معنى لها . صعدت إلى الدور العاشر ، ثم سرت عبر « الطرقة » الطويلة ببلاطها الرمادى المنسخ وصفوف الحجر . تلمح من خلال أبوابها أكواماً من الملفات القديمة مرصوصة فوق المكاتب والمناضد ، والمقاعد ، و « الدواليب » وحتى الأرض . وعشرات من الناس يسيرون بخطوات متسكعة كأن الوقت أمامهم طويل ، وبين الحين والحين دورة مياه تحولت جدرانها وأحواضها البيضاء إلى لون التراب

الهند : رجل يقضى لحظات تأمل أمام ضريح غاندى

من قلة التنظيف وتصاعدت منها رائحة البول . الحجر مكدسة بالمكاتب والموظفين . وتحس فى كل ما يحدث بقدر كبير من الفوضى .

وصلت أخيراً إلى باب الحجرة رقم ٣٧١ . طرقته طرقتين متتاليتين ثم دخلت . وجدت سيدة سمراء قوية الملامح ترتدى السارى الأزرق . ونظارة سميكة قلت : « صباح الخير . . . أنا الدكتور شريف حتاتة » .

لمعت أسنانها البيضاء فى ابتسامة خاطفة ثم عاد الجد إلى وجهها الصارم وقالت : « اتشا » أنا الدكتورة « راو » . كنت فى انتظارك . فأنا المكلفة بعمل الترتيبات اللازمة لزياتك . . . تفضل » .

هكذا كان لقائى الأول مع الدكتورة « راو » . ذلك اللقاء الذى قادنى إلى عشرة أيام من التنقل المستمر ومن اللقاءات امتتالية التى عرفت من خلالها الكثير لا عن مشروع تنظيم الأسرة فحسب ولكن عن الناس ، والمجتمع . فى نيودلهى .

* * *

زحفت السيارة الصغيرة ببطء تحت سيول المطر المنهمر وهى تشق طريقها وسط الأضواء على سطح الشوارع المبتلة متجهة إلى مستعمرة « كيلاش » إحدى ضواحى نيودلهى المترامية .

دخلت من باب الفيلا البسيطة ذات الطابق الواحد . صديقى الطبيب الذى عرفته فى مصر خبيراً لتنظيم الأسرة كان فى انتظارى هو وزوجته وابنه ، وزوجة ابنه . استقبلونى بحرارة وود ، فأحسست بعد قليل ببقايا الكلفة تتبخر . لم يكن أحد من المدعوين الآخرين قد وصل بعد فجلسنا نتحدث فى انتظار قدومهم . كان جرس الباب يدق بين الحين والحين لتسمع كلمات الترحيب . ازدحمت الحجرة بالضيوف يتحركون ويتحدثون بألفة هادئة . والناس يتعرفون ببساطة شديدة تحس فيهم بالمثقفين الذين يعيشون فى قلب الحياة ، يعملون ويفكرون .

الهند : (نيودلهى) الدكتورة راو التى تعمل وترعى أطفالها . إنها نموذج امرأة الهند الحديثة

الأيدى العاجزة عن البناء !

جلس إلى جوارى ناظر المدرسة . رجل قصير القامة بشرته بيضاء برغم أصله الهندى .

« هنا فى الهند التعليم لم يتغير كثيراً . ما زلنا نطبق فى الجوهر ما ورثناه عن الإنجليز » .

فالتعليم منفصل عن الحياة إلى درجة كبيرة . مبنى على تحصيل كميات من المعلومات فى أغلب الحالات لا تفيد فى أداء العمل الذى سيقوم به الخريج عندما ينضم إلى القوى العاملة فى المجتمع . إننا لم ندرك بعد أهمية التعليم الوظيفى الذى يعد الإنسان لأداء وظيفة معينة فيما بعد . فالفلاح ينبغى أن يعد للزراعة وأن يحصل على بعض المعلومات عن الحساب كى يستطيع أن يتابع حساباته مع الجمعية التعاونية أو التاجر أو المالك ، وعلى خبرة فى إصلاح بعض الأدوات الميكانيكية أو الكهربائية التى قد يستخدمها . وعن التغذية والصحة حتى يحافظ على صحة نفسه وأسرته ويتفادى العادات والتصرفات التى تعرضه للأمراض الشائعة ، وعلى كيفية تنمية الثروة الحيوانية الخاصة به . وعن الصناعات الحرفية المرتبطة ببيئته . وما ينطبق على ابن الفلاح أو بنته ينطبق على الفئات الأخرى .

والتعليم الثانوى لا بد أن يفقد صبغة النظرية التى تعد الطلبة للدخول فى الدراسات الجامعية الأكاديمية . فالكل هنا يريدون الوصول إلى الجامعة . ثم عندما يتخرجون تجدهم يعملون فى وظائف أو أعمال لا يرضون عنها . فى أعمال كتابية أو حسابية مثلا . أتتصور أن عندنا فائضاً فى المهندسين خريجى الجامعة ، إنه فائض لا عمل له ؟ وبينما يسعى المجتمع إلى التنمية ، إلى بناء الصناعة ، وإدخال الآلات فى الزراعة ، وإقامة المشروعات المختلفة ينقصنا آلاف من الرجال والنساء

الفنيين والإداريين الذين يمكنهم القيام بالأعمال التنفيذية والإشرافية اللازمة . ثم أنماط التعليم الموروثة عن الإنجليز تجعل من الإنسان مجرد حافظ للأشياء وأداة طيعة تفتقد روح الإقدام والابتكار . لا بد أن تخفف المناهج وأن تبنى نظم الامتحانات على اختبار قدرة التلميذ أو الطالب على التفكير . وهذا لا يتأتى إلا بإعطاء وقت وفرص للتفكير والقراءة . والمناقشة . والاهتمام بدراسة البلد ومشاكله . وتشجيع الفكر والمواهب الخاصة .

كان الرجل العجوز يتكلم بحماسة الشباب . تلمع عيناه الصغيرتان من خلف النظارة بذكاء وحيوية وتقطر كلماته بالأسى عندما يتحدث عن مشاكل الشباب وأزماته : « إذا كان الشباب فى أزمة يبحث عن مخرج ثم لا يجده ، فينتهز أول فرصة للسفر إلى بلد آخر . فنحن مسئولون عن هذا إلى حد كبير لأننا لم نستطع أن نعطيه المثل . ولا الثقة فى المستقبل ولا الإحساس بأننا نسعى بجدية لمواجهة المشاكل وتغيير المجتمع » .

التفت إلى الفتاة التى كانت تجلس إلى جوارنا وتتبع المناقشة باهتمام واضح ، قوام طويل رشيق ملفوف فى السارى الأبيض . ينسدل فوق ظهرها الشعر الأسود حتى الخصر . وتقاطيع منحوتة بوضوح فيها جمال وقوة ، وعينان واسعتان فى سواد الفحم يحيط بهما بياض ناصع . لمعت أسنانها البيضاء فى الوجه الأسمر قلت :

« أين تعملين ؟ »

« أنا طالبة فى السنة النهائية لكلية الطب » .

« ما رأيك فيما قاله صديقنا ؟ »

« أوافقه تماماً . المظاهر نفسها فى كليات الطب . الهند تكتسحها الأمراض وسوء التغذية ومشاكل البيئة غير الصحية التى تنشر الأمراض ومع ذلك نتعلم وفقاً لنظم الغرب . ولا يوجد اهتمام جدى بالوقاية وصحة البيئة وإعداد الطبيب لمواجهة مشاكل المجتمع الحقيقية . وعندما قلت لزملائى إننى سأقف جهودى للطب الوقائى سخروا منى وقالوا : أنت هاوية فقر » .

الهند (نيودلهى) : المتحف القومى . تمثال المرأة والجرار عند المدخل . الخطوط الخصبة والوجه المتأمل

رأيت تقاطيعها تصب نفسها فى خطوط من الإصرار كالتمثال الجميل فى الضوء الخافت للحجرة . استطردت بعد لحظة من السكوت المتأمل .

« المهنة الطبية عندنا ترنو بعيونها نحو البلاد المتقدمة فى الغرب ونحو الثراء . وهذا بتأثير كبار الأساتذة وكبار الأطباء . نقول لهم ما الفائدة فى أن يمكث طالب الطب سنين طويلة يدرس الأمراض المعقدة . والأساليب الخديثة فى العلاج ثم يذهب إلى الريف ليواجه مشاكل الذباب ، وسوء التغذية والكوليرا . والحميات . وإسهال الأطفال والدرن فإنهم ينظرون إلينا من عليائهم . ويتهموننا بأننا شباب جاهل . أو على الأقل متحمس لا يدرك أهمية العلم. وفى رأيى أن العلم الذى لا يحل مشاكل المجتمع الحقيقية علم مزيف . وارتزاق . ولا يمكن أبداً أن يكون العلم الذى نريده . الطبيب عندما يذهب إلى الريف لا يستخدم إلا القليل من المعلومات التى جاهد سنين طويلة للحصول عليها . إنه يحس بالإحباط وبقلة فائدة الأشياء التى أتعب نفسه فى تحصيلها . وهو يريد الهروب فى أقرب فرصة . يرنو إلى المدينة أو حتى إلى الحجرة حيث يمكنه أن يستمر فى الطريق نفسه . أن يدرس فروع الطب العلاجى . ويبنى مستقبله الذى يرتضيه بحكم التكوين الذى حصل عليه . وعندما تقول لكبار المسئولين والأطباء : لماذا لا نركز جهودنا على تكوين نوع من العاملين فى حقل الطب معد نفسيًا . واجتماعيًا . ومهنيًا للقيام بالعمل المطلوب منهم مثل مساعدى الأطباء . والمعاونين الصحيين والممرضات يقولون لنا " أنتم تريدون الهبوط بمستوى الطب وتشجيع الدجل والدجالين " ومع ذلك كل شىء يشير إلى أنهم هم المعزولون عن مشاكل مجتمعنا فالهيئات الدولية الصحية مجمعة الآن على أن هذه الفئات هى التى تصلح لمواجهة المشاكل الصحية الشائعة فى مجتمعنا . وأنه لا داعى لصرف آلاف الجنيهات على تكوين طبيب ثم إرساله إلى الريف ، أو المدن

الهند : الإخصائية الاجتماعية تساهم فى تثقيف القرويات

الصغيرة أوحتى الأحياء الشعبية فى المدن .فهى خسارة كبيرة له وللدولة . أليست تجربة الصين مع الأطباء الحفاة دليلا على أن الطريق الذى نسير فيه خاطئ وأنه علينا أن نخرج من قيود التفكير التقليدى المستورد من نظم الغرب » .. التفتت إلى وأضافت بعد لحظة صمت : « ما رأيك ؟ أهذا كلام شباب متحمس ؟ »

قلت :

« إننا فى حاجة إلى رأى الشباب المتحمس وجهوده . وهذه القضايا مطروحة فى كثير من البلاد النامية. إن المناقشات نفسها بدأت من مدة عندنا ، خافتة ، محدودة النطاق أول الأمر . ولكنها اتسعت الآن لتشمل مختلف الجهات المسئولة ، والعملية ، وصفحات المجلات ، والجرائد » .

أطرق ناظر المدرسة برأسه إلى الأرض ثم رفع نظرته إلينا وقال :

« لماذا نبقى هكذا بعيداً بعضنا عن بعض ؟ أنتم فى مصر ونحن فى الهند . مشاكلنا متشابهة وآمالنا متشابهة . ومع ذلك لا نلتقى إلا بالمصادفة » .

تنظيم الأسرة فى الهند

طوال الثلاثة عشر يوماً التى قضيتها متجولا بين مختلف إدارات ووحدات تنظيم الأسرة فى مدينة دلهى ، والمناطق المجاورة لها فى الريف . كانت الصحافة تتناول المشكلة السكانية فى عديد من المقالات والدراسات والتعليقات . وكان الطابع الغالب هو عدم الرضى بالنتائج التى وصلوا إليها . فقد كانت الآمال المعقودة على تحقيق انخفاض ملموس فى النمو السكانى تصطدم بعقبات وصعوبات كثيرة لم يتمكن مشروع تنظيم الأسرة من التغلب عليها ، مما حال دون الوصول إلى أهدافه .

ومن خلال المناقشات التى دارت بينى وبين المسئول عن جهاز تنظيم الأسرة ، وهى أستاذة سابقة فى أمراض النساء والولادة ، وكذلك بين

باقى المسئولين فى التخطيط والإعلام والتدريب والتقويم وفى الوحدات المختلفة ، استطعت أن أصل إلى بعض الملاحظات الهامة فيما يتعلق بهذا المشروع الحيوى .

والإدارة المختصة بمشروع تنظيم الأسرة فى الهند تابعة لوزارة الصحة ، وقد أدت هذه التبعية الإدارية إلى حصر حدود النشاط المتعلق بتنظيم الأسرة فى نطاق الصحة أساساً على حين نجد المشكلة السكانية تتأثر إلى درجة بعيدة بعملية التنمية فى مجالا ت الصناعة، والزراعة ، وتشغيل القوى العاملة ذكوراً وإناثاً ، والتعليم والتنمية الاجتماعية (رعاية الأسر ، الصناعات الريفية ، دور الحضانة) وبالسياسات التى تتبع فى هذه المجالات. كما أن النشاط الخاص بتنظيم الأسرة يمكن ، بل ينبغى، أن يدخل كجزء أساسى من المشاريع التى تنفذ فى المجالات المختلفة . ووجود تنظيم الأسرة كإدارة فى وزارة الصحة يعزلها إلى حد كبير عن الوزارات والهيئات الأخرى . ويحول دون أن ترتفع إلى مستوى السياسة القومية المنفذة فى مختلف ميادين التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وعندما شرحت لهم أن المهيمن على تنظيم الأسرة فى مصر هو المجلس الأعلى الذى يضم الوزارات وممثلى الهيئات المهنية بمختلف نواحى المشكلة السكانية وتنظيم الأسرة . اعتبروا هذا الوضع خطوة هامة ومتقدمة يمكن أن تساعد على أن تصبح السياسة السكانية وتنظيم الأسرة جزءاً لا يتجزأ من خطة التنمية ، والخطط العشرية .

وقد لاحظت عدداً كبيراً من النساء فى الأعمال المختلفة وعلى الأخص فى تنظيم الأسرة حيث يتولين مسئوليات هامة. ومن بينهن الدكتورة « راو » التى كانت ترافقنى فى جميع الزيارات والتى كانت مثالا للدقة والاهتمام وتحمل المشاق طوال الفترة التى قضيتها فى دلهى ، برغم غياب زوجها الذى كان يعمل ضابطاً فى البحرية عن البيت ، واضطرارها إلى تحمل أعباء أطفالها وحدها .

الهند : حديث فى القرية عن تنظيم الأسرة ويرى الإخصائى الاجتماعى يناقش الرجال

جلسنا فى المطعم الصغير . بجوار المعرض الدائم للحرف الوطنية فلتهم غداءنا المكون من ساندوتش لحمة . وكوب كبير من القهوة المثلجة باللبن . قلت لها :

« أتحبين عملك ؟ »

« ليس كثيراً . أنا أكره الأعمال الإدارية وأفضل التدريس . ولذلك أسعى إلى نقلى إلى المعهد القومى لتنظيم الأسرة » .

كنا قد زرنا المعهد فى الصباح . مبنى أبيض كبير فى إحدى ضواحى نيودلهى يقوم بالأبحاث والدراسات الخاصة بالمشكلة السكانية وتنظيم الأسرة فى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والإعلامية إلخ . أحسست إحساساً خفيًّا وأنا أدور بين أقسامه أنه خال من الناس . محدود النشاط . وعندما سألت الدكتورة « راو » لم تخف عنى الحقيقة . بل أكدت استنتاجى . وأوضحت أن السبب يكمن فى أن جميع الذين يسعون إلى العمل فيه . يعتبرونه جسراً للانتقال إلى الخارج . أو إلى الهيئات الدولية ولذلك يفقد المعهد أساتذته و باحثيه باستمرار .

أعجبتنى صراحتها . ولكننى اكتشفت بعد قليل أنها تبدى رأيها بصراحة فى كل الأمور . وفى كل الناس بدون تحامل . فأعجبت بها أكثر .

« إذن ربما تريدين أنت أيضاً العمل فى الهيئات الدولية » ؟

« لفترات قصيرة ربما . فالسفر تجربة ومتعة . ولكن ليس على طول . من يفقد صلته بالوطن يفقد الكثير مهما كانت متاعب هذا الوطن » .

« ومتاعب تنظيم الأسرة ؟ »

« إن المسئولين يعتقدون أحياناً أن الإنجاب مثل الصنبور نستطيع نحن القائمين على المشروع أن نفتحه ونغلقه كما نشاء . لا يدركون أننا نتعامل مع ملايين البشر يتأثرون بعوامل اقتصادية واجتماعية وثقافية فى منتهى التعقيد . إنهم يسألون :

ما هى نسبة التخفيض فى النمو السكانى خلال السنة الماضية ؟ » .

« وماذا تفعلون ؟ »

« ما زلنا ندور فى نطاق الصحة . الأسرة . وبالذات فى الريف يريدون الأطفال . وحتى السيدات اللائى يستخدمن الحبوب لا ينتظمن فى استخدامها وهذا خطأ كبير يؤدى إلى الحمل فى كثير من الحالات . إننا نسعى إلى إقناع السيدات بحقيقة هامة وهى أن إطالة الفترات بين الإنجاب مفيدة لصحة الأم والطفل جسدياً . ونفسياً ، وفرصة لاستعاضة الطاقة المفقودة . وإن أمثل سن للإنجاب هو ما بين ٢١ و٣٢ سنة وهذه حقائق طبية ينبغى أن يدركها الجميع » .

« وبعد ذلك » .

« ركزنا فى الفترات الماضية على حملات التعقيم فى النساء وأساساً فى الرجال . وهى عملية بسيطة سهلة ونتائجها مضمونة . والناس . بعد عدد معين من الأطفال ، كثيراً ما يريدون التوقف عن الإنجاب . ونحن ندفع حافزاً مالياً للذين يوافقون على إجراء هذه العملية . وقد أقبل عليها ملايين من الناس وأغلبيتهم من الفقراء ، ولكن مع ذلك ليس بالأعداد التى يكون لها أثر ملموس على النمو السكانى » .

« أليس للحافز المالى دور فى هذا وبخاصة مع الفقراء ؟ فالفقر عندكم شديد الوطأة إلى درجة الجوع » .

« طبعاً . ولكن ما العجب فى ذلك طالما أن النتيجة مفيدة ؟ »

« لا أعرف بالضبط . ولكن الفكرة تصدمنى من الناحية الإنسانية فضلا عن أنها لم تؤت بالأثر المتوقع على النمو السكانى » .

« هذا صحيح . ولكنها على الأقل تخفف من المشكلة . ألا تستخدمون هذا الأسلوب عندكم » ؟

« لا . إننا نفضل الاعتماد فى مشروعنا على الإرادة الحرة والوعى . كما أن الحوافز كثيراً ما تكون أداة للفساد . وبعد ذلك ؟ »

« نعتمد فى عملنا الإعلامى على إقناع القيادات المحلية . وذوى النفوذ الأدبى والفكرى فى القرى والأحياء الشعبية ، وهم أكثر الناس قدرة فى التأثير على الآخرين . وكذلك نعطى العاملين فى المصانع اهتماماً خاصًّا فظروف حياتهم . والأعباء الأسرية . والتطلع إلى حياة أفضل تجعلهم أكثر استعداداً لتقبل فكرة تنظيم الأسرة . وهناك جهود تبذل لإدخال الدراسات السكانية وتنظيم الأسرة فى جميع مراحل التعليم من المرحلة الابتدائية حتى الجامعة . فالأجيال المتعلمة ذات أثر كبير فى الأسر وهى التى ستبنى مجتمع المستقبل » .

« ما هى أهم خطوة يمكن فى رأيك أن تضمن نجاح تنظيم الأسرة إلى درجة أكبر ؟ »

فكرت قليلا ثم قالت :

« أن يدرك المسئولون ، لا بالقول ، ولكن بالفعل . أنها مشكلة قومية . أن يدخل البعد السكانى ونشاط تنظيم الأسرة فى صلب خطط التنمية والخطط الخمسية والعشرية وفى سياسات التصنيع . والتشغيل . والتعليم والثقافة . والمشاريع الاجتماعية ، والزراعة وكل مجالات النشاط . وهذا هو السبيل الوحيد » .

دفعنا الحساب وخرجنا . قالت : « ألا تريد أن ترى بعض المعالم الجميلة فى بلادنا ؟ إن تنظيم الأسرة ليس إلا جانباً من جوانب حياتنا » .

قلت ضاحكاً : « فى بلادنا يقول الكثيرون إن تنظيم الأسرة وسيلة للتنزه فى أنحاء العالم » .

« عندك يوم ونصف إجازة . اذهب إلى دلهى القديمة ، ثم سافر إلى أجرا » .

« أجرا . لماذا أجرا ؟ »

دلهى القديمة : صورة من صور الفقر فى الهند

« ألا تعرف ؟ هناك " التاج محل " أتريد أن تزور الهند بدون أن ترى التاج محل ؟ »

فى الطريق إلى « أجرا »

القطار يزحف بين الحقول الخضراء تذكرنى بالريف فى بلادنا، مساحات مسطحة من الخضرة . تتخللها بيوت من الطين لا تفترق عن مسكن الفلاح المصرى سوى أنها أقل علواً وأصغر حجماً إلى درجة يصعب معها تصور كيف يمكن أن تحشر أسرة من خمسة أو ستة أفراد نفسها بداخلها . القرى أيضاً مثل القرى المصرية تجمعات من بيوت الطين تفصلها الحوارى المتعرجة . وتحيط بها أكوام من روث البهائم ، وأسراب الأطفال . وسحب من الذباب الأسود . وأمام كل قرية حوش كبير . أو بركة من المياه مزدحمة بعشرات من الجاموس . كتل سوداء ضخمة غاطسة فى المياه بدون حركة . تستمتع بالهروب من الحرارة اللافحة التى تطلقها الشمس . وتطل برءوسها وعيونها على الناس . وعلى القطار المسرع فوق القضبان .

والجاموس هنا قوى البنية . مكتنز الجسد . تحس باللحم والشحم تحت الجلد الأسود المشدود . فالزراعة تعتمد فى الأساس على الأمطار ، ومن النافذة تبدو المساحات الشاسعة من الأراضى البائرة لأنها محرومة من سبل الرى . الإنسان يجوع ويتحول إلى هيكل من العظام والجلد . والجاموس لا يعمل فى الحقول إلا عدداً محدوداً من الأشهر ، يأكل من الحشائش والنباتات البرية . ويسمن .

ولكن إلى جوار الجاموس الأسود تجد البقر الأبيض يقف فى الحقول أو يتجول فى الحوارى أو حتى فى شوارع المدن . فالبقر مقدس لا يجوز تشغيله أو التعرض له . ولذلك يتمتع بحرية كاملة فى التنقل من مكان إلى مكان مهما كان مزدحماً بالناس والسيارات . تراه يسير كالشبح الأبيض

عظامه بارزة تحت الجلد يبدو عليه الجوع الشديد . فطالما أن البقر لا يعمل فليس لأحد مصلحة فى إطعامه . وهكذا نجد هذا التناقض الغريب . حيوان مقدس ينقرض من الإهمال .

والمشكلة السكانية فى الهند تصدمك فى كل مكان . مئات الآلاف من البشر يزدحمون فى المدن والقرى إلى درجة تثير الفزع والناس يجلسون على الأرصفة . وفى الشوارع ، وأمام البيوت والحوانيت . وفى محطات السكة الحديد . وفى كل مكان . بل فى أى مكان . وعندما يأتى المساء يفترشون الأرض أو سريراً من البوص والجريد . وينامون حيث هم . وعندما تمر أمام هذه الألوف التى لا عمل لها تحس معنى البطالة . العيون الفارغة تحيط بها هالة سوداء محفورة . والصدور البارزة . والأيدى المتروكة فى الحجر . والنظرة التى تبحث بعيداً عن لا شىء . وأفواج الأطفال والشباب تجرى خلفك بكف ممدودة تطلب قطعة من النقود . ذلك أن الاعتماد على المطر فى الزراعة يولد البطالة . والقطاع الصناعى المحدود عاجز عن استيعاب الأيدى العاملة .

كنت قد استقللت القطار فى الصباح الباكر . المحطة مزدحمة بآلاف الناس ، يحملون أمتعتهم . منظرهم يذكرك باللاجئين الذين يحملون بقايا ممتلكاتهم بعد أن قضى عدو غادر على كل شىء فلم يبق معهم إلا صرة ملابس . وغطاء يفترشونه فى أى مكان . وكسرة من الخبز الجاف يغرسون فيها أسنانهم ، ومعهم أطفال نصف عرايا بطونهم متورمة وعيونهم جاحظة . وفوق الأرصفة مئات من الأجساد تحملق فى الأقواس الحديدية لسقف المحطة كأنها الضلوع ترفع قفصاً من الزجاج . أو متكومة على نفسها مستغرقة فى النوم تحاول أن تنكمش بعيداً عن مشاكل الحياة . أجساد ترتدى لباساً أحمر الاون ، زى موحد يشبه زى المساجين . هؤلاء هم « الكوليز » يعملون حمالين فى المحطة . الحقيبة الكبيرة تنقل إلى القطار بنصف روبية . وإزاء عددهم الكبير فإن حصيلة اليوم لا تزيد على روبية

الهند : الجاموس الأسود ولحمه يؤكل بعكس البقر المحرم

فى أحسن الظروف (ستة قروش) .

وعند عربة الدرجة الأولى وقف رجل أسمر يرتدى بدلة بيضاء . كان يحمل كشفاً بأرقام المقاعد بين يديه . نظر فى التذكرة ، ودون اسمى فى الكشف ثم أشار إلى بالركوب وجلست فى مكانى .

على الجانب الآخر من القطار كان يجلس اثنان ، شاب وشابة ، هو طويل القامة بشكل غير عادى يرتدى « بنطاوناً كاكيًّا » . وقميصاً بنيًّا مفتوحاً . وجهه المنحوت فى زوايا حادة تحيط به لحية طويلة أضفت عليه شيئاً يذكرك بالقسيس . وعيناه فيهما نظرة ثابتة تطل من الزرقة العميقة كحد الموسى . كان يتحدث بلهجة أمريكية ممطوطة تميز سكان ولايات الجنوب . أما هى فلم يكن معها سوى حقيبة يد صغيرة . قوامها الرشيق يلفه ثوب بسيط وشعرها الأصفر ينسدل فى تموجات حارة فوق الكتفين .

كانا يتحدثان ويضحكان فى حيوية متدفقة . تحس أنهما تعرفا حديثاً ربما فى الطريق فى أثناء السفر . بعد قليل انصرف عنها إلى النافذة يطل على الحقول والناس من خلال منظار مكبر ضخم أخرجه من كيس للأمتعة كان يحمله معه ، ثم استغرق فى كتاب ملون عن الطيور والعصافير . فاستسلمت لنوم هادئ وقد أسندت رأسها على كتفه فى ألفة مطمئنة . ترى أين التقيا . . . وإلى أين تسير بهما الحياة ؟

إلى أين تسير الهند ؟

أسلمت نفسى لنغمة العجلات المنتظمة فوق القضبان . بالأمس رأيت أنديرا غاندى . كانت الهند تستعد للاحتفال بيوم الاستقلال ، وسط أخبار مفزعة عن الجفاف ، والعجز فى محاصيل القمح ، والأسعار الصاعدة وحملات على الحكومة وعلى تخاذلها فى محاربة المحتكرين وتجار السوق السوداء . على جانبى الشارع العريض وقف آلاف ينتظرون

مجيئها . كانت ستحضر اجتماعاً جماهيرياً للشباب .رأيت ضابطاً هندياً ينهال بعصاه الطويلة على صفوف الواقفين يحاول أن يدفعهم إلى التراجع خطوات . حملقوا فيه بازدراء هادئ فتراجع أمام نظراتهم الباردة المشتعلة يشتم بصوت منخفض وكأنه يخشى أن يلتقط أحدهم معنى كلماته .

فجأة دقت الموسيقى النحاسية . وارتفعت صيحات الترحيب فتوقعت موكباً من الجند ، أو طابوراً من الموتوسيكلات ولكن الشارع العريض ظل خالياً . التفت إلى الصفوف المتراصة أحاول أن أستشف مشاعر الناس فلمحت من طرف عينى سيارة جيب عادية تتقدم ببطء وسط الشارع ، يقودها جندى . وإلى جواره جلس أحد الضباط وخلفهما وقفت امرأة سمراء منتصبة القامة ترتدى « ساريا » أبيض وعيناها الواسعتان دائرتان من الفحم ، وشعرها الأسود يتخلله شريط أبيض من الشيب . كانت تمسك ظهر المقعد بيد وتلوح بيد أخرى ، وتبتسم ابتسامة فيها خليط من الحزن والحنان . توقفت السيارة ، واندفع نحوها جمع من الشباب يحملون باقات الزهور . انحنت تتلقفها منهم ثم استأنفت السيارة مسيرها وهى تحمل الزهور بين ذراعيها وتضىء وجهها الابتسامة نفسها .

هكذا رأيت أنديرا غاندى بالمصادفة ، وهذه هى صورتها كما رأيتها فى شوارع نيودلهى . ولكن المدة القصيرة التى قضيتها فى الهند أعطتنى بعض الانطباعات عن المرأة التى تحكم ما يقرب من ٦٠٠ مليون من البشر .

من الأشياء التى كانت تثير تساؤلى ، هو لماذا تمكنت المرأة فى الهندوسيلان (سرى لانكا الآن) بالذات من أن تحتل منصب رئيسة الدولة ، ففى سيلان تحكم باندرانايكه ، وفى الهند أنديرا غاندى . وهذه بالطبع ظاهرة غير عادية حتى فى عالم القرن العشرين ، وهى لم تحدث حتى فى البلاد الاشتراكية التى قطعت شوطاً بعيداً فى المساواة بين الرجل والمرأة . بل هناك مجتمعات تستنكف رئاسة المرأة للرجل فى العمل ، وتعتبرها

« عيب » . وعندما زرت الهند لاحظت أن مثل هذه القضية لا تشكل مشكلة على الإطلاق على الأقل فى مجتمع نيودلهى . فالمرأة المثقفة تعمل فى كل الميادين وتحتل وظائف رئاسية فى كثير من الأحيان وهى مسئولة عن قيادة عدد كبير من الرجال وتوجيههم . وعند ما سألت بعض السيدات اللائى يتولين مناصب هامة عما إذا كان وضعهن كنساء يسبب لهن متاعب مع الرجال وجدت نفياً قاطعاً لأية شبهة من هذا القبيل . ويبدو أن المجتمع فى الهند قد تعود هذه الظاهرة منذ سنين كما هو الحال فى بعض القطاعات المحدودة عندنا مثل الشئون الاجتماعية . ولكن عندما حاولت أن أفهم أسباب هذا التقـــدم فى وضع المرأة لم أهتـــد إلى أسباب مقنعـــة . فالهند ما زالت بلداً نامياً يعانى من التخلف الاقتصادى والاجتماعى . وظاهرة اشتغال المرأة ما زالت محدودة النطاق ، كما أن النساء لا يتمتعن بكل حقوق الرجل . ومع ذلك فإن مكانة المرأة فى الحياة العامة : وفى المجتمعات ، وفى العمل وتمتعها بقدر كبير من الحرية والاستقلال ظاهرة ملفتة للنظر ، وناحية من نواحى التقدم فى الهنـــد . ويبدو من ضمن الأسباب أن الديانة الهندوكية ، التى يؤمن بها أغلب سكان الهند لا تفرق بين الأنثى والذكر برغم وجود فواصل واضحة وجامدة بين الطبقات الاجتماعية . فقد عرفت الهند طويلا بنظام « المنبوذين » الذين كانوا يتولون الأعمال التى تعتبر وضيعة فى المجتمع ، ويشكلون الكتلة الرئيسية من الفقراء ، ذلك النظام الذى وجه إليه « غاندى » أعنف الضربات إلى أن تقلصت مظاهره إلى نطاق محدود للغاية .

كانوا قد وضعوا تحت تصرفى سيارة أتنقل بها فى « نيودلهى » فى أثناء زياراتى لمختلف الأنشطة الخاصة بتنظيم الأسرة . وإلى جانب سائق السيارة كان يرافقنى فى بعض الأحيان أحد مندوبى إدارة الإعلام .

وفى يوم من الأيام كنا نتجه إلى مؤسسة فورد بجوار الحدائق المشهورة المسماة « لودى جاردنز » . كان أمامنا متسع من الوقت قبل الميعاد فاقترحت

على مرافقى أن نتناول فنجاناً من القهوة وبعض الحلويات الهندية التى أردت أن أتذوقها لأول مرة . فتوقفنا أمام محل صغير . دخلنا من الباب ولكننى لاحظت أن السائق بقى فى الخارج مع السيارة فطلبت من مرافقى أن يلحق بنا . عندما جلسنا فى المحل رفض السائق رفضاً باتاً أن يجلس معنا على نفس المائدة أو أن يأكل من نفس أطباق الحلويات التى اخترناها .

وبعد أن خرجنا من المحل سألت مرافقى عن السبب فقال : « غاندى ألغى جزءاً كبيراً من الفواصل بين الطبقات . ولكن هناك بقايا ما زال تحطيمها أمراً يتطلب مزيداً من التطور الاجتماعى والنفسى » .

وهذه هى إحدى المعارك التى دخلت فيها أنديرا غاندى . فى الفترة التى زرت فيها الهند كانت فى أوج شعبيتها . إنها استطاعت بالاعتماد على الجناح المتقدم فى حزب المؤتمر ، وعلى اليسار ، وعن طريق اللجوء إلى جماهير الشعب أن تحقق انتصاراً ساحقاً فى الانتخابات ، وأن تعزل الجناح الرجعى فى حزب المؤتمر . وكانت قد حققت انتصاراً عسكرياً حاسماً وسريعاً للهند على الجيوش الباكستانية فى الحرب التى قامت حول مشكلة استقلال بنجلاديش . ولكن فى الوقت نفسه كانت تواجه مشاكل معقدة وصعبة تتعلق بالتطور الاقتصادى والاجتماعى للبلاد .

المواد الغذائية أصابها نقص شديد نتيجة للجفاف ، والأسعار تصعد بشكل جنونى ، والأوساط الرأسمالية تستفيد من الوضع للمضاربة بالأسعار والنيل من الشعبية التى اكتسبتها أنديرا غاندى . وكل الدلائل تشير إلى أن استمرار الأوضاع كما هى لا بد أن تساعد أعداء التقدم على الاستفادة من هذه المصاعب ، ومن غيرها ، لتوجه سخط الجماهير ضد سياستها ، وضد الإجراءات التى اتخذتها مثل تأميم البنوك ، وشركات التأمين وبعض الصناعات الهامة . وهى فى مركز قوى ، تتمتع بتأييد واسع من الجماهير ، والتوقيت أنسب ما يكون لاتخاذ خطوات جديدة حاسمة فى الطريق نفسه ومع ذلك فهى تنتظر .

الهند : قرية هندية حيث يستخدمون الأدوات البدائية

هكذا صور لى الموقف أغلب الذين قابلتهم ، ما عدا ذلك العدد القليل الذى تتجه آماله نحو طريق آخر ، طريق النمو الرأسمالى .
فإذا زرت الهند فى هذه الأيام تحس أنها فى مفترق الطرق .

الزحام الخصب

هبطنا من القطار وركبنا الأتوبيس المنتظر خارج المحطة . انطلق بنا عبر الشوارع الضيقة المتعرجة . مئات الحوانيت الصغيرة تبيع الصنادل ، والحبوب ، والأطعمة والأقمشة ، وخليطاً من السلع المستعملة ، وآلاف من الناس يجلسون أمامها ، أحياناً نصف عرايا ، والأطفال بأعداد لا تحصى ، والذباب ولفحة الجو الحار الرطب ، وأزيز المروحة فى الأتوبيس مثل قوس فى يد طفل يروح ويجىء على أوتار الربابة يرهق الأعصاب .

مدن المغول جدران حمراء تحيط بالقصور . والقصور صروح أقامتها أيادى البنائين الماهرة ترتفع طابقاً فوق طابق لتطل على الوادى الأخضر يمتد حتى الأفق . وبحار للمياه ومساقط وحجرات وأحواش ، وكل شىء مبنى من كتل الحجارة الحمراء . معمار يدل على الفن والجبروت فى آن واحد ، خليط من المدنية والبربرية ، مزيج من الحس المرهف والقسوة ، يشعرك بأن الحياة هنا كانت تحلق فوقها رائحة العطور والدم المسفوك .

وعندما أذهب لرؤية هذه العالم فإننى نادراً ما أشعر بمتعة حقيقية . فالحجارة مهما كانت جميلة لا تترك فى عقلى أو قلبى شيئاً أحمله معى بعد أن أترك المكان . الحجر لا يشعل الفكر والخيال إلا منحوتاً أو مصبوباً فى بعض التماثيل . عندئذ يتحدث الحجر الصامت بعذاب الفنان ومعاناته ، أما آثار المعمار الضخمة فتعيد إلىّ المطعم المر للطغيان والرق .

أخيراً وصلنا إلى مقصدنا . دلفنا من البوابة الحجرية إلى حوش مربع

تحيط به الأبنية الحمراء التى أصبحت جزءاً من المناظر المألوفة لدى . صعدنا السلالم إلى قوس مفتوح فى البناء . تقدمت بخطوات بطيئة أستمتع بالنسيم المنعش الرطب الذى هب علينا فجأة ينساب بدفعات قوية لينة عبر القوس المفتوح . خطت قدماى فوق آخر درجة وسارت فوق أرض من الرخام الأبيض لتقع عيناى على منظر لم أر مثيلا له من قبل .

عبر القوس المفتوح على بعد ما يقرب من مائة متر رأيت بناء كالنافورة البيضاء تنفجر من أحشاء الأرض الخضراء . قبة مستديرة كالنهد ، ومآذن عند الأركان ترتفع فى تحد نحو السماء . والرخام الأبيض يشتعل ، بهدوء فى ألوان الشمس المشرقة .

همس الترجمان فى صوت خفيض :

« قيل إن السلطان حزن حزناً عميقاً على موت زوجته . فقد كانت أحب النساء إلى قلبه فأمر بإقامة هذا الضريح ليحتوى جسدها » .

قلت :

« ولكن اليد التى صنعت هذه الخطوط تمردت على أوامر السلطان » .

« كيف؟ »

« اليد لم تصنع ضريحاً لحب السلطان ، فالسلطان لم يكن يعرف معنى الحب » .

« ماذا صنعت إذن ؟ »

« صنعت ضريحاً للحب الحقيقى ، لشفافية الإنسان ، وخصوبة الحياة » .

قال الترجمان :

ولكن هذا هو « التاج محل » .

نظرت إليه كأننى لم أسمعه . سرت بخطوات بطيئة أقترب من الضريح . تملكتنى رغبة عارمة فى أن ألمسه ، كأن الرخام الأبيض سيرتعش بالحياة تحت يدى .

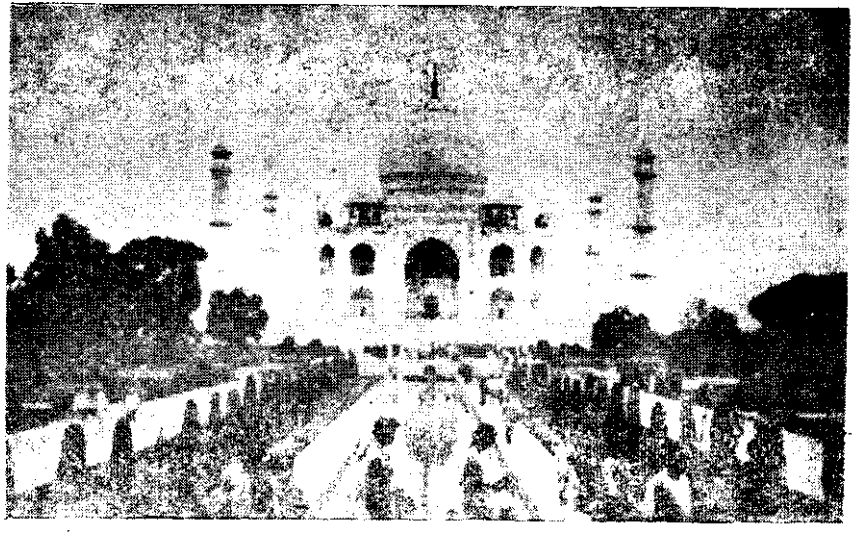

الهند : (تاج محل) ، ضريح للحب صنعته أيد فنانة

عودة من « التاج محل »

ما زالت أمامنا ساعتان قبل أن نستقل قطار العودة من « أجرا » إلى « نيودلهى » . أخذت أتجول فى شوارع المدينة الصغيرة . صف طويل من الحوانيت تبدو خالية من الزبائن . ومع ذلك أصحابها وعمالها يقفون داخلها كأنهم على أهبة الاستعداد ، ترى عيونهم السوداء اليقظة تلمع فى البياض .

والهنود تجار مخنكون ينتشرون فى عدد كبير من البلاد الآسيوية والأفريقية ويكونون جاليات كبيرة عدديًّا ولها ثقل اقتصادى كبير بسبب سيطرتها على التجارة ، وعلى عديد من الحرف . ولكن برغم يقظتهم لفرص كسب المال فلم أستمتع بالشراء فى أى بلد من البلاد مثلما استمتعت فى الهند .

الحانوت الضيق المستطيل يمتد مسافة ثلاثة أو أربعة أمتار وعرضه لا يزيد على متر ونصف . وبطول الجدار على كل جانب تجد مصطبة من الخشب لا يزيد ارتفاعها على متر على الأكثر مغطاة بقماش أو سجاد ملون . تدخل الحانوت على أصوات الترحيب وتجلس متربعاً على المصطبة ويتربع التاجر على المصطبة أمامك .

ذات صباح دخلت أحد متاجر الأقمشة فى « بانجات مارج » . جلست القرفصاء أمام التاجر . رجل أسمر يبدو فوق الخمسين ، هادئ وقور ، يرتدى اللباس الأبيض الهندى وفوق رأسه الطاقية البيضاء .

« صباح الخير » قالها الرجل بالإنجليزية .

« صباح الخير » .

« أية خدمة ؟ »

« أريد أن أشترى قمصاناً مطرزة » .

نظر إلى بعينيه الصغيرتين الذكيتين .

« من أى بلد أنت ؟ »

« من مصر » .

« ولماذا جئت ؟ للسياحة ؟ »

« لا . لزيارة مشاريع تنظيم الأسرة . أسمعت عن وسائل تنظيم الأسرة ؟ »

« نعم . ولكننى لا أمارسها » .

« لماذا ؟ »

« لأن الدنيا لم تضق فى وجهى بعد » .

إذن تعتقد أن تنظيم الأسرة للفقراء فقط » .

« لا ، إننى لاأقصد ذلك . أقصد أنه علينا أن ننجب أطفالا على قدر طاقتنا فى توفير سبل الحياة لهم » .

« معك حق » .

« ولكن ينبغى أن نسعى لتوسيع سبل الحياة على الناس » .

« وكيف ذلك ؟ »

« أن ننمى مواردنا . وأن توزع بعدالة بين الناس » .

« أليس هذا ما تفعلون » ؟

« هكذا تقول الحكومة . ولكن ما زلنا بعيدين عن تحقيقه . والمصالح الكبيرة فى بلادنا ما زالت تلعب بمصايرنا . وهم يمارسون ضغوطاً ونفوذاً على الحكومة . ونحن التجار الصغار فريسة للكبار » . . .

سكت لحظة كأنه سرح فى شىء بعيد ثم استطرد : « زوجتى مرضت منذ شهرين فصرفنا مبالغ طائلة على الأطباء والأدوية . أسعار الأدوية عندنا تفوق إمكانيات متوسطى الحال مثلى ، ناهيك بالفقراء الذين يستحيل عليهم شراؤها . فصناعة الأدوية هنا تحتكرها الشركات الأجنبية الكبرى . تحقق أرباحاً خيالية تصل إلى ضعف أو ثلاثة أضعاف أسعار الأدوية وتعصرها من المستهلكين الذين يدفعون ثمنها . الإنسان يولد ويدور

كالبقرة فى الساقية طوال حياته ثم يموت . ولا يوجد إلا قلة ضئيلة تستمتع على حساب الآخرين . أليس كذلك ؟ »

« هو كذلك »

حملق فى وجهى كأنه يريد أن يستشف مشاعرى إزاء ما يقول :

« أنت لم تأت لتسمع كلامى » .

« على العكس . أحب أن أستمع إليك . هل تنتمى إلى حزب من الأحزاب ؟ »

« أنا عضو فى حزب المؤتمر منذ سنين طويلة » .

« وما رأيك فى سياسة حزب المؤتمر الآن ؟ »

هز كتفيه فى حركة تنم عن الحيرة .

« لم يعد واضحاً ماذا تريد "أنديرا" . إنها تتحدث عن الاشتراكية ولكن الرأسمالية تنمو . ومع ذلك نشعر أنها تحب الهند وتريد أن تبنيها بناء جديداً » .

ضرب على جرس يدوى صغير إلى جواره . ظهر صبى من خلف ستارة عند آخر الحانوت .

« قهوة » .

« أشكرك . لا داعى » .

« لا . . . لا بد من أن تتناول فنجاناً من القهوة . القهوة مستحبة فى الصباح الباكر » .

ثم وقف بقدميه الحافيتين على المصطبة الخشبية وأخذ يسحب من فوق الرفوف أكواماً من القمصان . فى لمح البصر وجدت أمامى عشرات القمصان بألوانها الزاهية كالأعلام المتموجة فى الريح ، وعلى صدر كل قميص رسوم مطرزة بيد تحس فيها الذوق الرفيع الذى لا يصنعه إلا تراث الأجيال .

أخذ يستعرض بضاعته ، تحس فى حركة يده وهى تبسط القماش

أمامك أنه فخور بما تراه عيناك ، وأن عملية البيع بالنسبة إليه ليست تجارة وإنما استمتاع وتذوق هادئ للأشياء . إنه لا يوحى إليك أبداً بأنه مصر على أن تشترى شيئاً ، ولا أن العمل الذى يقوم به هدفه أن تخرج من هذا المكان بلفة تحملها تحت إبطك . إنه كالفنان الذى يعرض لوحاته لا يمل من طلباتك ، وكأنه على استعداد لأن تتفرج على كل البضاعة المصفوفة على الرفوف المنتظمة بعضها فوق بعض حتى السقف .

وأمام هذا الجهد الهادئ الصبور كان لا بد أن أشترى شيئاً ، ولكنه جعل من النصف ساعة التى قضيتها فى الدكان لحظات من التبادل الإنسانى والفنى ، تضاف إلى تلك اللحظات من المتعة البسيطة التى تحس فى النهاية أنها هى « الحياة » .

ولكن ليس فى شارع «أجرا» الرئيسى ما يلفت الاهتمام . تحس هنا أنهم تعودوا اصطياد السياح ، وأن كل صاحب حانوت يقف عند الباب يحملق فى المارة كأنه يبحث عن فريسة . والعيون السوداء هنا كالجواهر المصقولة لها نظرة نفاذة كنظرة الطيور الجارحة .

أحسست بالجوع ينقض على فجأة فدخلت أحد المطاعم . « الجارسون » يقف على بضع خطوات منك وعيناه مصوبة إليك فى نظرة استعطاف توحى إليك بطلب المزيد . هذه النظرة تحس بها كثيراً فى الهند تولد لديك مزيجاً من الضيق والشفقة لأنها نظرة الفقر . إلى جوارى جلس اثنان ، شاب وشابة عرفت من كلامهما أصلهما الفرنسى . كان الشاب يرتدى بنطلوناً ضيقاً وقميصاً ملوناً ، يتحدث بصوت عال وحركاته تنم عن العجرفة . كان فى حالة هياج مستمرة . كلماته تنطلق فى عصبية ، يطلب شيئاً ثم يعيده إلى « الجارسون » رافعاً أنفه إلى أعلى فى ازدراء .

وجلست الشابة أمامه صامتة تنظر إليه بعينين فيهما استسلام لقدر لا بد من تحمله .

حول المائدة الأخرى التفت أسرة من « السيخ » . رجلان أجسادهما

ضخمة ، تزيد من ضخامتها اللحية السوداء المسترسلة ، وطفلان كالعيدان الخشبية المحروقة لا ترى فيها سوى العيون الفاحمة . رائحة العطر ، وحرير العمامة ، واللحية الناعمة تشعرك بشيء كالأنوثة ، بالجنس المزدوج ..

أحسست بالطعام يسرى كالتيار الدافئ فى جسدى . أشعلت سيجارتى واستسلمت لإحساس من الرضى بالحياة . لحظات تعيشها بعيداً عن طحونة الأيام ، لحظات نادرة قصيرة كالأحلام تتبخر فى الصباح ولكنها تبقى فى الذاكرة كأنها الشيء الوحيد الحقيقى فى هذه الحياة . ترى بماذا كان يحلم صانع « التاج محل » ؟

« أتشا »

لا أميل بطبعى إلى الذين يتكلمون كثيراً . وتجربتى فى الحياة جعلتنى أحذر من نوعين من الناس : الثرثارين ، والذين يدافعون عن آرائهم بتطرف ، فلم أتذكر أننى قابلت شخصاً يتسم بالجدية والعمق ويكون كثير الكلام فى الوقت نفسه ، بل على العكس عندما أختلط بالناس . أجد نفسى منجذباً بشكل طبيعى نحو الشخص الذى يبقى صامتاً ، وأبذل المحاولات لاستكشاف ما يخفيه هذا الصمت تحت السطح . ولا أقصد بالطبع أن هناك تلازماً حتمياً بين الصمت والعمق . فى بعض الأحيان تكتشف أن الصمت يعبر عن فراغ الشخصية ، عن عدم وجود شيء فى أعماق الشخص يستطيع أن يعبر عنه .

أما التطرف فى الآراء فهو غالباً ما ينم عن محاولة لإخفاء حقيقة الإنسان . فالذى يتحدث كثيراً عن الثورة تجده كغص الملح يذوب عندما تندفع الأحداث وتتأزم ، والذى يتحدث عن الشجاعة يرتجف إذا ما استلزم الأمر أن يواجه من هو أقوى منه . بل كثيراً ما تجد ارتباطاً وثيقاً بين الثرثرة والتطرف . فهما ينمان عن كيان أجوف كالطبلة ، تحدث ضجيجاً وهى ملأى بالهواء .

والهنود بطبعهم ثرثارون . وهذه إحدى الصفات التى لا تعجبنى فيهم . وربما كانت هذه الصفة علامة من علامات التخلف . فعندما تتقدم الشعوب يتعمق إدراكها للعالم الذى يحيط بها ، وتنمو قدرتها فى السيطرة عليه وتسييره وفقاً لرغباتها ، وتغييره فى الاتجاه الذى تريده . وهنا يحل الفعل مكان الكلمة ، وتصبح الكلمة تعبيراً دقيقاً ومختصراً للفعل ، وتتحول اللغة من أداة للبلاغة إلى أداة للعمل .

ومع ذلك فإن للكلمة جمالها . ويزداد جمالها كلما كانت قادرة على التعبير باختصار عن معنى محدد . وفى اللغة الهندية هناك كلمة أسرتنى بجاذبيتها . كلمة « أتشا » إنها تعنى نعم ، ولكن مع ذلك فلها عشرات المعانى التى تتباين ، وتتلون ، وتتنوع ظلالها حسب الطريقة التى تنطق بها ، قوية قاطعة أحياناً ، مفعمة بالحنان والرقة أحياناً أخرى . تتباين حسب حركة اليد ، أو الكتفين ، أو نظرة العينين ، أو ذبذبة الأحبال الصوتية . واكتشفت بالتدريج أنها تعنى نعم ، ولكنها أحياناً تعنى « لا » أو « هكذا » ؟ أو « موافق » أو « أنا مندهش » أو « أنا مستنكر » أو « كما تشاء » أو « أنا مستسلم لك » . وعندما أتذكر الهندى ترن كلمة « أتشا » فى أذنى كالنغم ، وتجد معها عشرات بل مئات من صور تلك القارة الضخمة التى تضطرم حياتها بسخونة الملايين .

المتاجرون بالخرافة !

فى يوم من الأيام كانت المياه تباع فى بعض أحياء القاهرة . وفى المدن الهندية الكبيرة تجد رجالا يقفون أمام فناطيس ضخمة مثبتة فوق أربع عجلات يدفعونها أمامهم ، ليبيعوا أكواب المياه المثلجة بمبلغ يساوى قرشاً واحداً من قروشنا .

ومدينة نيودلهى ليست مدينة واحدة بل مدينتين : دلهى الحديثة

ودلهى القديمة . وفى إحدى الأمسيات قادتنى السيارة الفولكس الصغيرة إلى المدينة القديمة . كنت قد رأيت « القلعة الحمراء » وضريحى نهرو وغاندى من قبل ، ولكننى ذهبت هذه المرة أقصد زيارة الجامع الضخم الذى لمحت مآذنه العالية ترتفع فى عناد نحو السماء الرمادية .

والسماء هنا دائماً رمادية ، لا ترى مساحة زرقاء إلا فى القليل النادر . وفى أغلب الوقت تنهال الأمطار الغزيرة فى سيول لا تنقطع لتحول الشوارع إلى أنهار وقنوات كأنك تعيش فى مدينة عائمة .

ولكن فى هذا اليوم كانت الرياح المنعشة تجتاز المساحات الخضراء بعد أسبوع من الأمطار المستمرة . الجامع يرتفع على ربوة عالية يطل بكبرياء فوق المدينة القديمة . وحول الجامع شوارع ضيقة ازدحمت بالناس والحوانيت الصغيرة وعلى الأرصفة « تندات » ممزقة مرفوعة على عصىّ من الخشب تحتها أكوام من الملابس القديمة والخرق والحبال ، والزجاجات الفارغة تفوح منها رائحة غريبة خانقة ، والمسامير الصدئة . ورجال عُجُز وصبيان فى أسمالهم الممزقة يحملقون أمامهم فى يأس كأنهم فقدوا الأمل منذ زمن بعيد فى أن يلتفت أحد إلى بضاعتهم . والسلالم العريضة تصعد إلى الجامع من جميع الاتجاهات يجلس عليها مئات الشحاذين ، أجسادهم بلا عيون ، أو بذراع واحدة تمتد إليك ، أو بسيقان تنتهى عند الركبة . ورجال ينامون على البلاط يسيل من أفواههم لعاب أبيض كالذى أصابته نوبة صرع . ووجوه لا ترى فيها سوى عيون تحدق ، وعروق وعظام . فهنا فوق درجات الجامع رأيت الجوع يتحرك ، ويمشى ويتجول بنظراته الضائعة .

عند مدخل الجامع وقف رجل طويل القامة كعصاه الخيزران ، الوجه المدبب ينتهى عند الذقن فى لحية بيضاء ، وعلى جلده الأسمر تشوهات الجدرى القديم .

خلعت حذائى وتأهبت لدخول الجامع . خاطبنى الرجل بلغة عربية

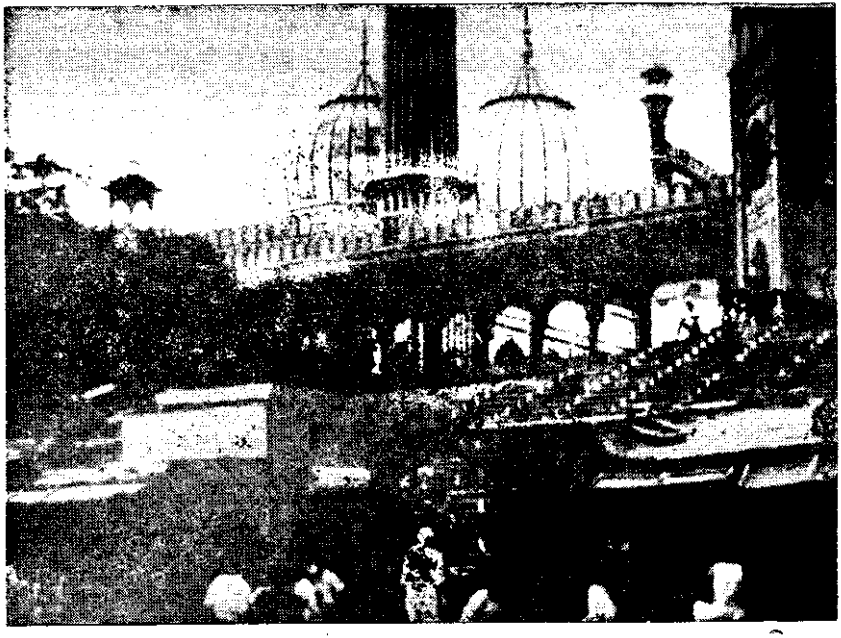

دلهي القديمة : لقطة داخل القلعة الحمراء

ركيكة تبينت بعض كلماتها بصعوبة شديدة .

« مسلم أنت ؟ »

« نعم من مصر » .

انكشفت شفتاه الرفيعتان عن أسنان مدببة كالأنياب :

« إذن تعال معى » .

سرت وراءه . قادنى إلى زاوية من زاويا الجامع . الأرض مفروشة بالسجاد وفى الجدار قوس مفتوح يقود إلى حجرة صغيرة لاتكاد تسع الرجل الجالس القرفصاء داخلها وإلى جواره صندوق أسود صغير . اقتربت بشىء من الحذر . الرجل طويل نحيل والوجه تكسوه صفرة مريضة يؤكده سواد اللحية الفاحم .

كان يرتدى قفطاناً أسود ، وعمامة ، ويحمل فى يده اليسرى مسبحة طويلة تدور بين أصابعه العصبية .

أحسست بعينين سوداوين باردتين تستقران على وجهى ، وانتابنى شىء كالقشعريرة الخفية .

فتح الصندوق وأخرج صفحات من الجلد صفراء مكتوب عليها بالخط الكوفى . قال :

« هذا قرآن سيدنا على » .

حملقت فيه بشىء من الاندهاش ثم أومأت برأسى فى محاولة لإخفاء ما كان يدور فى ذهنى . أخرج قطعة حجر انطبعت عليها معالم قدم .

« وهذا قدم النبى ... أذاب الحجر فانطبعت عليه قدمه وهو يسير » .

أعاد الأوراق وقطعة الحجر وأخرج زوجاً من الصنادل البدوية كادت أن تتفتت من شدة القدم .

كان يحملها برفق ويتمتم بكلمات غير مفهومة كأنه يتعامل مع

أشياء مقدسة . استقرت على وجهى نظرة العينين الباردة . أحسست وكأننى أواجه نظرة الثعبان .

قال :

« وهذا صندل النبي » . ثم مد يده وأخرج حزمة شعر واستطرد « شعرات من ذقن النبي عليه الصلاة والسلام » وكأنه تذكر هذه المرة إضافة « عليه الصلاة والسلام » .

أومأت برأسى من جديد كأننى أؤكد صدق **كلامه** ودقته . فتح علبة خشبية مطلية بقشرة تبدو كالفضة . فى القاع كانت ترقد بعض قطع النقود .

أحسست بالعناد يستولى على ، ذلك العناد الذى يتملكنى كلما واجهت من يحاول أن ينصب على بأى شكل من الأشكال .

قلت :

« لا » .

استدرت سائراً فوق البساط . ارتديت حذائى تحت نظرات الكراهية وكأنها فوهات بنادق . هبطت السلالم بين الأجساد المعذبة المتناثرة فوق الأرض ، والعيون كالأفواه الفاغرة الجائعة .

أحسست بقطرات المطر تسقط فوق رأسى وذراعى . سرت متجاهلا الإنذار . كانت بى رغبة إلى السير تحت المطر ، إلى الغرق تحت مياه السيول وكأننى أسعى إلى إطفاء شعلة الغضب التى تحرقنى كالجمرة الدفينة . مر بى رجل يركب دراجة . توقف عندما رآنى أخوض تحت المطر على قدمى . أشار إلى بالركوب خلفه . كان قد ثبت مظلة سوداء فوق دراجته فسرنا عبر الشوارع تبدو كالأنهار الفائرة فى زمن الفيضان . الرجل نحيل ترى عضلات ساقيه نافرة كالأسلاك من شدة المجهود . مر الوقت وكأن المسافة إلى نيودلهى لا نهاية لها . ندمت على أننى ركبت خلفه وفكرت فى النزول . كنت أحس من تقوس ظهره ، ومن ضغط قدميه

على « البدال » المجهود الذى يبذله ولكننى أدركت أننى سأحرمه من روبية أو اثنتين يحلم بهما الآن ، وهو يشق طريقه عبر المطر المنهمر ، ويتخيل نفسه عائداً إلى البيت يحمل إليهم ما يسكت جوعهم ولو إلى حين .

المطر يرف على انشوارع والأرصفة بصوت كملايين الأصابع الرفيعة ، وبين الحين والحين ينطلق الرعد بذلك الصوت المخيف الذى يجعلك تتوقع كارثة ما . تذكرت طفولتى . كانوا يقولون لى إن الرعد هو اصطدام بين السحب الكثيفة الغاضبة . كل طلقة للرعد تبدو كالكرباج الهائل تسمع لسعة ذيله عند آخر السماء . وبعد الرعد ينهمر المطر أكثر بغزارة . مررنا وسط حدائق وبيوت الأحياء الفاخرة . رأيت بوابة ترتفع كقوس النصر وطريقاً يمتد فى خط مستقيم إلى داخل حديقة هائلة . وعند آخر الطريق قصر أحور يرتفع كتلا من الحجر الصامت بدا بعيداً منغلقاً على نفسه ، كأن أحداً لا يستطيع أن يصل إليه ليكشف ما وراء الجدران . سمعت أنفاس الرجل اللاهثة وهو يقول :

« قصر الرئاسة » أحسست بالماضى يجثم بثقله على هذه البلاد الجذابة المفزعة ، الجميلة القبيحة تختلط فيها الألوان الحلوة والآمال بسواد الجوع وقسوته . فالجدران العالية تراها فى كل مكان تفصل بين مجتمعين ، بين دلهى الجديدة ودلهى القديمة ، بين الهند التى تولد مع صحوة الملايين وبين الهند التى يريدها سلاطين الأرض والمال .

مناقشة فى حدائق « لودى » !

كل شىء معد الآن للرحيل . الحقائب مجهزة فى الحجرة . والحساب مدفوع . منذ يومين تناولت العشاء فى منزل مدير إدارة التدريب بجهاز تنظيم الأسرة وهو أستاذ سابق للباتولوجية (علم الأنسجة المريضة) فى كلية الطب . كان يستعد للعودة إلى الجامعة مرة أخرى . شقة كبيرة جدرانها عالية ، وأضواؤها خافتة وأثاثها عتيق قاتم ، يخيم عليها جو من البرود الغريب ، وكأن الذين

يعيشون هنا بقايا لماض مات وانتهى. الرجل طيب، وزوجته سيدة متدينة أشد طيبة وبنتها سنها إحدى وعشرون سنة حلوة كالفراشة. ولكنك تحس أنهم يحيون فى عالم من صنعهم ، عالم رومانسى يجيش بالعواطف ، ولكنه مفصول عن الحياة ، مفصول عن الحركة الدائبة الساخنة للجموع التى تروح وتجىء فى شوارع المدينة الكبيرة ..

حتى الغذاء لا طعم له ولا رائحة .أشياء باهتة موضوعة فى أطباق . بين الحين والحين تسقط فيها حشرة من الحشرات الطائرة . الرجل يجلس أمامى على كنبة والحديث يروح ويجىء بيننا فى فتور . شىء ما فى الجو يوحى بالعزلة التامة ، بالإخفاق . كأن الجالسين أجساد بعثت من الماضى لتشهد ما يدور اليوم .

وبالأمس زرت الدكتورة « راو » فى منزلها لأودعها وأشكرها على اهتمامها المستمر والجهود التى بذلتها حتى أحصل على أكبر قدر من المعلومات والفائدة فى أثناء إقامتى فى نيودلهى . واستمتعت طوال الساعتين التى قضيتهما فى المسكن الصغير المكون من ثلاث حجر بالأحاديث الأسرية البسيطة ، والضحكات الشابة ترن فى استرسال مُعْدٍ ، وجو البساطة الدافئة الخالية من العقد . .

وتجولت قليلا بين أجنحة الفندق . كانت الإدارة تجرى ترميمات وتجديدات واسعة . وحركة دائبة من العاملات والعمال يروحون ويجيئون حاملين أكياس الرمل ، والأسمنت ، والجبس ، وكميات من الطوب الأحمر . الأجسام الهزيلة تنوء تحت الأحمال . تراهم يستريحون عند الأدوار وتسمع أنفاسهم اللاهثة وهم يصعدون الدرجات ومعهم أطفالهم ، كتل صغيرة من اللحم العارى ، يجلسون على الأرض البلاط . أو يصطحبون أمهاتهم عبر الأبهاء الطويلة المظلمة ، أو يقضون حاجتهم فى الأركان .

لم يبق سوى زيارة واحدة . خبير أمريكى فى علم الاجتماع قضى حتى الآن ثمانى سنوات فى الهند .

اتفقنا على أن نلتقى فى مكتبه الساعة الرابعة بعد الظهر ثم أنزل إلى « حدائق لودى » المجاورة .

كل شيء فى هذا الرجل حجمه ضخم . رأسه الكبير تعلوه هالة من الشعر الأشقر الكثيف وكأنها عرف الأسد واليدان الكبيرتان أصابعهما طويلة ، سميكة . قوية . والقامة طويلة ، عريضة ترتفع إلى أعلى فوق ساقين كجذوع الشجر . والكتفان والذراعان ممتلئة تحس بالعضلات المتضخمة تحت القميص ، وترى العنق يبرز منه كقاعدة التمثال المصبوبة .

العينان الزرقاوان ينظران إليك فى برود هادئ . كان من المفروض أن نتحدث عن تنظيم الأسرة ، ولكن الحديث اندفع منذ البداية إلى السياسة . كنت أحس كأن شيئاً ما يضطرم فى داخله ، شيئاً ما أصبح شغله الشاغل بحيث لا يستطيع أن ينفصل عنه أو ينساه . فتركته يتكلم مكتفياً بأن أوجه إليه سؤالا بين الحين والحين حتى لا يتوقف الحديث . كان فى حالة غير عادية .

« الهند خطت خطوات كبيرة فى السنين الأخيرة . ومع ذلك لم أعد متفائلا كما كنت عندما جئت إلى هنا منذ ثمانى سنوات . أصبح هناك جو يخيم على البلاد لا أدرك كنهه ، نوع من القومية المبالغ فيها تؤدى إلى رغبة متزايدة فى الاعتماد على النفس ، فى الاستغناء عن المساعدات التى يستطيع أن يقدمها الغرب . وأنا أخشى هذه الروح . إنها ستؤدى فى رأيى إلى تدهور فى الموقف ، وإلى إخفاق الجهود التى تبذل للبناء وربما إلى الفوضى » .

« أليست هناك أسباب لذلك ؟ »

« طبعاً هناك أسباب . بعض الأخطاء فى سياستنا وموقفنا فى الحرب الأخيرة . ولكن من الذى لا يخطئ فى مواجهة تعقيدات عالم اليوم ؟ وهل يمكن أن ننسى أن لأمريكا ارتباطات متشابكة مع دول

كثيرة لا بد أن تؤثر على سياستها ؟ وهل كان من الممكن أن نتخلى عن باكستان ؟ »

« ولكن هذه الرغبة فى الاستقلال . هذا الإدراك المتزايد فى البلاد النامية بأن جهد الشعب نفسه وسعيه الدائب لتحقيق التطور الاجتماعى وقدر أكبر من الرفاهية الموزعة بعدالة على مختلف الفئات والطبقات ، ما الذى يزعج فى ذلك ؟ » .

« هذا ليس ما يزعجنى وإنما يزعجنى أن يتم هذا فى عزلة ، بل ربما فى عداء مع الغرب » .

« ولكن هل تعتقد أن العداء نابع من البلاد النامية . ما هى المساعدات الحقيقية التى يقدمها الغرب للشعوب التى تخلفت بسبب سياسة الغرب الاستعمارية ؟ » .

حملق فى وجهى بنظرة باردة . ثم قال :

« ينبغى أن نطوى صفحة الماضى ، ونفتح صفحة جديدة . إن العالم يتغير ، والسياسة تتغير معه » .

« هل تغيرت إلى درجة الاستعداد لمساعدة الهند مثلا فى أن تصبح دولة صناعية عصرية تطعم الجوعى وتوفر لهم العدالة الاجتماعية التى أصبحت حلم كل إنسان فى عالم اليوم . ألن يكون هذا على حساب الأموال التى تستنزف لخدمة الدوائر المالية الحاكمة فى الغرب ؟ هل يمكن أن تتغير السياسة إذا لم تتغير المصالح ؟ .

« ولماذا تفكر كل البلاد فى التصنيع العصرى . أليس هناك تقسيم للعمل ؟ هذه سنة الحياة . لكل منا وظيفة وعمل . قانون الطبيعة الذى لا يتبدل » .

أحسست بالحديث بيننا يتعثر كأن حاجزاً ما يحول دون التفاهم . تناولت آخر رشفة قهوة فى الفنجان وقمت ألقى نظرة على المكتبة ترتفع

رفوفها المتتالية حتى السقف . دق الجرس الصغير المثبت فى مكتبه : دخلت فتاة هندية فسألها :

« كنت قد أعددت بعض الكتب للدكتور . أين هى ؟ »

أشارت إلى مجموعة من الكتب على مكتبه . قدمها لى وهو يقول :

« بعض الكتب عن طريقة إدخال المشكلة السكانية وتنظيم الأسرة فى مراحل التعليم المختلفة . دراسات أجراها الأستاذ " متنا " فى المعهد العالى للمهن التعليمية ربما وجدت فيها بعض الفائدة » .

« متشكر . ستكون مفيدة لا شك . فهذه إحدى الوسائل التى يستطيع بها التعليم إعداد الأجيال القادمة بفهم أعمق لهذه المشكلة الحيوية ، وبضرورة تغيير أنماط الحياة . وبالمناسبة نسيت أن أسألك عن الدراسات التى تقوم بها الآن » .

« أنا أجرى دراسة اجتماعية عن بعض العادات والنظم المتعلقة بالزواج فى الهند . وقد سافرت إلى عديد من الولايات وأقمت فيها فترات طويلة . ولكننى أعمل الآن فى المنطقة المحيطة بدلهى » . وقد اكتشفت أنه ، على بعد ما لا يزيد على ٤٠ كيلومتراً من العاصمة ، توجد عادات غريبة موروثة عن الماضى . فمثلا فى كثير من الأسر ما زالت الزوجة تعاشر ، لا الزوج فقط ، وإنما إخوته أيضاً معاشرة جنسية منتظمة ، وهذا يعلم الجميع بدون إفصاح علنى عن هذه العلاقة المتعددة الجوانب . ولكن عند ما يكون أحدهم فى حجرتها يترك صندله أو حذاءه فى الخارج حتى يعلم الآخرون . وفى قديم الزمان كان يترك سيفه أو رمحه معلقاً على الجدار خارج الباب حتى لا يدخل أحد عليهما .

الحدائق فى الخارج يخيم عليها هدوء اليوم الذى يقترب من نهايته . شباب وفتيات يسيرون متشابكى الأيدى يتحدثون فى همس كأنهم يريدون الحفاظ على سحر اللحظات الجميلة . مساحات خضراء ،

وتماثيل ، وأحواض من الزهور وأشجار ، ممرات مرسوسة بالزلط والحجارة الملونة. مساحات تبدو لانهائية ، ترتفع وتنخفض فى تلال ووديان صغيرة . وأسراب الطيور الملونة تنتقل من شجرة إلى شجرة تشدو بأصوات كالموسيقى ، « والسارى » الملون فوق الأجسام الرشيقة السمراء ينقلك إلى زمن مضى ، زمن الشعر ، والتأمل بعيداً عن ضجيج المدن والآلات .

غريبة الهند هذه . فيها جمال الشعر وعمق التفكير المتأمل وفيها كل قبح الإنسان البائس المطحون .

أيام فى باكستان

الطائرة « الجامبو » ٧٤٧ مثل الأتوبيس الضخم . الناس يجلسون صفوفاً على المقاعد ، أو يروحون ويجيئون فى الممرات ، والمضيفات ينتقلن باستمرار لتلبية الطلبات التى لا تنقطع ، والجو فيه طنين ، لا يرتفع إلى درجة الضجيج ولا ينخفض بحيث تستطيع ألا تلتفت إليه . جسم الطائرة كالبطن المنتفخ لحيوان ضخم تزحف فيها الديدان . الخطوط الانسيابية اختفت ، والألوان أصبحت باهتة ، والإحساس بأنك تحلق فوق السحاب وتشق الفضاء العريض كالصاروخ الهادئ تلاشى والألفة مع مجموعة صغيرة من المسافرين تحولت إلى مجرد تجمع من الأجساد والأرقام لا تعنى شيئاً . التكنولوجية الحديثة تمحو تمايز الأشياء ، والناس ، وتحولها إلى مجرد أعداد وأنماط موحدة .

فى المطار أحسست فجأة بدفء الإنسان يعود . الضابط الأسمر استقبلنى بابتسامة بيضاء وبعينين سوداوين فيهما بريق وهو يقلب صفحات جواز السفر : « من مصر » . « نعم » . « تتحدث اللغة العربية » نطق الجملة بطريقة خاصة كأنه يحب الكلمات التى تخرج من بين شفتيه ويحرص على إعطائها حقها ، على استطعامها قبل أن تتلاشى وتموت .

« أتتحدث باللغة العربية » ؟

« إذن أنت آخ » أغلق الحقائب بنفسه وسلمنى الجواز ثم أشار إلى بالمرور « البلاد بلادكم » أحسست بكآبة الطائرة تتبخر . حملت حقائبى وخرجت من باب المطار . كانت أضواء الفجر تطارد بقايا الظلام عند الأفق البعيد . الشوارع صامتة خالية من الحركة ، ما عدا بعض سيارات الأجرة تقف فى جمود بارد وإلى جوارها عدد من السائقين

باكستان والصين .. صداقة الأضداد

ينفضون بقايا النوم من عيونهم .

تقدم نحوى رجل قصير القامة ، أسمر الوجه ، شائب الشعر ورمقنى بنظرة صارمة .

« د . شريف » .

« نعم . أنا » .

مد يده وسلم على . وجهه ما زال صارماً تبدو على كل حركة من حركاته أنه يقوم بمهمة خطيرة تستلزم أن يبدو جاداً .

« أنا " أحمد بشير " من الجهاز القومى لتنظيم الأسرة . السيارة فى انتظارك » .

حمل عنى السائق حقائبى ودلفنا داخل السيارة القارعة . انطلقت مسرعة بين صفوف البيوت التى ما زالت تغط فى النوم .

« حجزنا لك فى فندق إمبريال » .

« كم أجرة الحجرة ؟ »

« ٣٥ روبية فى اليوم » .

« هذا كثير . ليس معى نقود تكفى » .

بدا على قسمات وجهه ما يشبه التقلص الخفيف أضاف جموداً إلى جمودها السابق .

« إذن سنذهب إلى فندق " جاربيس " . الأجر هناك عشرون روبية فى اليوم » .

« هذا أنسب » .

خاطب السائق بكلمات بدت إلى كحشرجة تخلو من المقاطع المحددة . رأيته من الخلف يومئ برأسه العريض المسطح يشبه رءوس أهل الشام .

كراتشى مدينة ساحلية تنقلت بين أطرافها المترامية طوال الأسبوع الذى قضيته هناك . فى يوم من الأيام قادتنى خطواتى إلى حيث يتنزه

سكان المدينة بجوار البحر . مساحات من الرمال المخلوطة بالطمى : مساحات رمادية فيها لزوجة مرهقة تنغرس فيها الأقدام ، وسور عريض من الأسمنت يجلس عليه الناس ، وباعة جائلون يبيعون الحبوب المحمصة الحريفة ، وخيام ممزقة تحتها بعض الموائد الخشبية ومقاعد من القش مثل مقاهى الريف عندنا ، وأراجيح للأطفال ، ورجل أسمر ظهره للعمود ويعد حصيلة اليوم كأنه يحسب ماذا يمكن أن يشتريه لأطفاله عند العودة ، وألعاب نارية فيها تعاسة الفقر ، وبحر لونه خليط من القار الأسود والمساحات الرمادية تبدو حزينة تحت السماء المغطاة بالسحب . تذكرت جمال البحر الفيروزى على شواطئ الشمال فى بلادنا ، البحر المتوسط كالجوهرة الزرقاء تمتد إلى الأفق وفوقها أشرعة الصيد البيضاء .

« البورى بزار » . . . سوق الأقمشة ، والملابس الحريرية والمناديل وأفواج من الناس يسيرون عبر الحوارى الضيقة يرتدون ألوان « السارى » التى تخطف البصر ، ألوان الشرق وسحره . وفى الحانوت الضيق جلس التاجر ، جسد كالعصا الرفيعة يعرض مناديله ، مناديل من الحرير رسمت عليها الطيور ، والأشجار والزهور ، بمادة كالشمع يبسطها على القماش من أنبوبة صغيرة بيد الفنان الحاذق . دلفت عبر المدخل الضيق وألقيت عليه السلام بالعربية . رمقنى بنظرة حادة من تحت حاجبيه الأسودوين الكثيفين . أشار إلى اثنين من الأمريكيين جلسا أمامه وهو يستعرض بضاعته فوق البساط المزركش بألف لون وقال :

« انتظر حتى ينصرفا . فأنت أخ وأنا أريد أن أعطيك سعراً خاصاً » .

هنا اللغة العربية مفتاح القلوب وكلمات « السلام عليكم » كالتعويذة السحرية تثير بريقاً حاراً فى العيون ، وتصنع المعجزات . إنها تجعل كل شىء سهلا ميسوراً .

جلست فوق السجاد السميك أحتسى زجاجة الكوكاكولا الكبيرة

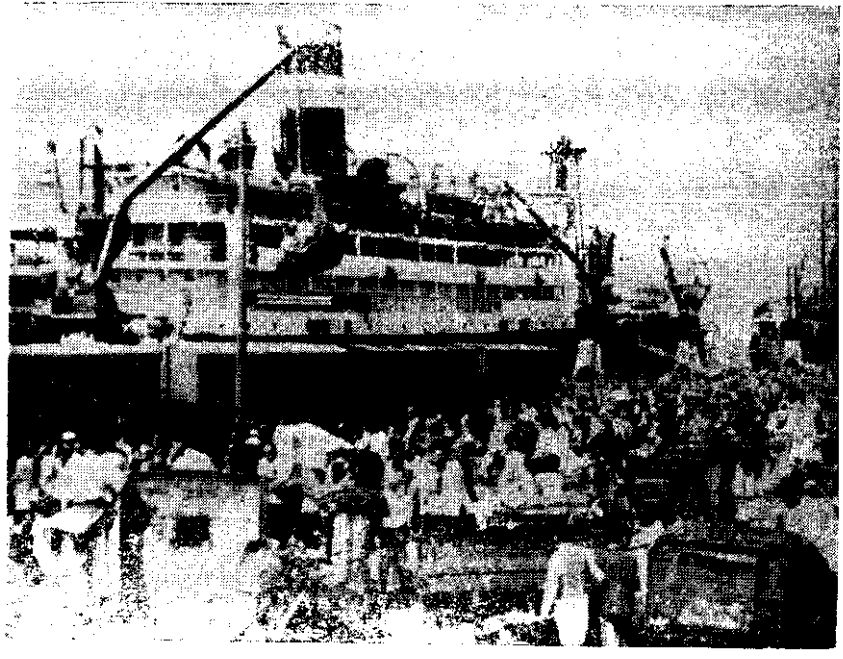

باكستان : ميناء كراتشى

المثلجة التى أحضرها إلى صبى صغير وقف أمامى يتأملنى بنظرة ثابتة جادة كأنه يدرسنى على المهل . بعد قليل فرغ الرجل من زبائنه والتفت إلىّ .

« أنت مصرى ؟ »

« نعم » .

« ومسلم ؟ »

« ومسلم » .

« نحن أيضاً مسلمون ، كلنا مسلمون هنا فى باكستان » . وأحسست بنغمة من المرارة فى صوته وكلماته ، تلك المرارة التى أصبحت قادراً على اكتشافها منذ أن وطئت أقدامى أرض باكستان ، تختبئ فى ثنايا الأحاديث ، وتتخلل مقاطع الألفاظ مهما كانت عادية . . . مرارة الهزيمة . قرأت فى عينيه ذلك القلق الحائر الذى ألمحه فى كل العيون ، قلق الهزيمة يضطرب فى الأعماق و يولد التساؤل حول المستقبل ، والشك فى كل شىء .

ساد الصمت لحظة طويلة ، ثم قال :

« إننا لانريد أن نشغلك بكلامنا هذا . فأنت أتيت لتشترى وشاحاً من الحرير لا لتستمع إلينا . ولكن أريد أن أقول لك شيئاً . الهزيمة فتحت عيوننا على أشياء كثيرة والناس ليسوا على استعداد لأن يعيشوا مغمضى العيون كما عاشوا فى الماضى . ومع الأيام فإن الناس سيأخذون مصيرهم بين أيديهم ليتصرفوا فيه بدلا من أن يتركوا حفنة من الناس تتصرف كما تريد » .

خرجت من المحل أحمل وشاحين من الحرير لزوجتى ولأمى ، وأحمل معى صراعاً تجدد بين بين الأمل واليأس .

* * *

لا أعرف حتى الآن لماذا أحسست أن لهذه البلاد سحراً خاصًّا ؟ أهو بسبب تلك العاصفة من الأفكار التى تضطرم فى العقول وتنفجر فى

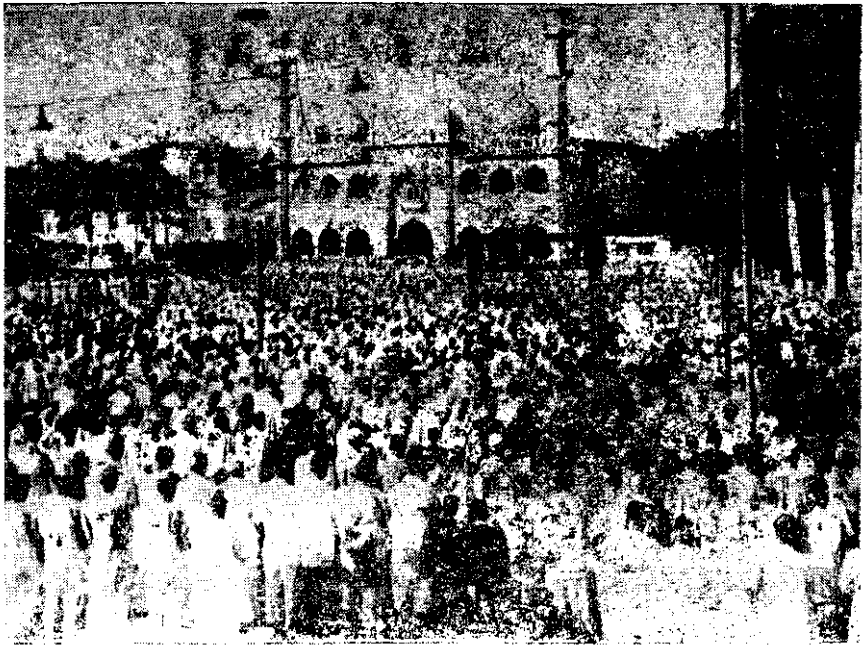

باكستان : صلاة العيد

الكلمات؟ أم بسبب تلك الحرارة الفريدة التى يستقبلك بها الناس وكأن مجرد وجودك يضفى عليهم سعادة لم يألفوها من قبل ، فيلتفون حولك ، تبرق عيونهم بحيوية متجددة وتلمع الأسنان البيضاء فى ابتسامة حلوة ، يلتقطون كلماتك ، ويعرضون عليك خدماتهم ، ويهتمون براحتك وبكل التفاصيل الصغيرة التى تخص إقامتك . السيارة تأتيك من الفجر إذا لزم الأمر ، وطلباتك مجابة فى لحظات ومع ذلك يعتذرون فى كل لحظة لأنهم لم يقوموا بالمزيد .

مرافقى أحمد بشير . . . الرجل الصارم الصامت الذى كان يضحى حتى بأيام عطلته ليرافقنى فى كل مكان والذى شعرت بسعادة خاصة عندما تمكنت بعد يومين من أن أجعله يضحك بصوت مسموع . عن طريقه اكتشفت أن « المانجو » فى باكستان فاكهة لامثيل لها فى العالم ، كتلة من الحلاوة تسيل فى الفم ، وأن العنب ذا اللون الأصفر حباته مثل « بز العنزة » يجعلك تحتار بينه وبين المانجو ، وأنه يوجد نوع من « الأيس كريم » اسمه « كوفلى » هو أطعم ما تذوقته حتى الآن ، فتدهش لماذا يتميز « الأيسكريم » فى باكستان بالذات دون سائر البلاد .

وهو الذى قادنى فى يوم الاستقلال إلى زيارة ضريح « محمد على جناح » . ضريح أبيض تراه من بعيد فوق ربوة تطل على كراتشى وتصل إليها عن طريق حدائق مدرجة تتخللها الزهور والنافورات وأحراض من الفسيفساء الزرقاء . الضريح مبنى من الرخام فى شكل مربع وترتفع فوقه قبة عالية ، وكل ضلع من الأضلاع يتخلله قوس عال مفتوح ، تطل منه على مئات الدرجات البيضاء التى تنحدر نحو الحدائق ، وعلى مدينة كراتشى ، وعلى البحر الرمادى يبدو قاتماً من بعيد ، وتأتيك عبره لفحات من الهواء لا تحس بها فى أى مكان آخر من المدينة .

ولكن فى هذا اليوم كان يغطى الحدائق ، والمدرجات المتصاعدة ،

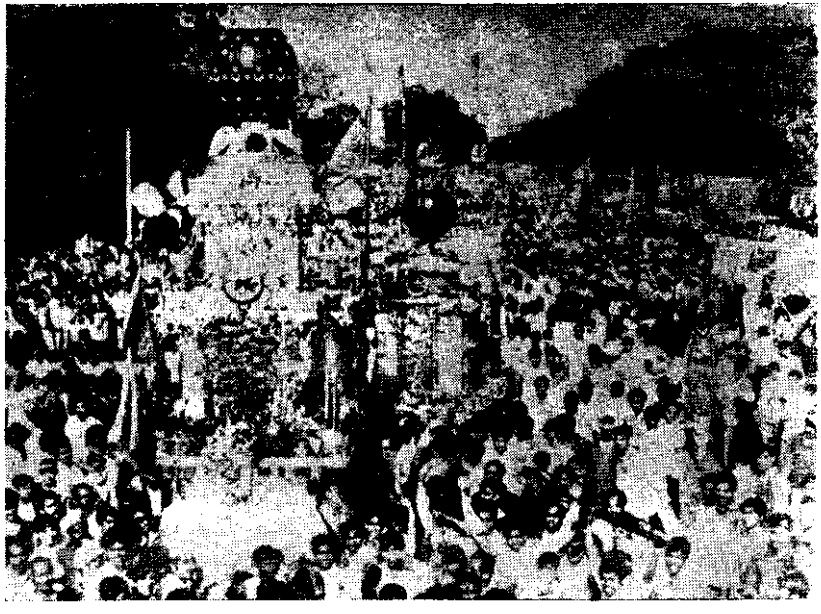

باكستان : موكب العيد

والمساحات البيضاء المحيطة بالضريح بساط أسود يكون من آلاف الأجساد المتلاصقة ، تلاحمت حتى أصبحت نسيجاً كثيفاً لم يترك ثغرة واحدة أو فجوة . وفوق الأكتاف رفعت اللافتات البيضاء ، وفوق الأعناق ارتفعت أجساد الخطباء ، وفى الفضاء العريض ترددت الهتافات كقصف الرعد تعلو وتهبط ، وتعلو من جديد وكأن قوة خفية تصر على إذكائها .

مررنا بصعوبة بين الأجسام المتلاحمة حتى وصلنا إلى الضريح ؛ وحوله اصطفت طوابير دائرية من الفتيان والفتيات وعلى أحجاره المرمرية المصقولة أقواس الزهور والورد يغلب عليها اللون الأبيض والبرتقالى .

رفعت رأسى إلى السقف . رأيت نجفة مصنوعة من الذهب ومنحوتة بدقة تتدلى من داخل القبة العالية على سلسلة ذهبية طويلة . شىء ما فى دقة الصنع وفى الفخامة المتناهية تشعرك بالبذخ أو بالكرم الذى ينتمى إلى عصور مضت ، عصور كان يصنع فيها الأرقاء والعبيد التحف لأسيادهم .

لاحظ مرافقى حركة عينى المتأملة فقال :

« هدية من حكومة جمهورية الصين الشعبية » .

وأحمد بشير هو الذى أعطانى خريطة المدينة حتى أستطيع أن أتجول وحدى عندما صممت على أن يأخذ قسطاً من الراحة ، وأقنعته أننى أستطيع أن أتصرف وحدى بدون أن أفقد طريقى .

وهكذا رأيت جامع وزارة الدفاع . إنه بناء دائرى ضخم رصع بقطع من الحجر تلمع كالألماس وتتخلل جدرانه آلاف الفتحات المغطاة بالزجاج لونه كالمرمر . الجامع عبارة عن قبة عملاقة ترتكز على الأرض ، داخلها صحن دائرى يسع سبعة آلاف من المصلين . أرضه مغطاة ببساط سميك

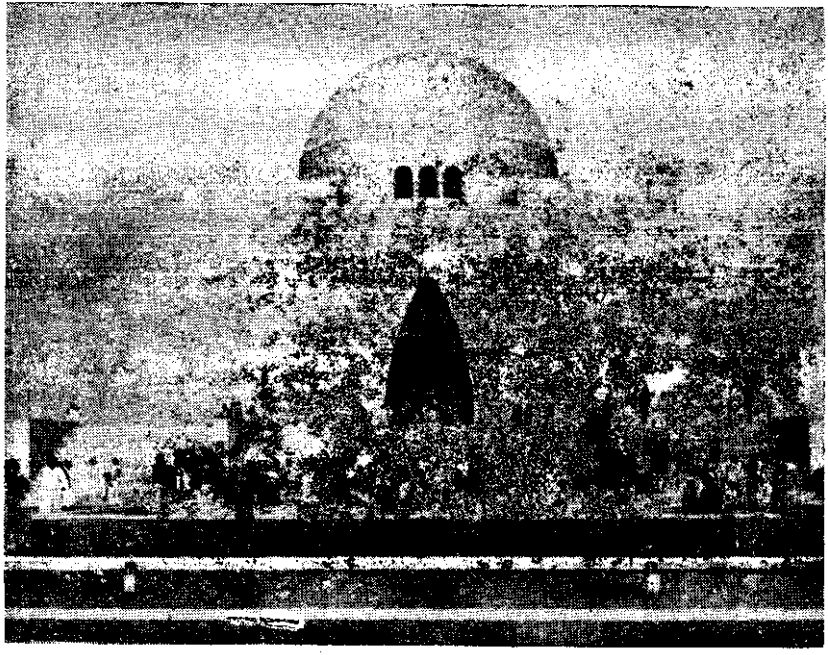

کراتشی : ضریح « محمد علی جناح » مؤسس پاکستان

لونه سمنى يبدو كأن كل مساحاته قطعة واحدة . والجامع يكاد يقول :
« أنا أشهد على قوة وزارة الدفاع وجبروتها » .

وهكذا قادتنى خطواتى فى إحدى الأمسيات إلى الأحياء الشعبية فى « كراتشى » حديقة فى قلب المدينة . .. مساحة خضراء مقسمة إلى مرتفعات ، ومقاعد ، ومشايات ، والسماء تزحف عليها أجنحة الليل ، وتطارد بقايا السحب ، كتل شفافة اختلطت فيها مساحات ذهبية ، وبنفسجية ، ووردية . . . لوحة تبهر الأبصار . وفى الحديقة الفوانيس الكهربائية تتدلى برشاقة من عمد معدنية كالأعناق . والناس يسيرون عبر الممرات ، أو يجلسون على الحشيش الأخضر ، أو ينامون على ظهورهم يتأملون أنوار النهار المنسجمة . وكل حركة تنم عن الهدوء ، عن التأمل ، عن الاستمتاع باللحظة الطويلة كأنهم يمتصون منها آخر قطرة من السعادة .

وحول الحديقة من كل الجوانب شارع ضيق ، وحارات تتفرع منه . سوق ضخم يبيع الفواكه والخضراوات وأنواعاً مختلفة من الأطعمة المطبوخة . صفوف من الحوانيت الصغيرة ، أو الرفوف المقامة فى العراء ، أو العربات الخشبية للباعة المتجولين ، وأوان ضخمة يتصاعد منها البخار ، وصوان ضخمة ترتفع منها أصوات الزيت الساخن ، وروائح السمك واللحم . وآلاف الناس يسيرون .

وعندما تخترق الحديقة أو السوق لا ترى فى هذه الأحياء سوى الرجال وعندما تذهب إلى دور عرض الأفلام فى كراتشى ، وهى كثيرة ، لا تجد إلا الرجال . ودور العرض هذه متوسطة الحجم ، بسيطة وفى منتهى النظافة وأغلبية الأفلام المعروضة أمريكية ، بل أغلبيتها تتعرض لموضوعات جنسية . وهكذا تجد صورة أخرى من تلك التناقضات التى تهز المجتمعات النامية . . . مجتمع رجالى متزمت يقضى شبابه أغلب أوقات فراغه فى مشاهدة الأفلام التى تدق على وتر الجنس .

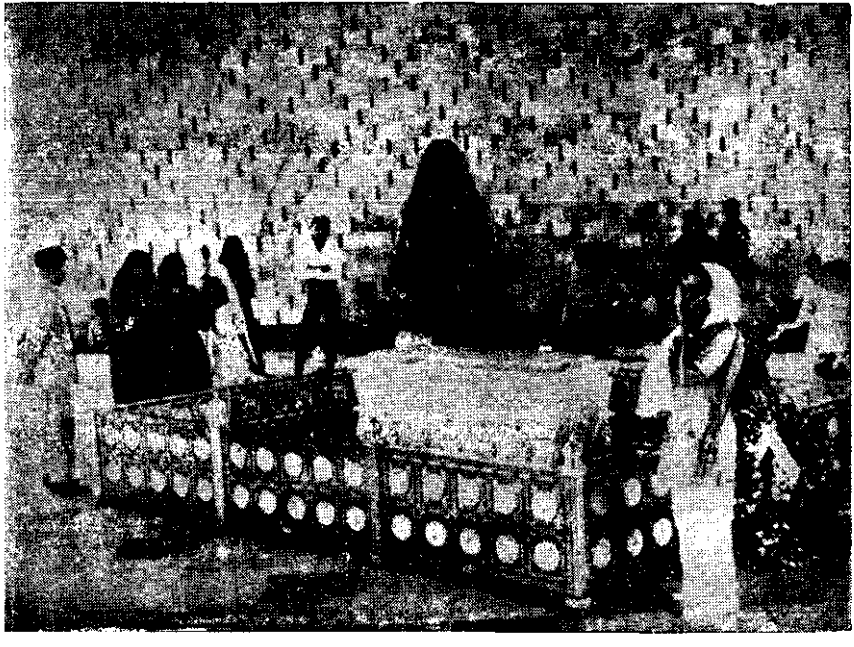

كراتشى : ضريح محمد على جناح من الداخل

الأجيال فى تنظيم الأسرة

منذ اتصالاتى الأولى بالمسئولين عن تنظيم الأسرة فى باكستان أحسست بأن المشروع هناك أصبح فى مفترق الطرق ، ومن بين الأسباب لا شك حالة الانتقال التى كانت تعيشها البلاد فى جميع المجالات .

فى ظل حكم « الجنرالات » أيوب خان ثم يحى خان كان تنظيم الأسرة على قمة المشاريع التى كانت تهتم بها الحكومة . كل الأموال اللازمة ، وكل الإمكانيات البشرية والمادية توضع تحت تصرف المشروع بدون عناء ، والعاملون فيها يشعرون أنهم فوق المستوى العادى لباقى موظفى الحكومة . كان هذا أمراً طبيعيًا ينسجم مع الرباط القوى بين السياسة الباكستانية والنفوذ الأمريكى . السياسة الخارجية نابعة من الأحلاف العسكرية التى ارتبطت بها باكستان منذ إنشائها ، والسياسة الداخلية نابعة من نظام الدكتاتورية العسكرية الذى قضى على كل مظاهر الديمقراطية ، وحال دون التنمية الاقتصادية والتطور الاجتماعى ، ووقف جهوده لخدمة حفنة من الأغنياء فى باكستان الغربية . وقد تبنى النظام ، بإيحاء وبتشجيع الدوائر الأمريكية ، فكرة تنظيم الأسرة لمواجهة مشاكل الفقر المتفاقمة بين جماهير الشعب ، وعلى الأخص فى باكستان الشرقية (بنجلاديش الآن) للحد من النمو السكانى بديلا من التنمية ، ووسيلة لتخفيف التناقضات الاجتماعية .. ولذلك فإن باكستان كانت المثل الذى يجسد نظرة الاستعمار إلى المشكلة السكانية وطرق حلها . لقد صرفت مبالغ كبيرة وصلت إلى عشرات الملايين من الدولارات (٦٠ مليون دولار) على هذا المشروع على حين رفضت الدوائر المالية الأمريكية المساهمة فى مشاريع التنمية ، وعلى الأخص المنشئات الصناعية .

واعتمد المشروع بشكل أساسى على تجنيد جهود الآلاف من العاملين وأساساً « الدايات » ليقمن بإقناع النساء فى الريف أن تركيب

باكستان : فى البورى بزار . الأوانى النحاسية المرسومة . دقة و إتقان

اللولب ، بهدف منع الحمل ، أمر مفيد لهن . كما تركزت الجهود أيضاً على إقناع النساء والرجال بإجراء عمليات التعقيم . وأقيمت معسكرات خصيصاً لهذا الغرض، وكانت تدفع مكافآت مالية سواء للدايات ، أو للسيدات اللاتى يوافقن على تركيب اللولب ، أو للرجال الذين تجرى لهم عمليات تعقيم . وتحول المشروع بالتدريج إلى عملية تجارية ضخمة تستغل حاجة الفئات الفقيرة إلى المال لتغريها على استخدام أساليب منع الحمل .

وبرغم كل الجهود أخفق المشروع فى تحقيق أهدافه . ذلك أن الاستعداد للتحكم فى الإنجاب وعلى الأخص فى المجتمعات الريفية يتولد أساساً نتيجة للتنمية الاجتماعية الاقتصادية وما يصاحبها من تحضر ، وتصنيع ، وميكنة ، وتشغيل للمرأة وقضاء على الأمية ، وارتفاع فى نسبة التعليم وتحسن فى مستوى المعيشة وفى التغذية يخفض وفيات الأطفال . وعندئذ تتجه هذه المجتمعات اتجاهاً أكثر إلى الإقلال من الإنجاب . أما محاولة إقناع الأسر بالتقليل من عدد أطفالهم بدون أن تتغير ظروف حياتهم فهى محاولة أثرها محدود . إن التنمية والمشكلة السكانية كوجهى العملة الواحدة يؤثر كل منها على الآخر ويتأثر به .

يضاف إلى ذلك أن الاعتماد على الدايات كانت محاولة مقضيًّا عليها بالإخفاق لأن « الدايات » يعتمدن فى حياتهن على ولادة الأطفال ، ولذلك ليس من السهل الركون إليهن فى الدعوة لتحديد الإنجاب .

لقد أدت أحداث الحرب الباكستانية إلى تفجير كثير من القضايا ومن بينها تنظيم الأسرة ، واحتدم الصراع بين أجيال المسئولين القدامى الذين تحملوا مسئولية المشروع وبين الشبان الذين أدركوا أنه فى هذا المجال قد اتبعت سياسة مضللة ، هدفها صرف الأنظار عن المشاكل الحقيقية والطريقة السليمة لمواجهتها .

باكستان : الأطفال يتعلمون فى الكتاب القرآن والحساب

وربما كانت مثل هذه العثرات فى مواجهة المشكلة السكانية هى أحد العوامل الهامة التى نبهت الأذهان فى السنين الأخيرة إلى أن أية محاولة للفصل بين مشكلة الانفجار السكانى ، وبين قضايا التنمية الاجتماعية الاقتصادية مآلها الإخفاق فى مواجهة هذه المشكلة .

* * *

كانت الساعة قد قاربت السابعة عندما لمحت شاباً طويل القامة يجول بعينيه على الجالسين فى الفندق . كنت جالساً بجوار النافذة أتطلع إلى السيارات تمرق عبر الشارع فى سباق هادئ ، وأضواء الليل تتلألأ على واجهة المحال والمطاعم والفنادق . تقدم نحوى بخطوات مترددة فقمت من جلستى وقلت :

« مساء الخير . أنا الدكتور شريف » .

أضاءت وجهه ابتسامة مرحة وقال :

« هيا بنا السيارة تنتظرنا . أنا الدكتور علاء الدين » .

كنت قد قابلت زوجته الطبيبة فى الصباح فى أثناء زيارتى لمقر الإدارة المسئولة عن تنظيم الأسرة لمقاطعة كراتشى . جلسنا حلقة واسعة من الشباب الباكستانى ، منهم أطباء وإخصائيون اجتماعيون ورجال إعلام . دار الحديث متحفظاً أول الأمر ، منطلقاً حراً بعد أن أحسوا بأننى أتكلم معهم بصراحة ، وزاد حماسهم عندما علموا أننى أكتب فى بعض الأحيان . ففى كل مكان تجد أن الكتابة لها جاذبية خاصة للناس ، تفوق جاذبية أية مهنة أخرى . فعندما يسمع الناس أنك تكتب تشرق وجوههم بذلك الخليط من الدهشة والإعجاب الذى يضفى عليها حيوية ويفتحون لك قلوبهم .

المسئول عن الإدارة طبيب شاب تدرك من أول لحظة أنه من أبناء الطبقة الموسرة فى باكستان بل ربما من الفئات الأرستوقراطية . أحسست بارتياح عميق إزاء هذا الشاب . وجهه الأبيض منحوت فى خطوط

حادة واضحة لا تخلو من مسحة جمال أنثوى . كان هادئاً يميل إلى الصمت ويتحدث بحساب كأنه يفكر قبل أن يتكلم . شعره الكثيف يسقط كالجناح الأسود فوق جبهته ، وعيناه تلمعان ببريق كالفصوص كلما تحمس لفكرة . شيء ما فيه يوحي بشعلة من الفن الدفين .

« شبابنا فى أزمة طاحنة . أحس أنه غرر به وأفاق على آماله تنهار مع الهزيمة . لابد أن نعيد بناء بلادنا ، ولكن كيف ؟ هذا هو السؤال » .

قال شاب أسمر كان يجلس على يميني :

« الرأسمالية طريق مسدود » .

تدخلت سيدة فى مقتبل العمر شعرها تتخلله خيوط من الشيب كالحرير الفضي فى السواد الكثيف وعيناها الواسعتان تشع منهما الطيبة ، وشيء كالحزن الدفين :

« لا تتسرعوا . إن تفكيركم هذا هو الذى يقود الكثيرين إلى اعتبار ما يدور فى الصين حلا لمشاكلنا » .

فى آخر الحجرة كان يجلس رجل انغمس بجسمه الضخم فى المقعد العميق . رأسه يعلو فوق الجميع تغطيه هالة من الشعر الأحمر الملتهب . مال علىّ مرافقى وهمس فى أذنى « إنه شاعر » . كان يجلس صامتاً مغمض العينين كأنه سرح بذهنه بعيداً عن الحديث . فاجأنا صوته العميق يرتفع من جوف الصدر العريض :

« فى المراحل الأولى عندما ساد النقاء الثورى ، والمبادئ الصارمة والإصرار على العدالة ، وعلى التضحية وعلى المساواة كان الإسلام هو الإسلام . وعند ما استشرى بريق المال ، وتفشت الطبقية ، وأقيمت الممالك دخل الإسلام فى عهد الاضمحلال . والإسلام نجح عندما كان حداً كالسيف . ولكن عند ما بدأ المسلمون يلعبون بالمبادئ ، والحلول الوسطى ، والمساومات ، وسياسة البلاطات أهدرت المساواة فى الإسلام ، المساواة هى من صلب الإسلام . ومن يقل عكس ذلك فهو يفسر الإسلام

على هواه . ونحن نستطيع أن ننظر إلى الصين بدون أن نفقد إيماننا ، إذا أدركنا المعنى الحقيقى للإيمان . إن تزييف الإيمان هو الذى يضعف الدين لأنه عندئذ يدخل فى تناقض مع أحلام الإنسانية فى فرص متساوية وحقوق متساوية لكل البشر . لقد قال الله سبحانه وتعالى :

(ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) ولم يقل طبقات » . . .

ساد الصمت فى الحجرة . تدخل الطبيب الشاب .

« ضيفنا أتى لدراسة تنظيم الأسرة وليس لسماع مناقشاتنا فى السياسة . واليوم سيذهب إلى حيدر أباد . لا بد من الرحيل الآن إذا أراد أن يعود اليوم » .

همست الطبيبة :

« يشرفنا أن تتناول العشاء مع أسرتنا الليلة . سنمر بك فى الفندق الساعة السابعة مساء » .

هكذا وجدت نفسى محمولا فى السيارة عبر شوارع كراتشى . تركت النسيم يعبر النافذة المفتوحة . الأصوات المرحة وأنغام الموسيقى تأتينى مع الريح من مكان بعيد ، يتملكنى شعور المسافر الذى لا يتساءل إلى أين يسير ، وقد استسلم لسعادة اللحظة التى لا تعاش إلا مرة واحدة .

نزلنا من السيارة قرب الميناء . سرنا مسافة قصيرة بجوار جدار عال ثم دخلنا من باب ضيق . لمحت أشرعة بيضاء تشق الظلام فى صفوف تبدو كالرماح الطويلة . الأمواج الصغيرة تصدم الرصيف بصوت رتيب يهدهد الأعصاب وأضواء قليلة متفرقة ترقص فوق مساحات الظلام .

سار بنا المركب فوق سطح المياه ، كأننا ننزلق على الفراغ . أخذت عيناى تميز الأجسام والوجوه . كانوا أربعة : هم الزوج والزوجة وولداهما شاب وفتاة . الأجسام فارعة الطول فيها ليونة الخيزران والوجوه سمراء تومض ببياض الأسنان فى الظلام ، وتشع فى هدوء الواثق من نفسه .

كانوا يتحركون كأنهم جزء من الطبيعة . المركب يشق طريقه كالسكين وفى السماء تتلألأ نجمة وحيدة .

جلس الطبيب إلى جوارى :

« الليلة نحتفل بعيد زواجنا العشرين » تطلع إلى زوجته ثم صمت .

ضغط الشاب على مفتاح جهاز تسجيل كان يحمله معه .

قال الطبيب :

« أغنية من البنجاب » .

صوت امرأة يرتفع فى السكون ، طويلا ممتداً كأنها تغنى للزمن .

* * *

« فى السماء ومض ضوء أحمر ، طائرة تدور فوق المدينة استعداداً للهبوط .

أدركت فجأة أن الرحلة انتهت .

الرحلة انتهت . ولكن الحياة تسير .

ترى . . . إلى أين ؟ ! »

محتويات الكتاب

	الصفحة
رحلة إلى الشرق	٥
أيام فى تايلاند	١١
« الركشا » والإنسان	٢٦
الأرز المر	٤٩
مهما بعد الوطن	٧٠
سنغافورة	٧٥
التعقيم بعد الطفل الثالث !	٨٨
ماليزيا	١٠١
صناعة تدمير الإنسان من الداخل	١١١
السلطان فى المطعم	١١٧
أسوار تتحطم	١٤٦
حوار فوق السحب	١٤٨
أيام فى الهند	١٥٦
الهند تبحث عن نفسها !	١٦٥
الأيدى العاجزة عن البناء	١٧٩
الرخام الخصب	١٩٩
عودة من (التاج محل)	٢٠٢
المتاجرون بالخرافة !	٢٠٧
مناقشة فى حدائق « اودى »	٢١٢
أيام فى باكستان	٢١٨
الأجيال فى تنظيم الأسرة	٢٣١

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٢١٨٩ /١٩٧٤

مطابع دار المعارف بمصر – ١٩٧٤
١/ ٧٤/ ٤٥

٤٠٤١٩١/٠١

٥٢